
الدولة العباسية
بسم الله الرحمن الرحيم
الدكتور أسامة أبو طالب
دار البداية
دار البداية ناشرون وموزعون

الدولة العباسية

الدكتور
أسامة أبو طالب

الطبعة الأولى
2014 م / 1435 هـ



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/8/2839)

956.05

أبو طالب، أسامة سعيد

الدولة العباسية/ أسامة سعيد أبو طالب، عمان، دار البداية ناشرون وموزعون، 2013

( ) ص.

ر.أ.: 2013/8/2839

الواصفات: /الدولة العباسية 1258- 750/ العباسيون 1258- 750/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية أخرى.



الطبعة الأولى

2014م / 1435 هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - وسط البلد - تلفاكس . 4640679 6 962+

ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن

info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: 978-9957-82-299-6 (ردمك)

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس

أسباب صعوبة دراسة التاريخ العباسي

الفصل السابع

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون

الفصل الثامن

هارون الرشيد.. والعصر الذهبي للدولة العباسية

الفصل التاسع

أمراء المؤمنين

الموضوع	الصفحة

الاهداء

الى عائلتي الصغيرة في الوطن العربي الكبير

المقدمة

الدولة العباسية تعتبر من أبـرز الخلافـات الاسـلامية إذ أنهـا تعتـبر الخلافـة الثالثة التي مرت على الدولة الإسـلامية وثـاني السـلالات الحاكمـة الإسـلامية، حيـث استطاع العباسيون إزاحة الأمويون وإحلال العباسيون مكـانهم في الحكـم والخلافـة، ولم يبق من الأمويون إلا من لجأ إلى الاندلس، ويعود نشأة الدولة العباسية ونشـأتها إلى العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمد العباسيون في تأسـيس دولـتهم عـلى الفـرس وذلك لأن الفرس ناقمين على الأمويون في استبعادهم عن الحكم والخلافة واستعانوا كذلك بالشيعة المنتشرين في الجزيرة العربية في إزاحة الأمويون عن الحكم، وبعـدما استطاع العباسيون من إزاحة الأمويون وزعزعة كيانهم واستلموا الحكم، قاموا بنقـل عاصمة الدولة العباسية من دمشق إلى الكوفـة بـالعراق ومـن ثـم إلى الانبـار ومـن قاموا باعتماد بغداد عاصمة للدولة العباسية وازدهرت هـذه المدينـة ازدهـاراً كبـيراً خلال قرنين من الزمن، وتفوقت على كافة المدن العربية في الفـن والعـمارة والعلـوم والثقافة، ولكن لم تستمر الدولـة العباسـية نتيجـة لنشـوء حركـات شـعوبية ودينيـة متعددة التي كان منطقها يعارض بشدة مـع الفلسـفة العباسـية في ذلـك الوقـت في مجال الخلافة والإمامة ونتيجة لتطور الخلافات والنزاعات أدى في النهايـة إلى انهيـار الدولة العباسية بشكل كامل، وإننا نتناول في هذا الكتـاب بصـورة أعـم عـن الدولـة العباسية ونشأتها.

والله ولي التوفيق

المؤلف

الفصل الأول

بداية
الدعوة العباسية

بداية الدعوة العباسية

كان بنو أمية يجلون آل البيت، ولكن تجاوزات بعض الولاة أساءت في بعض الأحيان إليهم.

الحُميمة كان الوليد بن عبد الملك الخليفة يومئذ قد أقطع الحُميمة (بلدة في الأردن) لعلي بن عبد الله بن عباس فأقام واستقر بها.

بعد زيارة قام بها عبد الله بن محمد (أبو هاشم) إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك، الذي رحب به وأكرمه، شعر أبو هاشم بالمرض وأحس بدنو أجله، وأشاع الناس أن سليمان قد سمّه فعرج أبو هاشم على (الحميمة) ونقل ذلك إلى ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وطلب منه أن يقتص من بني أمية وذلك عام 99هـ.

لقي كلام أبو هاشم لابن عمه محمد موقعًا من نفسه، وكان رجلاً طموحاً وكان له أكثر من عشرين أخاً يدعمونه بالإضافة إلى أبنائه، فحمل محمد بن على الفكرة وهي: إزالة ملك بني أمية، وبدأ يعمل على تنفيذها.

اختيار المكان

اختار الكوفة وخراسان نقطتي انطلاق للدعوة وهو اختيار دقيق لأسباب منها:

1. أكثر الناقمين على بني أمية من الكوفة.
2. أن خراسان تقع في مشرق الدولة وإذا اضطرت الظروف يمكن أن يفر إلى بلاد الترك المجاورة.
3. وفي خراسان صراعات عصبية بين العرب (القيسية واليمانية) يمكن الاستفادة من هذا الصراع لصالحه.

4. وخراسان دولة حديثة عهد بالإسلام، فيمكن التأثير في نفوس أهلها من منطلق العاطفة والحب لآل البيت.
5. اختار الكوفة مركزًا للدعوة ويقيم فيها ما يسمى (بكبير الدعاة أو داعي الدعاة)، وتكون خراسان هي مجال انتشار الدعوة.

تنظيم أمور الدعوة

عمد كذلك إلى السرية التامة وكان حريصًا عليها، تنتقل المعلومات من خراسان إلى الكوفة إلى الحميمة، ويتحرك الدعاة على شكل تجار أو حجاج.

أول كبير للدعاة في خراسان هو أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق) الذي اختار اثني عشر نقيباً كلهم من قبائل عربية، وهذا يرد على الادعاء بأن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس، فكان كبير الدعاة يختار اثني عشر نقيباً يأتمرون بأمره ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيب سبعون عاملاً.

بدأت الدعوة تؤتي ثمارها في خراسان، وبدأ يظهر رجالها، مما جعل والي خراسان يومئذ وهو أسد بن عبد الله القسري يقبض على أبي عكرمة السراج، وعدد من أصحابه فيقتلهم سنة 107هـ.

وحتى سنة 118هـ استطاع أسد بن عبد الله (كان قد عزل ثم أعيد) بخبرته أن يكشف بعض قادة التنظيم العباسي واشتد عليهم فلجأت الدعوة العباسية إلى السرية التامة من جديد.

ولأن رجال الدعوة قد عرفوا هناك كان لابد من تغيير، فتم اختيار عمار بن يزيد (خداش) داعية جديداً في خراسان، ولكن لم يكن اختياراً موفقاً إذ أظهر بعد ذلك الكفر وانكشف أمره، وقتل على يد أسد بن عبد الله أيضًا سنة 118هـ.

شوهت أفعال خداش صورة الدعوة العباسية في أذهان النـاس، ولم يثقـوا في الداعية الجديد، إضافةً إلى شدة أسد بن عبد الله عليهم.

وحتى سنة 122هـ كانت الدعوة تسير ببطء فلقد ظهـر عـائق جديـد وهـو ثورة زيد بن على بن زين العابدين بالكوفة.. وكان لا بُدَّ أثناءها وبعدها مـن الهـدوء يعود الجو إلى حالته الطبيعية.

وفي سنة 125هـ توفي محمد بن علي وأوصى من بعده لابنه إبـراهيم؛ ليقـوم بمتابعة أمور الدعوة.

وجاء الفرج في سنة 125هـ بعد وفاة هشام بن عبد الملـك وانشـغال الدولـة الأموية بصراعاتها الداخلية.. بالإضافة إلى أن الـدعوة العباسـية بتوجيـه مـن إمامهـا قررت استغلال الصراع القبلي القائم بخراسان؛ وذلك لأن والي خراسان يومئذ كـان (نصر بن سيار) مضرياً وأكثرية العرب هناك من اليمانيـة فكرهـوه، فاتجهـت الـدعوة العباسية إلى اليمانية، وأثّر هذا الصراع القبلي على أحوال النـاس ومصـالحهم بكافـة فصائلهم (اليمانيون، المضريون، أهل العلـم، الفـرس، الـترك)، كـل هـذه الأحـداث ساعدت الدعوة العباسية على الانتشاط من جديد.

ظهور أبي مسلم الخراساني

وفي سنة 128هـ ظهرت شخصية قوية هـو أبـو مسـلم الخراسـاني (فارسـي الأصل) أحد دعاة بني العباس منذ سنوات، لمح فيه إبراهيم بن محمد الذكاء والكفاءة، فقرر أن يرسله إلى خراسان حيث أمر الدعوة في نمو مطرد.

وفي سنة 129هـ جاءت إلى أبي مسلم رسالة من الإمام تأمره بالظهور بالدعوة، ففعل، ووالي خراسان يومها مشغول بصراعات الدولة الداخلية، ولما كان يوم عيد الفطر صلى أبو مسلم بالناس.

مرحلة الاشتباك المسلح

وقع أول اشتباك بين قوة بني أمية وقوة بني العباس في خراسان، وانتصر فيها أبو مسلم على قوات نصر بن سيار، وكثر أتباع أبي مسلم فقد احتال حيلاً لطيفة في السيطرة على الأمر فكان يرسل إلى اليمانية يستميلهم، ويكتب إلى المضرية يستميلهم بقوله: (إن الإمام أوصاني بك خيراً، ولست أعدو رأيه فيك).

توترت الأحداث، وبعث مروان بن محمد في طلب إبراهيم بن محمد الإمام المقيم بالحميمة، فقيدوه وأرسلوه إلى الخليفة بدمشق فسجن.

وفي سنة 131هـ ازداد تمكن أبي مسلم من الأمر، وفر نصر بن سيار وتوفي، فدانت خراسان كلها لأبي مسلم.

وفي سنة 132هـ انتصرت قوات أبي مسلم على قوات العراق ثم توجه إلى الكوفة والتي كان قد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعياً لبني العباس.

وفي سنة 132هـ مات إبراهيم بن محمد في سجن مروان بن محمد، وأوصى بالخلافة بعده لأخيه عبد الله بن محمد (السفاح)، وبالفعل اختير السفاح أول خليفة لبني العباس في ربيع الآخر سنة 132هـ.

وفي 11من جمادى الآخرة أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين فسحقهم، واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس.

أول خلفاء بني العباس

خلافة السفاح عبد الله بن محمد العباسي (من ربيع الآخر 132هـ حتى ذي الحجة 136هـ).

خريطة الدولة العباسية ولد السفاح بالحميمة ونشأ بها، ثم لما أخذ مروان أخاه إبراهيم انتقل أهله إلى الكوفة فانتقل معهم، ويقال له أيضاً: المرتضى والقاسم، آلت إليه الخلافة كما رأينا واستقر بالكوفة.. بيد أنه واجه محاولات عديدة للخروج عليه، ولكنه استطاع أن يقضي عليها جميعاً مستعيناً بأبي مسلم الخراساني وفئة من أهله وعشيرته وكانوا كثرة، وكان شديد البطش والتنكيل بخصومه، فكان جُلُّ اعتماده على:

1. أبو مسلم الخراساني بالمشرق.
2. أخوه أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.
3. عمه عبد الله بن على بالشام ومصر.

ان معظم ولاة السفاح من أعمامه وبني أعمامه.. وعَهِد السفاح من بعده إلى أخيه أبي جعفر المنصور ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي، ولم تطل أيامه، فقد أصيب بالجدري فمات، ولم تستقر له الأمور بصورة تامة.

مخاطر على الدولة الناشئة

أبو جعفر المنصورلما تولى المنصور الخلافة (من ذي الحجة 136هـ حتى ذي الحجة 158هـ) وضع نصب عينيه مخاطر ثلاث لا بُدَّ أن يقضي عليها:

1. منافسة عمه عبد الله بن علي له في الأمر، وقد كان موكلاً بتدبير جيوش الدولة من أهل خراسان والشام والجزيرة والموصل ليغزو بهم الروم (وكان رغم جلالة قدره عند بني العباس لكنه كان قليل الحزم.
2. اتساع نفوذ أبي مسلم الخراساني، أحد أعمدة الدولة العباسية فكان أبو جعفر شديد الحنق عليه، لا يرضيه أن يكون له في الأمر شريك ذو سطوة وسلطان.
3. بنو عمومته من آل علي بن أبي طالب الذين لا يزال لهم في قلوب الناس مكان، خاصة محمد بن عبد الله بن حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فخاف أبو جعفر أن يحاول الخروج عليه.
4. معالجته للخطر الأول فأما الخطر الأول: إزالة عمه: (يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه).
5. كان عبد الله بن على ينتظر أن تؤول إليه الخلافة لما كان له من يد طولى في القضاء على ملك بني أمية، فلما جاء الخبر باستخلاف أبي جعفر المنصور خلعه وأعلن البيعة لنفسه.. فأرسل إليه أبو جعفر جيشًا بقيادة أبي مسلم الخراساني فالتقوا عند حران ودارت معركة بين الفريقين لمدة ستة أشهر وظلت المعركة سجالاً ثم تحولت إلى أبي مسلم الذي انتصر، وفر عبد الله بن علي إلى البصرة عند أخيه سليمان فعلم بذلك أبو جعفر فبعث إلى أبي سليمان يأمره بإحضار عبد الله بن علي إليه، وأعطاه الأمان لعبد الله ما جعله يثق به، فجيء به إلى المنصور سنة 139هـ فأمر بحبسه وحبس من كان معه وظل في حبسه حتى مات سنة 147هـ وكانت هذه غدرة من المنصور.

معالجته للخطر الثاني

ما الخطر الثاني: أبو مسلم الخراساني:

قاد أبو جعفر أن يصطاد أبا مسلم قبل أن يعود إلى خراسان بعد هذه المعركة، ولم يكن يريد أن يظهر لأبي مسلم مراده.

فكتب إلى أبي مسلم (إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان.. تكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحب لقاءك أتيته من قريب فغضب أبو مسلم، وقال: (يوليني الشام ومصر، وخراسان لي) وعزم على عدم تنفيذ الأمر والعودة إلى خراسان.

قرر أبو جعفر استعمال الدهاء مع أبي مسلم وبدأت بينهما حرب مراسلات، حتى أرسل أبو جعفر إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، في جماعة من الأمراء وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحدًا، وأن يمنّيه فإن أبى قال له: (هو بريء من العباس إن شققت العصا، وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك، حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك.

وبالفعل يقابل الوفد أبا مسلم فيأبى أن يطيع، أو أن يأتي لمقابلة أبي جعفر، فيبلغاه الرسالة الأخيرة، وسبحان الله! فهذه الكلمات جعلت الجبار أبا مسلم يخنع يجبن، ويزداد ترددًا وحيرة، المدائن كما كتب أبو جعفر إلى خليفته أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمامه خراسان ما عاش.. كل هذه الضغوط جعلت أبا مسلم يقرر الذهاب لمقابلة أبي جعفر المنصور الذي تمادى في المكر فأعطاه الأمان، وأظهر له عند دخوله المدائن الاحترام والتقدير ومراسم الاستقبال، ولكنه كان عازماً على قتل أبي مسلم غدرًا، وبالفعل قتله وهو يكلمه آمنًا على يد بعض حراسه.

روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن كان الحجاج شراً منه، قد اتهمه بعضهم على الإسلام، ورموه بالزندقة، ولم أر فيما ذكروه عن أبي مسلم ما يدل على ذلك، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية، والله أعلم بأمره.

معالجته للخطر الثالث

الخطر الثالث: محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد:

فقد زعموا أن بني هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه بها في أواخر عهد بني أمية، وكذلك بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يف أبو جعفر ببيعته له، ولذلك لم يبايع محمد لأبي العباس ولا لأبي جعفر.. واستخفى في زمن أبي جعفر وظل أبو جعفر يجري تحرياته عن محمد فلما لم يعثر عليه اعتقل المنصور أباه وصادر أمواله.

ولا يزال المنصور يبحث عنه وأنفق كثيراً من المال في هذه السبيل فلم يصل إلى شيء.. فاعتقل بني الحسن كلهم فلما علم محمد بذلك قال لأمه هند: (إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم)، فتنكرت هند ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها، فلما رآها عبد الله أبو محمد عرفها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال: (كلا بل نصبر، فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً، قولي له فليدع إلى أمره وليجِدَّ فيه فإن فرجنا بيد الله)، فانصرفت، واستمر محمد على اختفائه.

فاستعمل معهم المنصور أشد أنواع العذاب ونقلهم إلى سجن بالعراق، ومات أكثرهم في الحبس.

نتيجة هذه الفظائع قرر محمد الظهور بالمدينة، وكان ذلك أول يوم من رجب سنة 145هـ، أعانه أهل المدينة وصعد منبر الحرم وخطب فيهم.

والحقيقة أنه كان من مكر أبي جعفر الخليفة أنه كتب إلى محمد على ألسنة قواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه؛ مما جعل محمد يتوهم أن أغلب الأمصار معه، كما أن الحسن كان قد اتفق مع أخيه إبراهيم أن يظهر في نفس اليوم بالبصرة ليعظم ذلك على أبي جعفر ولكن أخاه مرض ولم يخرج.

كما أنه حصر نفسه بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن للقائد أن يبقى فيه للدفاع طويلاً فحياة المدينة من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً.. وقد كان فحوصرت المدينة ودبّر أبو جعفر أمره تدبيراً محكماً.

وفقد انتقض الناس من حول محمد الذي قتل بعد أن أظهر شجاعة فائقة، وذلك في رمضان سنة 145هـ.

وبمقتل محمد استتب الأمر لأبي جعفر وتوطدت أركان الدولة الناشئة، فلم يعد هناك في الأفق مخاطر داخلية.

بناء بغداد

شرع المنصور في بناء بغداد كمقر للخلافة العباسية، وأتم بناءها سنة 146هـ. منارة جامع الخلفاء في سوق الغزلوقالوا: إنه أنفق على بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار، قال الخطيب البغدادي: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها، وحشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم، حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية، وأربى سكانها على مليونين.

ذكر ما جاء في وصف المنصور وخصائصه وأخلاقه كان المنصور أعظم رجل من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتاً، كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي، والولايات، والعزل، وشحن الثغور، وأمن السبل والنظر في الخراج، والنفقات، ومصلحة معاش الرعية.. فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والآفاق وشاور سُمّاره من ذلك فيما أرب، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

كان المنصور في شبابه يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه، فنال جانباً جيداً وطرفاً صالحاً، وقد قيل له يوماً: يا أمير المؤمنين، هل بقي شيء من اللذات لم تنله؟ قال: شيء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: قول المحدث للشيخ: من ذكرت رحمك الله.

فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا: لِيُملِ علينا أمير المؤمنين شيئاً من الحديث، فقال: لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، رواد الآفاق وقطّاع المسافات، تارة بالعراق وتارة بالحجاز، وتارة بالشام، وتارة باليمن، فهؤلاء نقلة الحديث.

وقد ذكروا في مآثره وحلمه وعفوه وحسن تدبيره وتعهده ابنه المهدي وإعداده للخلافة مآثر طيبة، ولكن يؤخذ عليه غدره بأبي مسلم الخراساني وعمه عبد الله بن علي بعد أن أعطى كل واحدٍ منهما الأمان.

ذكر الفتوحات

لم تكن هناك فتوحات حاسمة في عهده، بل هي غزوات متكررة، بل ربما تجرأ الروم على المسلمين لانشغالهم بالصراعات الداخلية فهجموا على بعض الثغور، ودخل مَلِكُهم قسطنطين ملاطية عنوة وهدم سورها وتقدم في بلاد المسلمين، ولكن لما انتبه المنصور وانتهت إلى حد كبير الصراعات الداخلية، عاد الغزو من جديد واستعاد المسلمون سيطرتهم من ناحية بلاد الروم، كما بعث أبو جعفر ابنه المهدي لغزو طبرستان سنة 141هـ الرصافة وفي سنة 151هـ شرع أبو جعفر في بناء الرصافة لابنه المهدي، بعد مقدمه من خراسان، وهي في الجانب الشرقي من بغداد، وجعل لها سوراً وخندقًا، ها جدَّد المنصور البيعة لنفسه، ثم لولده المهدي من بعده ثم لعيسى بن موسى من بعدهما.

موت أبي جعفر

مات أبو جعفر سنة 158هـ في طريقه إلى الحج، ودفن بمكة، وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من قادة بني هاشم ثم دفن.

قالوا: وكان آخر ما تكلم به المنصور أن قال: "اللهم بارك لي في لقائك".

خلافة المهدي

المصحف الشريف تولى الخلافة من ذي الحجة 158هـ حتى محرم 169هـ وعمره 32 سنة.

كانت خلافته مرفهة عن الناس فأمر بإطلاق من كان في سجن المنصور من المعارضين، وكان يجلس للمظالم بنفسه فسارت الأمور في عهده طبيعية مع توسع في

العمران.. ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به وأمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة اسمه.

والحق أن المنصور وطّد للمهدي الأوضاع، وأخضع له الرقاب فأراح مَن بعده وكان المهدي يرسل أبناءه للغزو.

من الفتوحات في عهده وفي سنة 163هـ بعث ابنه هارون الرشيد على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك، ونال من الأعداء نيلاً عظيماً وأصبح بعد ذلك والياً على الشطر الغربي من المملكة الإسلامية.

ولم تحدث في عهده فتوح واسعة ولم تُضَم مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام، إلا أن الانتصارات كانت كبيرة والغنائم كثيرة.

وفي سنة 165هـ جهز المهدي ولده الرشيد لغزو بلاد الروم، وأنفذ معه من الجيوش عددًا كبيرًا فلما عاد سنة 166هـ من بلاد الروم دخل الرشيد بغداد في أبهة عظيمة، ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره.

وفي سنة 167هـ وجَّه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم يُرَ مثله.من مآثره وحسن سياسته ذكروا أنه هاجت ريح شديدة فدخل المهدي بيتاً في دار فألصق خده بالتراب وقال: 'اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أنا ذا بين يديك، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان' فلم يزل كذلك حتى انجلت.

ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال: هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهديتها لك فقال: هاتها فناوله إياها، فقبّلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انصرف، قال المهدي: والله إني لأعلم أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم لم ير هذا النعل، فضلاً عن أن يلبسها ولكن لو رددته لذهب يقول للناس: أهديت إليه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فردَّها على، فتُصدقه الناس؛ لأن العامة تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوى وإن كان ظالمًا، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح وأصلح.

وكان يتتبع الزنادقة (المارقين عن الدين)، ويعاقبهم بالقتل، وبالجملة فإن للمهدي مآثر ومحاسن كثيرة يقصر المقام عن ذكرها ثم توفي-رحمه الله- وكان قد استخلف من بعده ابنه موسى الهادي.

خلافة موسى الهادي تولى الحكم من محرم 169هـ حتى من ربيع 170هـ، وعمره 25سنة، وكان يسير على هدي أبيه في محاربة الزنادقة، وقعة فخوقامت في عهده محاولة للخروج عليه من قبل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان بالمدينة، ولكنه قُتِل على يد جيش الهادي بعد تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا وسميت هذه المعركة معركة فخ وأفلت من هذه المعركة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واتجه إلى مصر ومنها انطلق إلى المغرب حيث أسَّس دولة الأدارسة التي سيأتي ذكرها.

من مآثره

كان موسى الهادي شديد الغيرة على حرمه، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها نفوذ في عهد المهدي؛ ولذا يقولون إنها سمته لعزلها عن أمر الملك، ولأنه ضيَّق على الرشيد (الخليفة من بعده)؛ لأنه أراد أن يعدل عن استخلافه إلى استخلاف ابنه جعفر وفعل النمّامون وأصحاب النفوس الدنيئة فعلتهم في الإيقاع بينه وبين أخيه الرشيد.

وكان الهادي شهماً خبيراً بالملك كريماً، وكان من كلامه: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات؛ ليقل الطمع عن الملك.

كان الهادي يرى أن الناس إنما يصلحهم عدم احتجاب خليفتهم عنهم، بل معايشتهم ومعايشة مشكلاتهم فكان يأمر حاجبه الفضل بن الربيع قائلاً: لا تحجب عني الناس؛ فإن ذلك يزيل عني البركة، وكان قوي البأس، يثب على الدابة وعليه درعان.

توفي الهادي في ربيع أول سنة 170هـ وصلى عليه أخوه هارون.

الفصل الثاني

تقرير عن
الدولة العباسية

تقرير عن الدولة العباسية

الدولة العباسية

تنسب الدولة العباسية إلى **العباس بن عبد المطلب** عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبنو العباس هم الفرع الثاني من بني هاشم، أما الفرع الأول فهم العلويون أبناء الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان لتأسيس الدولة العباسية قصة طويلة، بدأت بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما طالب بنو هاشم بإسناد الخلافة إلى أهل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وذويه، ولم يكتب لهم النجاح بإجماع المسلمين على خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه والخلفاء الراشدين من بعده، ومع هذا لم ينس بنو هاشم مطلبهم خاصة بعد أن آلت الخلافة إلى بني أمية، ومن مدينة «الكوفة» بالعراق بدأ العباسيون يخططون لدولتهم في سرية تامة وأخذوا يرسلون الدعاة إلى بلاد فارس وخراسان، وحتى لا يثيروا العلويين ضدهم نادوا في البداية بالدعوة للرضا من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهكذا اشترك جميع بني هاشم في بناء الدولة عباسيين وعلويين، إلا أن بني العباس استطاعوا بدهائهم أن يستأثروا وحدهم بالسلطة، والحق يقال أن هناك عدة عوامل ساعدت على قيام الدولة العباسية، فإلى جانب التخطيط الجيد والسرية، أحسن العباسيون اختيار الدعاة والرجال الذين أقاموا الدولة وأذكر من هؤلاء أبا مسلم الخراساني أبرز الدعاة في خراسان، وأبا سلمة الخلال كبير الدعاة بالكوفة، وكان ازدهار الدعوة العباسية وانتشارها في خلافة عمر بن عبد العزيز فقد استقرت الأمور في عهده، ولم يكن يميل إلى القسوة على بني هاشم، وظل العمل الدءوب المستمر من قبل الدعاة العباسيين حتى كانت ليلة الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة 129هـ إذ ظهر العباسيون براياتهم السوداء وأعلنوا الثورة على الدولة الأموية، وانطلقت الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني وقحطبة بن شبيب تزحف على ولايات الدولة الأموية وتستولى عليها، فقد دانت خراسان كلها لأبي مسلم

الخراساني، ودانت الكوفة لقحطبة بن شبيب، وبمرور الوقت دانت كل المدن الأموية للعباسيين من أقصى الشرق حيث كابل لأقصى الغرب حيث قرطبة وأشبيلية مرورا بالقدس والخليل والرها وغيرهم، وشهد عام 132 هـ بالتحديد حدثاً تاريخياً كبيراً وهو سقوط دولة بني أمية لتنمو وتزدهر على أرضها شجرة الدولة العباسية، ويبدأ ذلك بانتقال مؤسس الدولة أبي العباس عبد الله بن محمد- المعروف بالسفاح – ومعه الأسرة العباسية إلى «الكوفة» وهناك بايعه النقباء والأمراء بالخلافة في قصر الإمارة، ثم خرج إلى الناس فخطب فيهم وأخذ البيعة، وتم الأمر لبني العباس بمقتل مروان بن محمد أخر خلفاء بني أمية في جمادى الأخرة سنة 132هـ والآن أريد أن أحدثكم عن أمر حيرني، فقد اختلف إخواني المؤرخون في كيفية تقسيم الدولة العباسية، فبعضهم قسمها إلى عصور قوة وضعف حسب قوة الدولة ووضعها في كل مرحلة من مراحل تاريخها، وبعضهم الأخر قسمها حسب العوامل المختلفة التي أثرت في سيرة الدولة كسيطرة الجند والقادة على مركز الخلافة أو تأثير الدول القوية على الخلفاء، ولكني سآخذ بالتقسيم الذي استقر عليه غالبية المؤرخين وهو تقسيم الدولة العباسية إلى ثلاثة عصور رئيسية هي:

1. **العصر العباسي الأول:** ويمتد في الفترة من 132 هـ – 232هـ، وكان أقوى عصور الدولة العباسية.
2. **والعصر العباسي الثاني:** ويمتد في الفترة 232 هـ – 590هـ وفي هذا العصر بدأت تضيع السلطة من أيدي الخلفاء، وسيطر العسكريون على الحكم.
3. **وأما العصر العباسي الثالث والأخير:** فيقع في الفترة من (590 – 656هـ) وفيه انحصرت دولة الخلافة في بغداد وما حولها بينما سيطرت الدول المستقلة على باقي عواصم الخلافة، ومن خلال هذا التقسيم يسرني أن أحدثكم عن كل عصر على حدة، كأنه دولة مستقلة في فترة عمر الدولة العباسية التي استمرت من 132

هـ – 656هـ، ونبدأ من العصر العباسي الأول الذي يمتد قرناً من الزمان منذ بداية تأسيس الدولة في عام 132 هـ إلى عام 232هـ.

وحكم في هذه الفترة تسعة فروع من الشجرة العباسية هم على الترتيب:

- أبو العباس السفاح ولى في الفترة من 132– 136هـ.
- أبو جعفر المنصور ولى في الفترة من 136– 158هـ
- أبو عبد الله المهدي ولى في الفترة من 158– 169 هـ
- أبو محمد موسى الهادي ولى في الفترة من 169– 170 هـ
- هارون الرشيد ولى في الفترة من 170 – 193هـ
- أبو موسى محمد الأمين ولى في الفترة من 193– 198 هـ
- أبو جعفر عبد الله المأمون ولى في الفترة من 198 – 218 هـ
- أبو إسحاق المعتصم ولى في الفترة من 218 – 227 هـ
- أبو جعفر هارون الواثق ولى في الفترة من 227 – 232 هـ

وهو أخر خلفاء الدولة في العصر الأول وامتدت الشجرة العباسية بعده في العصرين الثاني والثالث، ويعد العصر العباسي الأول العصر الذهبي لبني العباس، فقد سيطر الخلفاء العباسيون خلاله على مقاليد السلطة، ورغم ظهور بعض الدول المستقلة وأهمها الدولة الأموية بالأندلس ودولة الأدارسة بالمغرب والدولة الرستمية في الجزائر ودولة الأغالبة في تونس، إلا أن الدولة ظلت متماسكة حتى نهاية هذا العصر، وكانت تجمع هذه الدول جميعًا راية الإسلام وتربطهم حضارة واحدة هي الحضارة الإسلامية التي قامت على الوحدانية المطلقة لله، والاستقامة على منهجه، وآمنت بالمبادئ الإنسانية مثل التسامح الديني والمساواة العنصرية والقيم الرفيعة مثل الأخلاق الحربية والرفق بالحيوان والوعي بالزمن، وقد أثبت التاريخ أنها حضارة إنسانية عالمية.

ونعود إلى العصر العباسي الأول وقد قلنا انه أزهى عصور الدولة العباسية ورغم ذلك فقد توقفت فيه الفتوحات الإسلامية الكبيرة ويرجع هذا إلى عدة أسباب منها انشغال العباسيين بالصراعات الداخلية مع العلويين في العراق والحجاز ومع الأمويين في الأندلس بالإضافة إلى الصراع المستمر مع الخوارج، ولا يكاد يوجد غزو أو فتوحات مهمة سوى فتح عمورية في بلاد الروم بقيادة المعتصم، وفتح صقلية بقيادة الفقيه القائد أسد بن الفرات، بالإضافة إلى فتح بعض الثغور والقرى الصغيرة في العمليات العسكرية التي كانت تسمى بـ'الصوائف والشواتى'.

والحق يقال أن عهد هارون الرشيد الذي ولى الخلافة من عام 170 هـ وحتى عام 193هـ يعد أقوى وأزهى فترات الدولة العباسية في جميع عصورها، فقد استطاع بشخصيته القوية أن يقضى على حركات النزاع على الحكم التي تضعف الدولة، وكان الرشيد كثير الغزو لبلاد الروم مما أدى إلى تأمين الحدود الخارجية للدولة وبذلك استتب الأمن واستقرت الأحوال، ونظم العباسيون شئون الحكم وطوروا في مؤسسات الدولة التي كانت موجودة قبل ذلك فاهتموا بتنظيم الجيش وتحديد رتبه وقياداته، وكذلك الشرطة لحفظ الأمن الداخلي، وتطورت مؤسسة القضاء وأضيف إليها منصب قاضى القضاة وهو الذي كان يباشر بنفسه مع الخليفة أحكام ديوان النظر في المظالم، ونتيجة للاستقرار الاقتصادي اهتم العباسيون بتطوير دواوين الخراج والسكة.. وجعلوا الوزارة منصباً رسمياً لأول مرة، ومع استقرار الدولة بدأت تظهر نتائج الحضارة الإسلامية في العلوم والمعارف والفنون، ولكي أحدثكم عنها فسوف آخذكم في جولة سريعة لزيارة آثار العباسيين في العمارة وخاصة في مدينة «بغداد» التي بناها المنصور سنة 146هـ والتي نشاهد فيها روائع العمارة الإسلامية في العصر العباسي الأول وخاصة «قصر الأخيضر» الذي يعد أجمل وأروع القصور العباسية ولا يضاهيه في الجمال سوى «قصر المعتصم» في «سامراء» وهى العاصمة الثانية للخلافة العباسية، وأما عن «عمارة المساجد» فنلاحظ التطور الذي حدث فيها في «المسجد

الجامع» في «سامراء» والذي يتميز بتصميم فريد لم يظهر من قبل وخاصة في مئذنته الحلزونية الشهيرة، والزائر للمسجد يلاحظ تقنية الصوتيات المعمارية المتقدمة، وفي الآثار المعمارية للعباسيين نشاهد روائع الفن الإسلامي في ذلك العصر فنرى ونشاهد «التصوير الجداري» في القصور العباسية بالإضافة إلى الزخارف الجصية من خلال فن «النحت على الحجر» برسم تفريعات نباتية ذات أوراق كبيرة كما ظهر فن «النحت على الخشب» في قطعة خشبية عثر عليها علماء الآثار في سامراء، وينسب إلى أوائل العصر العباسي مجموعة من الأواني الخزفية التي ظهرت فيها ابتكارات المسلمين في «فن الخزف».

ومن جماليات العمارة والفن إلى ثراء العلم والفكر، فمن مفاخر العصر العباسي الأول أنه ظهر فيه حشد كبير من العلماء في مختلف العلوم والفنون والآداب، ويكفي هذا العصر فخراً أنه اجتمع فيه أئمة «الفقه» الأربعة أصحاب المذاهب الفقهية المعروفة وعلى رأسهم الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وفقيه «المدينة» الإمام مالك بن أنس والإمام الشافعي والإمام الممتحن أحمد بن حنبل وظهرت في الفقه الإسلامي مدرستان علميتان كبيرتان هما مدرسة أهل الرأي في العراق، ومدرسة أهل الحديث في المدينة المنورة، وحفل هذا العصر أيضاً بأئمة علوم القرآن وعلوم اللغة العربية فظهر منهم سيبويه والخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء والإمام الفراء والكسائي وظهرت في علوم اللغة أيضًا مدرستان علميتان هما: مدرسة «البصرة»، ومدرسة «الكوفة» وفي التاريخ ظهر أول تاريخ كامل للسيرة النبوية الشريفة في كتابي «سيرة ابن هشام» وكتاب «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد، وأما عن تطور العلوم في العصر العباسي الأول، فقد انتقلت العلوم من مرحلة التلقين الشفوي إلى مرحلة التدوين والتوثيق في كتب وموسوعات، وظهرت أول مؤسسة علمية من نوعها وهي «دار الحكمة» التي تأسست في عهد الرشيد ووصلت إلى أوج نشاطها العلمي في التصنيف والترجمة في عهد المأمون، ومن الجدير بالذكر أن المسلمين

لم يكتفوا بمجرد الترجمة بل كانوا يبدعون ويضيفون إلى كل علم يترجمونه وكانت «المجالس والندوات العلمية» منتدىً خصباً للحوار بين العلماء، ومن الإنجازات العلمية المهمة في هذا العصر المرصد الفلكي الذي شيده الخليفة المأمون في بغداد، وكان أكبر المراصد الفلكية في هذا العصر، وقد عمل فيه أكبر علماء «الفلك» المسلمين وقد تمكنوا – من خلاله- من تفسير ظاهرة الجاذبية، وتعيين خط العرض وقياس طول محيط الأرض وقد ساعدهم في هذا علماء الجغرافيا والهندسة، ولا أنسى جهود العلماء المسلمين في العلوم الطبية وخاصة علم التخدير وطب العيون.

وقد كان للعديد والعديد من العواصم والمدن الكبرى إشعاع حضاري وعلمي ذو بريق، ومنها مكة والمدينة بالحجاز، والفسطاط والإسكندرية في مصر، وفاس والقيروان بالمغرب، وحلب ودمشق في الشام، ومدن ما وراء النهر كبخارى وطشقند وخوارزم وسمرقند، ونيسابور في خراسان، وأشبيلية وقرطبة في الأندلس، بالإضافة إلى بغداد عاصمة الخلافة، وأخيراً أحب أن أشير إلى عشرات الشخصيات البارزة في العصر العباسي الأول الذين بنوا هذه الدولة وكانوا صناع حضارتها وتركوا لنا أمثلة رائدة وقدوة حقيقية في الإيمان والجهاد والعمل، ولأن الحديث عنها قد يطول ويطول، داعياً الله عز وجل أن تستمتعوا معي بالرحلة وتأخذوا منها العبرة والفكرة والذكرى الطيبة العطرة.

العصر العباسي

"لمحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية"

1. قامت الدولة العباسية عام 132هـ بعد سقوط الدولة الأموية، وكان لسقوط الدولة الأموية أسباب كثيرة، منها: الصراع بين الأمويين وآل البيت، وكراهية الموالي للأمويين لتعصبهم للعرب، والنزاع بين القبائل العربية، وضعف الخلفاء الأمويين في آخر أيامهم ....

والعصر العباسي الطويل وإن كان ينسب إلى العباسيين إلا أن دولاً كثيرة قد نشأت أثناء هذا العصر، استقل بعضها عن الدولة العباسية استقلالاً تاماً كالدولة الأموية في الأندلس والدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وظل بعضها الآخر يدين بالولاء الشكلي فقط للخليفة العباسي.

ولطول العصر العباسي فقد قسمه المؤرخون إلى عدة عصور، هي:

1. **العصر العباسي الأول:** ويبدأ من قيام الدولة عام 132هـ وينتهي بتولي المتوكل الخلافة عام 232هـ.
2. **العصر العباسي الثاني:** ويبدأ من تولي المتوكل عام 232هـ. وينتهي بسيطرة البويهيين عام 334هـ.
3. **العصر العباسي الثالث:** ويبدأ بسيطرة البويهيين عام 334 هـ وينتهي ببدء نفوذ السلاجقة عام 447 هـ.
4. **العصر العباسي الرابع:** ويبدأ بسيطرة السلاجقة عام 447 هـ، وينتهي بسقوط بغداد في يد هولاكو عام 656 هـ.

وقد تابع مؤرخو الأدب المؤرخين في هذا التقسيم، ورأى بعضهم أن يقسم العصر العباسي إلى قسمين فقط هما:

2. **العصر العباسي الأول (132 هـ ـ 334 هـ)**
3. **العصر العباسي الثاني (334 هـ ـ 656 هـ)**

وفي دراستنا للأدب العباسي لن نلتزم بالتقسيمات السياسية للعصر؛ لأن العصور الأدبية المختلفة تحمل بعض الخصائص والمؤثرات من العصور السابقة ويمتد أثرها إلى العصور اللاحقة ويصعب تحديدها بالأحداث السياسية، لكننا لن نهمل الإشارة إلى التطورات التي مر بها الأدب العباسي في كل عصر من عصوره.

4. وقد كان الفرس هم دعامة الثورة العباسية، لذلك كانت لهم المكانة الكبيرة فيها؛ فقد اتخذ الخلفاء وزراءهم وكتابهم من الفرس منذ قيام الدولة، حيث تولى الوزارة على عهد السفاح أبو سلمة الخلال، ثم خالد بن برمك (جد البرامكة)، وفي عهد المنصور تولى الوزارة أبو أيوب سليمان المورياني، ثم أبو الفضل الربيع بن يونس، وفي عهد الرشيد يحيى بن خالد البرمكي، وفي عهد المأمون الفضل بن سهل والحسن بن سهل وهكذا.

ومع نفوذ الفرس القوى منذ قيام الدولة إلا أن الخلفاء الأوائل كان لهم من القوة والشأن ما مكنهم من البطش بكبار الفرس عند الشعور بأي خطر أو خيانة؛ فقد قضى المنصور على أبي مسلم الخراساني أعظم من ساهم في القضاء على الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، كما أن الرشيد نكب البرامكة وقضى عليهم عندما أحس بخطرهم، وكذلك فعل المأمون بآل سهل .

لكن نفوذهم قد قوي بعد ضعف الخلفاء العباسيين، حتى أصبحوا هم الحكام الفعليين للدولة، حتى إنهم كانوا يعزلون الخليفة إذا لم يخضع لهم، ويتجلى ذلك واضحاً في عهد السيطرة البويهية، وقد أدى نفوذ الفرس السياسي والثقافي إلى انتشار الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد التي ورثوها عن حضارتهم السابقة.

كما أدى ذلك إلى بروز حركة (الشعوبية)، وهي حركة تدعو إلى احتقار العرب ونشر مثالبهم، ليصلوا من خلال ذلك إلى الطعن في الإسلام ورجاله، فهي حركة عدائية ضد الإسلام والمسلمين، وقد تصدى لها كثير من الكتاب بالرد والتفنيد كالجاحظ وابن قتيبة.

5. وقد دخلت عناصر جديدة في الصراع على مراكز القوة والسيطرة في الدولة العباسية؛ فبعد أن كان العرب والفرس يمثلون القوى المتصارعة في الدولة أصبح للأتراك منذ عهد المعتصم نفوذ كبير عندما استعان بهم وبنى لجنده منهم مدينة

(سامراء) عام 221 هـ وبعد ذلك قوي نفوذهم حتى أنهم قتلوا الخليفة العباسي المتوكل عام 247 هـ وسيطروا على الدولة في الفترة من 247 إلى 334 هـ.

6. أما الحياة الاجتماعية في الدولة فقد كانت حياة ترف ونعيم، إذ أصبحت بغداد التي بناها الخليفة المنصور عام 145هـ أعظم بلاد الدنيا ودرة الحضارة الإسلامية؛ فكانت مليئة بدور العلم من مدارس ومكتبات، كما شيدت بها الجسور والمستشفيات والمراصد وغير ذلك.

وقد كثر المال وعم الرخاء، فأدى ذلك إلى مظاهر من الترف والبذخ، فكثرت الجواري والغلمان وأماكن الخلاعة، لكن ذلك لم يكن السمة العامة لبغداد ولا غيرها من العواصم؛ إذ أن المساجد كانت عامرة ودور العلم شاهقة، ولم يكن الناس جميعاً أهل ترف ومجون، وإنما كان هناك العباد والزهاد والعلماء والمصلحون، بل لقد أدى الإسراف في الترف وتغني الشعراء المترفين بذلك إلى وجود اتجاه شعري مناقض لذلك تمثل في شعر الزهد والتوبة والندم .

التاريخ الاسلامي

دولة الخلافة العباسية

سميت الدولة العباسية بهذا الاسم، نسبة إلى العباس عم الرسول (فمؤسس الدولة العباسية وخليفتها الأول هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب عم رسول الله)، وقد اشتهر أبو العباس بأبى العباس السفاح.

كيف آلت الخلافة إلى العباسيين؟

عندما ضعفت الدولة الأموية، تطلع الناس إلى رجل يعود بالأمة إلى الجادة والطريق الصحيح، يرفع عنهم الظلم، ويقيم فيهم العدل، ويرهب بهم الأعداء، فحسبوا أن أصلح الناس لهذا الأمر، رجل يكون من بني هاشم، فكتبوا في هذا الشأن إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب أحد العلماء الثقات، وكان مقيماً بالشام قريباً من مركز الخلافة الأموية.. وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، فخشى أبو هاشم على نفسه - وكانت قد تقدمت به السِّنّ- بطش الخليفة، فانتقل إلى الحميمة من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه عليّ السَّجَّاد بن عبد الله بن عباس، وهناك حضرته منيته، فأوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه الكتب التي كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك، ثم مات، وكان ذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة 99هـ/ 718م، وأخذ محمد العباسي في تنفيذ ما أوصاه به أبوهاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون في ربوع الدولة الأموية، يشهرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلى ضرورة أن يتولى أمر الخلافة رجل من آل البيت قادر على أن يملأ الأرض عدلا، ووجدت تلك الدعوة صدى عند الناس ورواجاً.

ويموت محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة 124هـ/ 742م، بعدما أوصى ابنه إبراهيم الملقب بالإمام بمواصلة المسيرة، وتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التي كانت عليها قبل ذلك، فهي لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام، وقادة معلومون، من أمثال أبي سلمة الخلال على الكوفة، وأبي مسلم الخراساني على خراسان، وما تكاد سنة 129هـ/ 747م، تقبل حتى يصدر أمر الإمام العباسي إبراهيم بن محمد أن يكون أبو مسلم الخراساني رئيساً

للدعاة جميعاً في خراسان وما حولها، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علناً، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي.

انتقال الخلافة إلى العباسيين:

بعد هذا العرض يصبح في مقدورنا أن نعرف كيف تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين.

لقد صدر الأمر إلى أبى مسلم بالجهر بالدعوة للعباسيين فى عهد آخر خلفاء بنى أمية "مروان بن محمد"، ولم يلبث أبو مسلم أن دخل "مرو" عاصمة خراسان، وكاد أن يستولى عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، وهنا أسرع الوالي على خراسان من قبل بنى أمية، وهو "نصر بن سيار" يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مدداً، وينبه رجال الدولة إلى الخطر المحدق فيقول:

أَرى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نـــارٍ ويُوشكُ أن يَكُونَ لَهَا ضِـرَامُ

فإن النارَ بالعودين تُذْكــــى وإن الحربَ مبدؤها كـــلامُ

فقلت من التعجب ليتَ شِعرى أأيقاظ أمية أم نيــــام؟

ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشغالهم بصراعات أنصارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، ولم يمدُّوا واليهم على خراسان بشيء، فأدرك أبو مسلم الخراساني أن الوالي الأموي لن يصبر طويلا، وأن "مرو" ستفتح يوماً ما قريباً، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقضَّ بهم على "مرو" ففتحت له، وهرب واليها "نصر بن سيار" وكان ذلك سنة 130هـ/ 748م.

وواصل أبو مسلم فتوحاته، فدانت له "بلخ" و"سمرقند" و"طخارستان" و"الطبسين" وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعاً، وراح يتطلع إلى غيرها، وكان كلما فتح مكاناً أخذ البيعة من أهله على كتاب الله- عز وجل- وسنة نبيه "وللرضا من آل محمد"، أي يبايعون إماماً مرضياً عنه من آل البيت من غير أن يعيِّنهُ لهم.

والواقع أن بني أمية كانوا نياماً في آخر عهدهم، لا يعلمون من أمر القيادة الرئيسية لهذه الدعوة العباسية شيئاً، ولما وقع في يد الخليفة (مروان بن محمد) كتاب من "الإمام إبراهيم العباسي" يحمل تعليماته إلى الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان منشغلا بتوطيد سلطانه المتزعزع وقمع الثائرين ضده، واكتفى الخليفة "مروان بن محمد" بأن أرسل إلى القائم بالأمر في دمشق للقبض على الإمام "إبراهيم بن محمد" "بالحميمة" وإيداعه في السجن، وتم القبض عليه وأودع السجن، فظل به حبيساً إلى أن مات في خلافة مروان بن محمد سنة 132هـ/750م، ولما علم "إبراهيم" بالمصير الذي ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت في قبضتهم أوصى لأخيه "أبي العباس" بالإمامة طالباً منه أن يرحل إلى الكوفة ومعه أهل بيته؛ لينزل على داعي العباسيين بها وهو "أبو سلمة الخلال" فهناك يكون في مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم.

مبايعة أبي العباس:

ناك في الكوفة - بعد قليل من وصول آل العباس إليها- تمت مبايعة أبي العباس خليفة للمسلمين، وتوجه "أبو العباس" إلى مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة 132هـ/750م، وألقى على الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمي عن قيام الدولة العباسية، ومما جاء في تلك الخطبة:

الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، وكرمه وشرفه وعظَّمه، واختاره لنا، زعم الشامية أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، شاهت وجوههم، بِمَ ولم

أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، ودحض الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتمم النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل التعاطف والبر والمواساة في دنياهم، وإخوانًا على سرر متقابلين في آخرتهم، فتح الله ذلك -مِنَّةً وبهجة – لمحمد، فلما قبضه الله إليه، وقام بالأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، حَوَوْا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصاً منها، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزُّوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، وقد أملى الله لهم حينًا حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وتدارك بنا أمتنا، وَوَلِيَ نصرنا والقيام بأمرنا، لَيَمُنَّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض، فختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله، فاستعدوا أيها الناس، فأنا السَّفَّاح المبيح والثائر المنيح (يقصد أنه كريم جواد).

ومن هذه المقولة التصقت به صفة السفاح، فقيل أبو العباس السفاح، مع أنه ما قصد ذلك المعنى الذي شاع على الألسنة.

لقد أعلنها صريحة مدوية في الآفاق بينما كان "مروان بن محمد" آخر خلفاء بنى أمية يجلس على كرسي الخلافة، فكيف تمت المواجهة بين هؤلاء وأولئك؟ وكيف تحققت الغلبة للعباسيين؟

اللقاء الحاسم:

لها من لحظات حاسمة في تاريخ الأمم والشعوب، إن شمس الأمويين الغاربة تؤذن بالزوال، بينما شمس العباسيين في صعود، وهذه هي الدنيا، فيوم لنا ويوم علينا، والأيام دُوَل.

ان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين على أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو نهر الزاب الأعلى.

جيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو عبد الله بن على، بينما يقود جيش الأمويين الخليفة نفسه مروان بن محمد.

كان ذلك يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 132هـ/ 750م، ولم يجد مروان أمام جحافل العباسيين إلا أن يفر إلى دمشق مهزومًا أمام مطاردة عبد الله بن علي.

لقد راح يُطارده، فاستولى على دمشق، واستولى على مدن الشام واحدة بعد الأخرى، وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بني أمية، وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية، لكن مروان قد فرّ إلى مصر وتوجه إلى صعيدها، وقرب الفيوم، عند قرية أبوصير أُلقِيَ القبضُ عليه، وقُتِلَ بعدما ظل هارباً ثمانية أشهر، يفر من مكان إلى مكان.

ومضى عهد، وأقبل عهد جديد، وسيظل عام 132هـ/ 750م فاصلا بين عهدين، وتاريخًا لا يُنسى.

الفصل الثالث

الدولة العباسية
ملخص العصور

الدولة العباسية ملخص العصور

الدولة العباسية ملخص العصور:

- عصور الدولة العباسية العصر العباسي الأول 750/ 847م العصر العباسي الثاني847/ 1250م.
- العصر الذهبي للدولة العباسية عصر القوة والازدهار ووحده الدولة.
- عصر الإصلاحات في جميع المجالات.
- عصر الضعف والانحلال والانهيار.
- عصر ظهور الدول المستقلة.
- عصر طمع الغزاة من صليبيين ومغول.
- أشهر الخلفاء العباسيين أبو العباس هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ولد بقرية الحميمية بالأردن عام 104هـ قضى خلافته كلها في تثبيت أركان الدولة لقب بالسفاح لقسوة معاملته.

أهم أعماله:

1. قضى على كل المعارضين.
2. نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة ثم الانبار.
3. جدد الطريق بين مكة والكوفة وزوده بالمنارات لهداية الناس من المسافرين.

أبو جعفر المنصور (المؤسس الحقيقي للدولة العباسية)

أعماله نشر الأمن والأمان في كل أنحاء الدولة قضى على الفتن والثورات راقب الولاة وحاسبهم بني بغداد واتخذها عاصمة.

هارون الرشيد

بعد وفاة أبو جعفر المنصور تولى ابنه المهدي ألخلافه وجعل ولاية العهد بالتناوب لولديه (موسى الهادي تولى لعام واحد – هارون الرشيد) مميزات حكم هارون:

أ. اتساع رقعه الدولة.
ب. ازدهار ألزراعه والصناعة والتجارة.
ج. تشييد القصور والحدائق والأسواق.
د. ازدهار العلم وتشجيع العلماء.
ه. ازدهار الشعر وتشجيع الشعراء.

** المأمون (هو عبد الله بن هارون الرشيد) تولى الخلافة بعد وفاة أخيه الأمين الذي استمر حكمه خمس سنوات مميزات حكمه (العناية بالعلم) (تشجيع حركه الترجمة والعلم) (القضاء على الفتن والثورات) المعتصم هو محمد بن هارون الرشيد تولى الحكم بعد اخيه هارونعرف عنه (قوة الجسم وشدته في الحرب وغيرته على الإسلام والمسلمين والعطف على الفقراء) دامت خلافته ثماني سنوات وتوفي عام 227.

مميزات حكمه (الاهتمام بالجيش للقضاء على الثورات) (الانتصار على الروم وفتح عمورية) (بناء مدينة سمراء) الفتوحات الإسلامية في عصر العباسيين:

1. شرقا إلى بلاد ما وراء النهر.
2. غربا إلى المغرب الأقصى.
3. شمالا إلى أرمينيا.
4. جنوبا إلى النوبة.

عوامل ضعف وسقوط الدولة العباسية

1. سيطرة العناصر غير العربية على الحكم من الأتراك والفرس على الجيش والادارة.
2. اتساع رقعه الدولة مما شجع على زيادة الإطماع فيها .
3. الصراع بين أبناء البيت العباسي بسبب توليه العهد لأكثر من واحد.
4. تولى الحكم خلفاء ضعاف انغمسوا في حياة الترف.

الفصل الرابع

استقلال بعض الدول عن الدولة العباسية

استقلال بعض الدول عن الدولة العباسية

في عهد الخلافة العباسية استقلّت بعض الدول عنها استقلالا تاما، بينما أخذ بعضها يتجه نحو استقلال جزئي تصبح البلاد فيه تابعة للخلافة اسماً (فقط (بحيث تستمد منها مكانتها الروحية وقدرها العظيم في نفوس المسلمين، ويقف المؤرخون والمحللون أمام قيام بعض الدول وانهيار أخرى وقفات تأملية يبحثون عن الأسباب والعوامل التي أدت إلى قيام هذه وانهيار تلك، وعلى كلّ، فقد كان قيام الدويلات نتيجة لضعف الخلافة، وسبباً لمزيد من الانحلال، وخطوة على طريق النهاية، لقد قامت أولى هذه الدويلات في أقصى الغرب؛ لبعده عن عاصمة الدولة، ومركز السلطان فيها، فقامت دولة الأمويين في الأندلس، وبقيامها في سنة 137هـ/ 756م ضعف نفوذ العباسيين على الغرب، وسرعان ما نشأت الدويلات في شمال إفريقية، وحين تطرق الضعف إلى جسد الخلافة العباسية جميعًا، نشأت الدويلات في بقية أجزاء الدولة، وقد تسببت هذه الدول في ضعف الدولة العباسية وانحلالها؛ ذلك لأنّ علاقة هذه الدويلات بالدولة العباسية كانت مختلفة اختلافًا كبيراً، فقد انفصل بعضها عن الدولة انفصالا تامًا، ونافسها بعضها على تولي الخلافة نفسها.

كما ظل قسم آخر على علاقة اسمية بالدولة، فيكفي الخليفة أن يذكر اسمه على المنابر، ويصك اسمه على العملة، وفي حقيقة الأمر أنها دولة مستقلة تماماً لا تخضع له في شيء، وهناك دويلات ظلت على صلة متغيرة بالدولة، تقوى حيناً، وتضعف حيناً آخر تبعًا لتغير الأحوال.

الدولة الصفارية 254-290هـ/ 868-903م

قضى يعقوب بن الليث الصفار على الدولة الطاهرية، وأقام دولته على أنقاضها، وقد لقب بهذا اللقب؛ لأنه كان في بداية أمره يحترف صناعة النحاس الأصفر بسجستان، ثم اشتهر بالفروسية، فتطوع لقتال الخوارج مع رجل صالح كان

يظهر التطوع لقتال الخوارج في سجستان بجنوب خراسان، فقاتل معه يعقوب، ثم مع من خلفه حين مات، فصار الأمر إليه، فراح يحارب الخوارج في "سجستان" معلناً ولاءه للخليفة المعتز، ومظهراً شجاعة خارقة في قتال الخوارج حتى سيطر على سجستان، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصار يمد نفوذه على الأقاليم المجاورة حتى ملك "هراة"، وكانت تابعة للدولة الطاهرية.

وقد توجه "الصفّار" إلى "كِرْمَان"، وبسط نفوذه عليها، ثم توجه إلى فارس فأخذها بعد قتال عنيف مع غريمه "علي بن الحسين" الذى وقع أسيراً جريحاً في يده، ولم يكتفِ بهذا، بل توجه إلى خراسان، وحاصر العاصمة "نيسابور" ودخلها سنة 259هـ/ 873م - خلافاً لما أمره به الخليفة- بحجة أن أهل خراسان طلبوه للضعف الذي يعانيه الطاهريون فى عهد الخليفة العباسي "المعتمد"، وقبض على جميع الطاهريين بها، واستولى على البلاد التي كان يحكمها الطاهريون، وتقدم "الصّفار" في البلاد بعد أن هزم خصومه، وذهب إلى "طَبَرِسْتان" فدخلها سنة 260هـ/ 874م، وهزم صاحبها "الحسن ابن زيد العلوي" الذي عاد إليها مرة أخرى في نفس العام 261هـ/ 875م.

أدرك الخليفة خطره، فقد اتجه إلى بغداد، ولم يبْقَ في يد الخليفة إلا هي، بعد استيلائه على "الأهواز"، فأمر الخليفة أن يجهز جيشاً بقيادة أخيه الموفق لمواجهة "يعقوب"، وذلك في عام 262هـ/ 876م.

شاء الله أن تدور الدائرة على يعقوب فيهزم، ولكن "المعتمد" يرى الاحتفاظ بولائه للخلافة، فمثله يمكن الاعتماد عليه فى مواجهة الثورات والانتفاضات، فبعث إليه يستميله ويتَرضَّاه، ويقلده أعمال فارس وغيرها مما هو تحت يديه، ويصل رسول الخليفة إليه، وهو في مرض الموت، ولكن بعد أن كَوَّنَ دولة، وبسط سلطانه عليها.

ظهر أخوه (عمرو) من بعده ولاءَهُ للخليفة، فيوليه الخليفة خراسان، وفارس، وأصبهان، وسجستان، والسند، وكرمان، والشرطة ببغداد، وكان "عمرو"

كأخيه ذا أطماع واسعة، فانتهز فرصة تحسن العلاقة بينه وبين الخليفة وراح يتمم رسالة أخيه.

اتجه بنظره إلى إقليم ما وراء النهر الذى كان يحكمه السامانيون، ولكن قوتهم لا يستهان بها، فما العمل؟

إلى الخليفة المعتضد ليساعده على تملك هذا الإقليم، ولكنْ على الباغي تدور الدوائر، وما طار طائر وارتفع إلا كما طار وقع، لقد هُزم عمرو بن الليث الصفار هزيمة ساحقة ماحقة، ووقع أسيراً في أيدي السامانيين، وأُرسل به إلى بغداد ليقضي عليه فيقتل سنة 289هـ/ 902م.

لم تكد تمر ثمانى سنوات حتى كان السامانيون قد قضوا نهائيا على الصفاريين واستولوا على أملاكهم، والأيام دول الدولة السامانية389-266هـ/ 880-999م.

تسمى الدولة السامانية إلى نصر بن أحمد الساماني الذي ولاه الخليفة المعتمد على ما وراء النهر سنة 261هـ، وكان لنصر هذا أخ يدعى إسماعيل الساماني فولاه الخليفة بخاري.

عرف أن السامانيين كانوا في بلاد ما وراء النهر، وأنهم قضوا على الصفاريين واستولوا على أملاكهم، حتى إذا جاء عام 279هـ/ 893م، مات نصر فقام أخوه إسماعيل مقامه في بلاد ما وراء النهر، فوطَّد أمرها، وثبت قواعدها، وقام بحملة عسكرية ضد المجاورين له من المسيحيين؛ لأنهم كانوا يهاجمون المناطق الإسلامية من حين إلى آخر، وقد نتج عن هذه الحملة انتصاره في هذه الحروب، ودخول كبار قادة هذه البلاد في الإسلام، وتبعتهم في ذلك الجماهير التابعة لهم، لقد كان إسماعيل يحب الخير والعلم، فقرب إليه العلماء، ونشر الخير فيمن حوله.

وفي عهده، تم القضاء على الدولة الصفارية، وامتد نفوذه إلى خراسان، واستولى على طبرستان بعد أن انتصر على واليها العلوي "محمد بن زيد" عام 287هـ/ 900م، وصرعه في أثناء القتال.

وتمكن إسماعيل بعد ذلك من ضم الري وقزوين إلى حوزته وتحت سيطرته.وتوارثت الأجيال السامانية الولاية بعد إسماعيل الساماني حتى سنة 389هـ/ 999م؛ حيث سقطت الدولة السامانية بسبب الأطماع والخلافات؛ مما أطمع القواد والعمال في الخروج على الحاكمين من السامانيين، ولا ينسى التاريخ أن يذكر للدولة السامانية اهتمامها بالعلم والعلماء ورعايتها للآداب، وقيامها بنهضة فنية رائعة في العمارة، وصناعة الخزف والمنسوجات الحريرية، وصناعة الورق التي انتشرت في سمرقند، ومنها انتشرت في بقية العالم الإسلامي، وكان اهتمامهم باقتناء الكتب عظيمًا، فالمطلع على مكتبة الدولة يجد مالا يوج في سواها من كتب المعارف والعلوم.

الدولة الغزنوية 351-582هـ/ 962-1186م

هل سمعت أو قرأت أحد هذين الاسمين؟ "سُبُكْتِكِين" و"الْبُتْكِين"؟ إنهما اسمان تركيان، أما أولهما فتنسب إليه الدولة الغزنوية، وقد كان أحد مولى الثاني، وكان الثانى أميراً على مدينة "هراة" التابعة لخراسان، ويصدر أمر عبد الملك الساماني بعزله، فأين يذهب؟ ذهب إلى "غزنة" واستولى عليها سنة 352هـ/ 963م، ويحل محله بعد موته على إمارة غزنة ابنه إسحاق، ويموت إسحاق وليس هناك من يرثه.

لقد جاء الدور على "سبكتكين" أحد موالي "البتكين" الذي كان معروفًا بالتدين والمروءة، ورجاحة العقل، وكان لابد من توسيع رقعة مملكته لتشمل "بشاور" في الهند، وخراسان التي كان يليها أول الأمر نائباً عن السامانيين.

ويتولى الأمر بعد "سبكتكين" ابنه إسماعيل، ثم تولى الأمر بعده أخوه محمود. ولم تجيء سنة 388هـ/ 998م حتى كان محمود الغزنوي قد شرع في مهاجمة "نيسابور" بعد أن ملك غزنة.

ويتمكن محمود فى سنة 389هـ/ 999م من الاستيلاء على خراسان معلناً ولاءه للخليفة العباسي القادر بالله.

ويولى "محمود بن سبكتكين" أخاه "نصر" قيادة جيوش خراسان، ويسير إلى "بلخ" فيجعلها دار ملكه، ويصبح "محمود الغزنوي" من الشخصيات العظيمة في التاريخ الإسلامي بسبب جهاده المتواصل فى اتجاه الهند، لقد قاد سبع عشرة غزوة على الهند مكنته من ضم إقليم "البنجاب"، وجزء من "السند" إلى بلاده، إن المسلمين في الهند وباكستان يذكرون "محمودًا الغزنوي" ولا ينسونه، وكيف ينسى وهو الذي حمل النور إليهم ونشر الإسلام بينهم؟! لم يكتفِ محمود بهذا، بل أخضع "الغور" وهي تجاور "غزنة" ونشر الإسلام هناك، فيا لها من جهود تُذكر فتُشكر! وإلى جانب فتوحاته في كشمير وبنجاب نراه قد استولى على بخاري، وما وراء النهر آخذاً بعض ممتلكات بنى بويه كالري وأصفهان، وحتى إقليم سجستان أخضعه لسلطانه، وهكذا كان محمود الغزنوي رحمه الله، محبّاً للجهاد والغزو ونشر دين الله في ربوع الأرض، لقد لقى محمود ربه سنة 421هـ/ 1030م، وكان خَيرًا، عاقلا، دَيناً، عنده علم ومعرفة، قصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم، ويقبل عليهم، ويحسن إليهم، وكان عادلا، كثير الإحسان إلى رعيته ملازماً للجهاد، كثير الغزوات، ويتولى مسعود بن محمود أمر البلاد بعد أبيه، ويسير على نهج أبيه، ولكن الدول تضعف في أواخر عهده؛ وينتهى أمر هذه الدولة الفتية عام 582هـ.

وبعد.. فما أكثر الدول التي قامت في فارس! إننا لا ننسى الدولة البويهية (323-447هـ-1055-935م)، وتنسب إلى أبي شجاع بن بويه، الذي كان رئيساً لقبيلة من الديلم تسكن جنوبي بحر قزوين وتحترف الجندية.

لقد قامت دولتهم في فارس والري وهمذان وأصبهان، وكان مؤسسوها من الفرس، وعندما نذكر الدولة البويهية نذكر 'الدولة السلجوقية' التي قامت في فارس وهمذان والعراق، ومؤسسوها من الأتراك.

وقد عرفت أنهم قوم بدو نزحوا من بلاد التركستان إلى بخاري، واعتنقوا المذهب السني، وظلت دولتهم قائمة من سنة (429-700هـ/ 1038- 1301م) وخلفهم المغول في حكم البلاد، ويأتي الحديث عن الدول المستقلة عن الخلافة العباسية إلى ذكر 'الدولة الأيوبية' التي حاربت الصليبيين، وكانت مستقلة عن الخلافة العباسية أيضاً وإن ظلت على الولاء الظاهري لها، 'والدولة المملوكية' التي سقطت الخلافة في عهدها على يد التتار، فقامت بإحيائها في القاهرة على يد الظاهر بيبرس البندقداري.

وتبقى الدولة العثمانية التي أخذت الخلافة من الخليفة العباسي في مصر، وظلت تقوم بمهام الخلافة إلى أن نجحت المؤامرات في إسقاطها، وانفرط عقد الوحدة إلى يومنا هذا.

الدولة الطولونية292-254هـ/ 868-905م

في عهد الخليفة الواثق، كانت مصر من نصيب 'باكباك' التركي حيث ازداد نفوذ الأتراك، وأخذوا يتولون المناصب الكبرى، ويتقاسمونها فيما بينهم، ولكن 'باكباك' فَضَّلَ أن يبقى في العاصمة 'بغداد' ويبعث من ينوب عنه في ولاية مصر.

ووقع الاختيار على أحمد بن طولون، ذلك الشاب الذي نشأ في صيانة وعفاف ورياسة ودراسة للقرآن العظيم مع حسن صوت به، وكان والده مملوكاً تركياً بعث به وإلى بلاد "ما وراء النهر" إلى الخليفة "المأمون العباسي" ولما مات والده تزوج باكباك أمه.

وجاء أحمد بن طولون ليحكم مصر نيابة عن "باكباك" التركي، ولكن موقع مصر الجغرافي، وبُعد المسافة بين العاصمة المصرية "الفسطاط" والعاصمة العباسية "بغداد" شجع وإلى مصر الجديد على الاستقلال بها، فلم يكد أحمد بن طولون يستقر في مصر سنة 254هـ حتى أخذ يجمع السلطة كلها في يده.

لقد عزل الموظف العباسي المختص بالشئون المالية في مصر واسمه "عامل الخراج" وصار هو الحاكم الإداري والمالي والعسكري، وكان له ما أراد، فأقر الأمور في البلاد، وقضى على الفتن، ونشر الطمأنينة في ربوع الوادي، وعَمَّ البلاد الرخاء.

استقلال مصر عن الخلافة:

ولقد أتاحت له الظروف أن يعلن استقلاله بالبلاد في عهد الخليفة المعتمد العباسي، عندما بعث ابن طولون بإعانة مالية للخلافة مساعدة منه في القضاء على "ثورة الزنج"، ولكن "طلحة" أخا الخليفة بعث يتهم ابن طولون بالتقصير في إرسال المال الكافي، ويتهدده ويتوعده، وهنا كان رد ابن طولون قاسياً وعنيفاً، ولم يكتف بهذا بل أعلن استقلاله بالبلاد.

وتأسست في مصر "الدولة الطولونية" نسبة إلى منشئها أحمد ابن طولون، وراح أحمد بن طولون يعدّ جيشاً قوياً لحماية البلاد داخلياً وخارجياً؛ وقد بلغ جيش مصر في عهد أحمد بن طولون مائة ألف جندي.

القطائع عاصمة مصر:

وراح يفكر في اتخاذ عاصمة له غير "الفسطاط" تضارعها وتنافسها، فاتخذ الأرض الواقعة بين السيدة زينب والقلعة وسماها "القطائع"، وعليها أقام جامعه الكبير الذي ما زال موجوداً حتى الآن، وجعله معهداً لتدريس العلوم الدينية، وكان ابن طولون رجل صلاح وبرٍّ، يتصدق من خالص ماله في كل شهر ألف دينار.

وقد رابطت فى العاصمة الجديدة طوائف الجند حيث أقطعهم أحمد بن طولون أرضًا يقيمون عليها.

حماية الثغور:

وأمام ما وصل إليه أحمد بن طولون من قوة، كان لابد أن تتقرب إليه الخلافة العباسية ليقف إلى جانبها في مواجهة الروم البيزنطيين، الذين لا يكفُّون عن الإغارة من آسيا الصغرى.

إن شمال الشام منطقة حساسة، وكانت المناطق الملاصقة للروم فيه تعرف باسم "إقليم العواصم والثغور" فهي تشتمل على المنافذ والحصون القائمة في جبال طوروس.

فليس عجيباً إذن أمام ضعف الخليفة وقوة أحمد بن طولون أن يعهد إليه بولاية الثغور الشامية للدفاع عنها ورد كيد المعتدين، لقد كان أحمد بن طولون مهيأً لهذه المهمة وجديراً بها، فبعث بجزء من جيشه وأسطوله ليرابط هناك على الحدود، يحمى الثغور، ويؤمن المنافذ والحصون.

الوحدة بين مصر والشام:

ثم يتوفى والى الشام التركي سنة 264هـ فيضم أحمد بن طولون البلاد إليه لكي يستكمل وسائل الدفاع على إقليم الثغور، وصارت مصر والشام في عهد الدولة الطولونية وحدة لها قوتها في الشرق العربي، تحمل راية الدفاع عن أرض الإسلام ضد الروم، بينما عجزت الخلافة العباسية في ذلك الوقت عن مواجهة قوى الشر والعدوان، وأمام قوة أحمد بن طولون وقيامه بتوحيد الشام ومصر تحت إمرته خشى أباطرة الروم سلطانه، وخافوا سطوته، فبعثوا إليه يودون أن يعقدوا هدنة معه، بل لقد حدث أكثر من ذلك، لقد عزم الخليفة العباسي "المعتمد" على مغادرة البلاد سراً فراراً من سيطرة أخيه الموفق "طلحة"، فأين يذهب يا ترى؟!.

لقد قرر اللجوء إلى أحمد بن طولون صاحب القوة الجديدة في مصر والشام، ولكن أخاه الموفق أعاده إلى عاصمة الخلافة بالعراق، وظلت الوحدة بين الشام ومصر قائمة في عهد أحمد بن طولون، وراحت قواته البحرية والبرية تحمى هذه الوحدة وتعلى قدرها في شرق البحر الأبيض المتوسط.

ولاية خمارويّه:

ويتولى ابنه "خُمارويه" بعده حاملاً راية الدفاع عن مصر والشام كما كان أبوه، ولكن "طلحة" أخا الخليفة "المعتمد" يعود إلى محاولاته ودسائسه لإعادة مصر والشام إلى سيطرة الخلافة العباسية، ويعد خمارويه جيشاً يتولى قيادته بنفسه، ويهزم قوات أخي الخليفة عند دمشق في معركة "الطواحين" سنة 273هـ887 م، فلا يملك إلا أن يعقد مع "خمارويه" صلحاً اعترفت فيه الخلافة العباسية بولاية خمارويه على مصر والشام، ولأبنائه من بعده لمدة ثلاثين سنة، وكان نصراً رائعاً أتاح له أن يسيطر على منطقة العواصم والثغور، وأصبح "خمارويه" قوة يرهبها الروم.

مصاهرة الخليفة:

وهكذا القوة تكسب أصحابها الاحترام والسيطرة والنفوذ، وتزداد العلاقة بين خمارويه والخلافة العباسية قوة، حيث يتزوج الخليفة المعتمد "العباسة" بنت خمارويه المعروفة باسم "قطر الندى"، وهي الدولة الإخشيدية 358 - 323هـ/ 935 - 969م.

عادت مصر بعد سقوط الدولة الطولونية إلى الخلافة العباسية وعلى الرغم من ذلك ظلت ثلاثين عاماً تعاني من الاضطراب والفوضى والفتن الداخلية، وظل النفوذ العباسي غير مستقر في مصر بعد زوال الدولة الطولونية، ويتطلع أحد القادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر إلى الانفراد بالسلطة وحده دون القادة المتنازعين، والولاة العباسيين.

فيا ترى من هو؟ إنه "محمد بن طُغج الإخشيد"، لقد ساعده على ذلك ما قدمه من خدمات في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدولة الفاطمية التي قامت في تونس، وراحت تهدد مصر من جهة الشمال الإفريقي، وذلك في عام (321-324هـ/ 933- 936)، وفي سنة 323هـ/ 935م تولى الإخشيد ولاية مصر وصار الحاكم المطلق في البلاد.

سبب التسمية:

ولكن من أين "لمحمد بن طغج" هذا اللقب "الإخشيد" وهو لقب إيراني؟ لقد رغب الخليفة "الراضي" العباسي في اكتساب مودة محمد بن طغج إلى جانبه، فمنحه لقب "الإخشيد" وهو لقب إيراني تلقب به الأمراء، ويدل هذا على مكانة الإخشيد في مصر وما بلغه من سلطان واسع ونفوذ كبير.

توحيد مصر والشام وبلاد العرب:

لقد أصبح "محمد بن طغج" مؤسس الدولة الإخشيدية في مصر وإليه تنتسب أسرته، وظلت الأمور على ما يرام بين محمد بن طغج الإخشيد والخلافة العباسية حتى جاء اليوم الذي أرسل فيه الخليفة الراضي جيشاً بقيادة "محمد بن رائق" إلى الشام لانتزاع مصر من الإخشيد سنة 328هـ/ 940م، وعندئذ ألغى الإخشيد اسم الخليفة العباسي من الخطبة وأعلن استقلاله بمصر، واستطاع هزيمة القائد ابن رائق والاحتفاظ بملكه سليماً، وكان ابن رائق قد هزم محمد الإخشيدي في بداية الأمر، وانشغل جنود ابن رائق بجمع الأسلاب، فخرج كمين لابن الإخشيد عليهم، وهزمهم، وفرقهم، وتفرغ الإخشيد بعد هزيمة قائد الخليفة إلى الداخل، فنجح في القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية، وراح يعمل على دراسة أحوال العالم العربي المجاور لمصر.

وأخذ يفكر فى وحدة تقف فى وجه العدوان الخارجى من قبل الروم، وبعد سنتين من قيام الدولة الإخشيدية ضم الإخشيد إليه الشام بعد موت ابن رائق سنة 130هـ؛ ليعيد القوة إلى الشرق العربي، وليتسنى له الوقوف في وجه الروم البيزنطيين، وهنا خاف أباطرة الروم، وأسرعوا يخطبون وده كما فعلوا مع أحمد بن طولون.

وفي العام التالي لهذه الوحدة، مد الإخشيد نفوذه إلى مكة والمدينة، وراح يتولى أمر الحجاز ويشرف على الحرمين الشريفين، ولقي الإخشيد ربه سنة 334هـ/ 469م.

إمارة كافور:

وبعد وفاته تولى وزيره أبو المسك كافور الوصاية على ولديه الصغيرين، وأثبت هذا الوصي مقدرة في إدارة شئون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار التي

تهددها من طائفة القرامطة، وأفلح في القضاء عليها، فلقد حافظ على وحدة مصر والشام وبلاد العرب، وامتد سلطان الدولة الإخشيدية إلى جبال طوروس، في أقصى شمال الشام وصارت قوية الجانب يرهبها البيزنطيون.

وأبو المسك كافور هذا هو الذي خلع عليه الشاعر المتنبي أجمل قصائد المدح، ثم عاد وهجاه؟ نعم، إنه هو بعينه، فلقد كان المتنبي يطمع في أن يوليه كافور ولاية تنافس مملكة سيف الدولة بن حمدان، فمدحه لينال رضاه، فلما لم يولِّه هجاه، لقد بلغت إمارة كافور على مصر ثلاثاً وعشرين سنة حكم فيها باسم أبناء الإخشيد عدا سنتين انفرد فيها بالأمر وظل اسمه طوال هذه المدة موضع الهيبة والإجلال، ويدعى له من منابر المساجد من طرسوس بأطراف الشام ومصر والحجاز، ولقد كان كافور شهمًا جيد السيرة، ترى من يخلفه بعد وفاته؟ وهل تظل الدولة الإخشيدية بعده رافعة أعلامها؟!

سقوط الدولة بعد كافور:

لقد لقي كافور ربه فخلفه أبو الفوارس أحمد بن علي أبو الحسن حفيد الإخشيد، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، وكان لابد في مثل هذه الظروف أن تعود الفوضى إلى البلاد، وأن يكثر من حولها الطامعون، واشتدت هجمات الفاطميين من بلاد المغرب على مصر حيث حاول الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الاستيلاء عليها، وعجزت الدولة العباسية عن الوقوف إلى جانب الإخشيديين، فلم يكن بد من استيلاء الفاطميين عليها سنة 358هـ/ 969م، ليحلوا محل الدولة الإخشيدية.

الدولة الحمدانية 317-399هـ/ 929-1009م

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب، وكان بنو تغلب بن وائل من أعظم بطون ربيعة بن نزار، وكانوا من نصارى العرب الجاهلية الذين لهم محل في الكثرة والعدد، وكانت مواطنهم في الجزيرة وديار ربيعة، ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة ففعل، وعلى هذا فالحمدانيون من بني تغلب ينحدرون من أصل عربي أصيل من العدنانية التي ولدت العربية في كنفها.

وما زالوا يتنقلون بماشيتهم وأموالهم وخيامهم على مثل حالة القبائل العربية من تهامة إلى نجد إلى الحجاز إلى أرض ربيعة إلى ضفاف الفرات حيث نزلوا ساحل "الرقة" الفسيح، ومنها انتقل حمدان بن حمدون إلى "الموصل" وكان حمدان جد الأمراء الحمدانيين رئيس قبيلة أنجبت عدة أولاد اعتمدوا على أنفسهم، وألقوا بأنفسهم في ميادين المغامرة والحرب، فانتصروا وخذلوا، وكانت حياتهم تتصف بالعنف والقوة، ولا تعرف الهدوء والسلم إلا قليلا.

وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية، وغروب شمسها، ويشاء الله أن يشهد الحمدانيون الأحداث التي هزت الإمبراطورية الإسلامية هِزَّة انتهت إلى فرط عقدها وظهور دويلات وإمارات مستقلة على يد الأتراك، والفرس، والكرد، وبعض القبائل العربية، وشهدوا تقلص نفوذ العرب وذوبانه تحت سيطرة الدخلاء بشكل يدعو للأسف، فرأوا أن يقوموا بنصيبهم من حمل هذا العبء، وأن يصونوا التراث العربي، وأن يردوا ما استطاعوا هجمات الروم عن الثغور الإسلامية.

يرافق ظهور الأسرة الحمدانية ارتقاء "المتقي" عرش الخلافة، وقد تسلمها وهي على ما هي عليه من التفكك والانحلال، على يد الأتراك أصحاب وظيفة "أمير الأمراء"

في بغداد؛ حيث استبد أولئك الأمراء بالسلطة دون الخليفة العباسي، وراحت بعض القبائل العربية التي سكنت بادية الشام ووادي الفرات تستغل ضعف الخلافة العباسية، وتستقل بالمدن والقلاع الواقعة في أرضها، ويعتبر ما قامت به قبيلة تغلب مثلا لهذا الذي كان يقع في فترة ضعف الخلافة وسيادة الأمراء.

الدولة الحمدانية في الموصل: قد استطاعت قبيلة تغلب بفضل أبناء زعيمها حمدان بن حمدون أن تؤسس دولة في شمال العراق، وأن تتخذ من مدينة الموصل عاصمة لها (317-358هـ/ 929-969م).

وتعصبت هذه الدولة للعروبة، وساءها استبداد الأتراك بالخلافة العباسية، فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمداني إلى بغداد، ومعه أخوه لمناصرة الخليفة المتقي بالله سنة 330هـ/ 942م.

وكافأ الخليفة هذا الزعيم الحمداني بأن عينه في وظيفة أمير الأمراء، ومنحه لقب ناصر الدولة، ثم منح الخليفة المتقي أخاه لقب سيف الدولة الحمداني.

موقف توزون:

وعاش الأخوان: ناصر الدولة وسيف الدولة ببغداد إلى جانب الخليفة الذي عرف لهما قدرهما، ولكن ذلك لم يعجب الأتراك، فاستطاعوا بزعامة قائدهم توزون أن يطردوا الحمدانيين، وأن يحملوهم على العودة إلى الموصل سنة 321هـ/ 933م.

الدولة الحمدانية في حلب:

وتطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد إلى القيام بمغامرة حربية تعلي من شأن دولته بالموصل فسار سنة 323هـ/ 935م إلى شمال الشام واستولى

على "حلب" وأخرج منها حاكمها التابع للدولة الإخشيدية، صاحبة السيادة حين ذاك على مصر والشام.

وكانت هذه النزاعات بين أقاليم الأمة المسلمة الواحدة وراء التعجيل بنهاية هذه الدولة، وأصبح سيف الدولة بذلك صاحب الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب التي استمرت في شمال الشام حتى سنة 399هـ/ 1009م، ومن يقلِّب صفحات التاريخ يجد مجالس سيف الدولة الحمداني تضم أولئك المشهورين في تاريخ الحضارة الإسلامية وعلى رأسهم الشاعر أبو الطيب المتنبي، والمؤرخ أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، والخطيب الفصيح ابن نباتة، والفارابي الفيلسوف المشهور، والشاعر أبو فراس الحمداني.

قتال البيزنطيين:

وكان قيام الدولة الحمدانية على طول منطقة الأطراف الإسلامية المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية في جنوب آسيا الصغرى وفي شمال العراق حاجزاً ضد هجمات البيزنطيين في وقت أضحت الدولة الإسلامية نهبًا للفوضى والقلاقل الداخلية، وليس لديها قوة حربية كافية!

ولقد خلد التاريخ اسم "سيف الدولة" من خلال حروبه المتكررة ضد البيزنطيين، والتصدي لأعمالهم العدائية على أرض المسلمين، لقد بدأ إغارته على آسيا الصغرى سنة 337هـ/ 949م دون أن تمر سنة واحدة بغير تجهيز حملة حربية لهذا الغرض النبيل، ولقد تسنى له أن يستولي على كثير من الحصون البيزنطية مثل "مرعش" وغيرها من مدن الحدود، ومن بطولات سيف الدولة: استيلاؤه على قلعة الحدث (وهي قلعة متاخمة لحدود الدولة البيزنطية (كان سيف الدولة قد بناها، وهجم عليها الرومان فخربوها، وهدموها فأعد سيف الدولة جيشًا قويا، وهزم الروم هزيمة

ساحقة، واستولى على قلعة الحدث، وقد قال المتنبي في ذلك قصيدة طويلة في مدح سيف الدولة وبطولاته.

الدولة الفاطمية567-358هـ/ 969-1172م

مَنْ الفاطميون؟ وإلى مَنْ ينتسبون؟ وكيف نشأت دولتهم؟ ومتى كان ذلك؟ وهل تنتسب هذه الدولة إلى دول الإسلام؟.

حب آل البيت: لقد ملك حب آل البيت النبوي قلوب المسلمين جميعاً، أما هؤلاء المعروفون بالشيعة والذين خرجوا علينا في التاريخ الإسلامي يغيرون في المفاهيم الواضحة لديننا الحنيف، ويسبون أئمة الهدى من الخلفاء الراشدين بدعوى أنهم سلبوا الخلافة من علي كرّم الله وجهه، هؤلاء هم المتشيعون الذين يزعمون حب علي وهو منهم براء.لقد كان علي – رضي الله عنه- على العكس مما زعموا، فقد كان مستشارًا أمينًا، ووزير صدق للخلفاء جميعاً، ولما قامت الدولة الأموية لم يتقبلها بعض المسلمين والهاشميين؛ رفضاً لمبدأ توريث الخلافة، ولما قامت دولة بني العباس لم تُمَكِّن لأبناء علي بن أبي طالب أن يكون لهم شيء في الحكم والخلافة، ونشط المتشيعون يشعلون الثورات في كل مكان، لكن الدولة العباسية كانت في بدايتها قوية، فتمكنت من القضاء عليها جميعاً، وسحقتها في عنف وشدة دعاة الشيعة:فهل انقطعت حركة الشيعة أو توقفت أمام تلك المطاردة؟! لا.

لم تنقطع حركات المتشيعين ولم تتوقف، فقد كانوا متعصبين لآرائهم، مؤمنين بفكرتهم، يزعمون أن أحق الناس بالخلافة أبناء علي من نسل السيدة فاطمة الزهراء، فإن نالها غيرهم فما ذاك إلا أمر باطل يجب أن يمحي، وما هو إلا شرّحَلٌ بالمسلمين يجب أن يزال، ونشط دعاة الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم، وبخاصة في الجهات البعيدة عن مركز الخلافة، مثل أطراف فارس واليمن وبلاد المغرب، أبو عبدالله الشيعي: وكان من هؤلاء الدعاة أبو عبدالله الشيعيُ وهو رجل من صنعاء اتجه إلى المغرب بعد

أن رأى دويلات "الأغالبة" و"الأدارسة" وغيرهما تنشأ وتقام بعيدًا عن يد الدولة العباسية وسلطانها، وركز "أبو عبد الله" دعايته بين البربر، وسرعان ما انضموا إليه في آلاف عديدة، فأرسل إلى زعيمه الفاطمي الكبير "عبيد الله بن محمد" عبيد الله:

وقال "عبيد" هذا بأنه شريف علوي فاطمي، ولكن الخليفة العباسي علم بالأمر طارد "عبيد الله" هذا، وأمر بالقبض عليه، فاضطر حين وصل مصر إلى أن يتنكر في زي التجار، ثم حاول أن يفلت من دويلات شمال إفريقيا، ولكنه سقط أخيراً في يد أمير "سجلماسة" الاستيلاء على القيروان: كان "أبو عبد الله" الراعية الشيعي في هذا الوقت قد جمع قواته من البحر، وهاجم بها "دولة الأغالبة "التي ما لبثت أن سقطت في يده سنة 297هـ/ 909م، ودخل عاصمتها، وأخذ من الناس البيعة لعبيد الله الأمير الأسير، وما لبث "أبو عبد الله الشيعي" أن سار على رأس جيوش ضخمة نحو "سجلماسة" لينقذ عبيد الله، ولما أدرك صاحب "سجلماسة" أن لا قِبلَ له بمواجهة الجيش المغير هرب من عاصمته بعد أن أطلق أسيره "عبيد الله الفاطمي" دخل عبيد الله القيروان التي اتخذها عاصمة للدولة الفاطمية، وهناك بايعه الناس ولقب "المهدي أمير المؤمنين" وصار خليفة للمسلمين تأكيدًا لفكرة الشيعة عن أحقية أبناء علي -رضي الله عنه -بالخلافة، ولقد اعتبر نفسه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، الاستيلاء على دولة الأدراسة: وتوالى الخلفاء من نسل المهدي عبيد الله، وكان منهم "المعز لدين الله الفاطمي" الذي أرسل قائده الشهير "جوهر الصقلي" ففتح "دولة الأدارسة" ووصل إلى المحيط الأطلسي، ثم مد حدوده إلى مصر وفتحها عام 359هـ/ 969م، فكيف استولى عليها الفاطميون؟ وماذا كان موقف الخلافة العباسية منهم؟ الاستيلاء على مصر:لقد أرسل "المعز لدين الله الفاطمي" قائده الكبير "جوهر الصقلي" ليفتح مصر، فسار في جيش ضخم بعد أن مهد الطرق لمسير الجيش، وحفر الآبار على طول الطريق، وأقام "استراحات" على مسافات معقولة في

الطريق، وأحسن تدريب الجيش وتنظيمه وتموينه بعد أن جمع الأموال اللازمة لهذا كله.

وسار الجيش إلى الإسكندرية، وما لبث أن دخلها دون قتال، وأحسن معاملة المصريين، وكَفَّ جنوده عنهم، ثم سار إلى "الفسطاط" فسلَّم له أهلها على أن يكفل لهم حرية العقيدة، وينشر الأمن والعدل والمساواة، وطار الخبر بالاستيلاء على مصر إلى "المعز" فسر سروراً عظيماً، وأقام الاحتفالات والولائم، وحوله الشعراء ينشدون، لقد ساعد على نجاح هذا الغزو ضعف واضطراب الأحوال في مصر، وكثرة الشيعة الذين عاونوا الغزاة كل المعاونة آنذاك، وهكذا سُلخت مصر عن الخلافة العباسية، وأصبحت ولاية فاطمية عام 359/ 969م.

بناء القاهرة:

وهنا بدأ "جوهر" يعد العدة لنقل مركز الدولة الفاطمية إلى مصر؛ فبنى للخليفة قصراً فخماً شمال الفسطاط، وبنى معه منازل الوزراء والجند، وكانت هذه بداية مدينة القاهرة، لقد كانت "الفسطاط" هي العاصمة بعد دخول عمرو بن العاص وبعدها "العسكر" في عهد العباسيين، ثم "القطائع" في عهد الطولونيين، ثم أصبحت "قاهرة المعز" هي العاصمة حتى الآن.

وبعد أن تم إنشاؤها دعا "جوهر" "المعز" أن ينتقل إليها، وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية.

دولة المماليك 648-923هـ/ 1250-1517م

من المماليك؟ وما موطنهم الأصلي؟ وكيف وصلوا إلى الحكم؟ وما دورهم في حماية العالم الإسلامي؟ فضل المماليك:إنها أسئلة تخطر بالبال حين يذكر أولئك الرجال الذين حكموا مصر والشام، وكان لهم شأنهم في موقعة "عين جالوت"، ومازال العالم كله يذكر فضلهم في أول هزيمة أصابت المغول، إن المؤرخين جميعاً يعتبرون انتصار المماليك انتصاراً عالمياً؛ فقد عجزت الدولة الخُوارزمية، والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم، وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولي على أجزاء من "روسيا" و"بولندا" و"المجر" الحالية! لقد كانت "موقعة عين جالوت" أول صدمة في الشرق لجيوش المغول ورؤسائهم الذين خُيِّل لمعاصريهم أنهم قوم لا يُغلَبون، فجاءت هذه الواقعة لتقول للدنيا لا غالب إلا الله، وأن فوق كل قوي من هو أقوى منه، وأن النصر من عند الله ينصر من يشاء، ومن هنا كسبت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين، كما استقامت لمصر زعامة جديدة في العالم الإسلامي، ولكن، ما أصل أولئك المماليك؟.

أصل المماليك: إنهم خليط من الأتراك والروم والأوروبيين والشراكسة، جلبهم الحكام ليستعينوا بهم في القرن السادس الهجري وحتى منتصف القرن السابع، كان كل حاكم يتخذ منهم قوة تسانده، وتدعم الأمن والاستقرار في إمارته أو مملكته، وممن عمل على جلبهم والاستعانة بهم الأيوبيون، وبخاصة في عصورهم المتأخرة لما أصابهم الضعف واحتاجوا إلى الرجال، لقد كانوا يُباعون للملوك والأمراء، ثم يُدَرَّبون على الطاعة والإخلاص والولاء.

المماليك في مصر: وعرفت مصر نوعين من هؤلاء المماليك:

1. **المماليك البحرية:** وهم الذين أسكنهم الملك الصالح الأيوبي قلعة في جزيرة الروضة، ونسبوا إلى بحر النيل، أو سمّوا بذلك لأنهم قدموا من وراء البحار،

وهؤلاء حكموا مصر من سنة (648-784هـ/ 1250-1382م) وتداول عرش مصر في عهدهم أربعة وعشرون سلطاناً.

2. أما النوع الثاني فهم المماليك البرُجية أو الجراكسة، وسُمّوا بذلك لأن السلطان قلاوون أسكنهم أبراج قلعة الجبل، ولأن الجراكسة كانوا أكثر عدداً، وهؤلاء حكموا مصر من سنة (784-923هـ/ 1382-1517م) وهم ثلاثة وعشرون سلطانًا، لقد عرفت البداية لدولة المماليك، ولقد كانت النهاية على يد العثمانيين عند مرج دابق والريدانية (حي العباسية) سنة 923هـ وكانت الغلبة للعثمانيين الذين آلت إليهم ممتلكات المماليك ليبدءوا عهداً جديداً، ولم يأخذ المماليك بمبدأ وراثة العرش، وإنما كان الطريق مفتوحًا أمام من أبدي شجاعة وإقداماً ومقدرة، هذه هي المؤهلات في دولة المماليك التي قامت على أنقاض دولة الأيوبيين، وبعد مقتل توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين بمصر.

3. التصدي للمغول: إن المغول يزحفون..وإن الخطر قادم فلتتوقف الخلافات بين المسلمين، ولتتوحد القوى في مواجهة هذا العدو! لقد استولى المغول علىالأراضي الإسلامية التابعة لخوارزم شاه، ثم واصلوا سيرهم -كما عرفت من قبل- مهددين العراق حتى أسقطوا الخلافة العباسية، كانت مصر في ذاك الوقت يحكمها علي بن أيبك الذي كان في الخامسة عشرة، والذي تولى مصر بعد وفاة أبيه المعز أيبك، وكان ضعيفاً لا حول له في هذه الظروف الصعبة، وراحت مصر تتطلع إلى مملوك قوي يحمي حماها، ويصون أرضها، لقد سقطت الخلافة العباسية، واستولى التتار على بغداد وبقية مدن العراق، ثم اتجهوا نحو بلاد الشام التي كانت مقسّمة إلى إمارات يحكمها أمراء أيوبيون، وتمكن التتار من الاستيلاء على حلب سنة 657هـ/ 1277م.

4. سيف الدين قطز: وفي هذه اللحظات التاريخية ظهر "سيف الدين قطز" وقد تولى حكم مصر، وقال قولته المشهورة: لابد من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم، ووصلت إلى مصر صرخات أهل الشام، واستغاثات أمرائهم من

الأيوبيين: أن تحركوا واعملوا على إنقاذنا، لقد قتلوا العباد، وخربوا البلاد، وأسروا النساء والأطفال، وأصبحت مصر هي الأمل بعدما ضاع الأمل في الخلافة، وفي أمراء الشام، خرج "سيف الدين قطز" في عساكره، حتى انتهى إلى الشام.

عين جالوت:

وكان اللقاء عظيماً عند "عين جالوت" في الخامس والعشرين من رمضان الذي وافق يوم جمعة، ولأول مرة يلقى المغول من يصدهم ويهزمهم هزيمة ساحقة، وكان النصر لراية الإسلام، وكانت صيحة واحدة صدق بها المسلمون ربهم "وا إسلاماه"، وفي يوم واحد، انقلبت الأوضاع، وأذن الله بنصره بعد عصر طويل من الذل والمهانة، وبعد جبال الأشلاء وأنهار الدماء التي غرق فيها المسلمون.

عزة بعد ذل:

ولكي تدرك مدى الضعف الذي كان عليه المسلمون قبل أن يعودوا إلى ربهم، فاعلم أن التتري كان يلقى المسلم في بغداد وليس معه سيف، فيقول للمسلم: قف مكانك حتى أحضر السيف لأقتلك، فيبقى المسلم جامداً ذليلاً في مكانه حتى يأتيه التتري بالسيف فيقتله به!

لقد قاتل سيف الدين قطز قتالاً عظيماً، وقاتل معه الأمراء المماليك حتى النصر، ووقف قطز يوم "عين جالوت" على رجليه تاركاً جواده، وهو يقول لمن راح يلومه على ذلك.

الدولة الرستمية 160-296هـ/ 777-909م

قامت الدولة الرستمية في المغرب الأوسط (الجزائر)، وتنسب إلى مؤسسها الرحمن بن رستم زعيم الخوارج الإباضية، ومنذ خرج الخوارج على علي بن أبي طالب- "رضي الله عنه- وتسببوا في قتله على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم، وهم يتبنون سياسة الخروج والثورة على الخلافة الإسلامية، يكفِّرون من خالفهم من المسلمين، وتستبيح بعض فرقهم دماءهم! وكان الخوارج قد فروا في مرحلة مبكرة من الأمويين بدمشق والشام إلى المغرب.

حاول الخوارج نشر مبادئهم هناك، وكانت الدولة العباسية كالدولة الأموية تحاول القضاء على الخوارج بسبب أفكارهم الغريبة ومعتقداتهم، واستقر عبد الرحمن بن رستم في إقليم تاهرت بالمغرب الأوسط، وقام بنشر مذهبه هناك حتى بويع بالإمامة سنة 160هـ/ 777م، فأعلن قيام دولته التي صارت ملجأ لإباضية العراق وفارس وغيرهما، وهم أحد الفرق المعتدلة؛ حيث تتعايش مع خصومها وتعدل عن قتلهم.

نجح عبد الرحمن بن رستم فى توطيد دعائم دولته خلال الفترة التي قدر له أن يحكمها (144-168هـ) وقد خلفه من بعده ابنه عبد الوهاب الذي بقي في حكم الدولة الرستمية عشرين سنة، ثم أفلح بن عبد الوهاب الذي حكم أكثر من خمسين عاماً (188-238هـ)، ثم تتابع في حكم الدولة الرستمية خمسة من الأمراء، هم: أبوبكر بن أفلح، وأبو اليقظان، فأبو حاتم، فيعقوب ابن أفلح، فاليقظان ابن أبي اليقظان آخر أمرائهم.

وظل أتباع هذه الدولة يتصارعون ويختلفون حتى انقرضت الدولة الرستمية سنة 296هـ/ 909م، في عهد اليقظان بن أبي اليقظان على يد داعي الفاطميين أبي عبد الله الشيعي.

لقد كانت علاقة الدولة الرستمية متوترة مع الأغالبة الذين يمثلون الدولة العباسية، ولكنهم كانوا على علاقة طيبة بالأمويين في الأندلس، وذلك لأن الأمويين كانوا يبادلون العباسيين الكراهية والعداء.

وانتهت دولة الرستميين رغم ما تمتعت به من حياة سهلة رغيدة مدة من الزمان؛ لأن الذي يخرج عن جسم الأمة لابد أن تحاصره النهاية، وكانت هنا دويلة أخرى قامت في جنوب المغرب الأقصى إلى جانب دولة الأغالبة والأدارسة والدولة الرستيمة، إنها دولة سجلماسة (أو الدولة المدارية) في جنوب المغرب الأقصى (140-296هـ/ 758-909م) وقد يتساءل البعض عَمْن أسسها؟ وكيف كانت علاقة هذه الدولة بجيرانها؟ لقد أسسها "موسى بن يزيد المكناسي" وهي دولة كالرستمية أسسها خوارج لكنهم على المذهب الصفري، ولهذا توطدت العلاقات بين هذه الدولة والدولة الرستمية في شتى المجالات، ومؤسسها سوداني بنى العاصمة "سجلماسة"، وقد قضى الفاطميون عليها كما قضوا على غيرها.

دولة الأدارسة 172-364هـ/ 789-975م

ذُكِرَ أنه في أيام الخليفة الهادي قامت ثورة "علوية" في الحجاز، وهي من تلك الثورات التي كان العلويون يشعلون نارها طوال خلافة العباسيين، وقامت قوات "الهادي" بالقضاء على هذه الثورة في موقعة "فخ"، ولكن بعض رؤوس هذه الثورة وقادتها قد أفلتوا من أيدي العباسيين وهربوا إلى أماكن نائية بعيداً عن أيديهم.

وكان ممن هربوا عَلَوِي يسمى "إدريس" بن عبد الله بن الحسن ابن علي - رضي الله عنه، - وراحت قوات العباسيين تطارده، عيونهم وجواسيسهم تبحث عنه، فظل ينتقل من قطر إلى قطر آخر حتى وصل إلى مصر، وفي مصر التقى بصاحب البريد، وكان قلبه مع العلويين، فدبر لإخفائه، واحتال حتى أرسله إلى أبعد أجزاء الدولة حتى يكون في مأمن من سطوة الخليفة، وكان له ما أراد فوصل إلى أقصى

المغرب، وهناك أعلن أنه من سلالة النبي، فأسرع البربر بالالتفاف حوله غير أن جيش أنصار الخليفة العباسي تمكن من هزيمته، ولكن ابنه إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي تمكن من جمع أهل المغرب من حوله، وما أسرع ما بايعوه، ولم يجد صعوبة في قيادتهم والاستيلاء على الإقليم جميعه، والقضاء على أي أثر للنفوذ العباسي فيه، واتخذ عاصمته في فاس، وأقام دولة هناك نُسبت إليه فعُرفت بدولة الأدارسة، وهي نموذج للدولة المعادية للدولة العباسية، وهي أول دولة شيعية تظهر في التاريخ، على أنَّ تَشَيُّعَها لم يكن يتجاوز حب آل بيت رسول الله <والولاء لهم، وهي صفة يشترك فيها السنة والشيعة معاً، وإن بالغ فيها أهل التشيع.

لم يكن تشيع هذه الدولة ينال من حقيقة الإسلام الصافية شيئاً، ولهذا أحبها أهل السنة وانتصرت بهم، وكانت القبائل البربرية السنية في المغرب حاميتهم وعماد دولتهم، ولهذا أيضاً عاشت دولة الأدارسة نحواً من قرنين من الزمان، لقد كانت دولة الأدارسة ضعيفة نسبيًا وذلك لسببين:

أولهما: أنها كانت محصورة بين الصحراء والمحيط والأمويين في الأندلس ثم الأغالبة في إفريقية.

ثانيهما: هو أنها كانت تعتمد على البربر وهم متقلبون يؤيدونها اليوم بينما يثورون عليها غداً.

وكانت سياسة الدولة نفسها متقلبة تميل مع مصالحها لتضمن البقاء والاستمرار، فهي يوماً تميل مع الفاطمين، فتدعو لهم، وتعتمد عليهم، وعندما يهددها الأمويون في الأندلس تميل معهم وتدعو لهم، وهذا يفسر لنا بوضوح سر ضعف دولة الأدارسة.

وأراك تسألني عن نهايتها، وأقول: لقد كانت نهايتها كنهاية دولة "الأغالبة" في تونس -التي سيأتي ذكرها- على يد الفاطميين سنة 364هـ/ 975م بعد أن عاشت ما يقرب من قرنين، وأدت دوراً حضارياً رائعاً في المغرب الإسلامي، إذ انتشر بهم الإسلام في المغرب بين البربر، وأسّسوا جامع القرويين الذي كان منارة للثقافة الإسلامية، وكانت في المغرب كالأزهر في المشرق.

دولة الأغالبة 184-296هـ/ 800-909م

هل تعلم أن نية العرب يوم فتحوا شمالي إفريقية كانت تتجه إلى توحيد إدارتها وإدارة الأندلس في ولاية واحدة أسموها "إفريقية" وعاصمتها "القيروان"؟!

ولكن موقف "البربر" المتقلب، والبعد عن الخلافة، ونفوذ الأمويين في الأندلس، كل ذلك ساعد على قيام الدويلات، فقامت "دولة الأدارسة" في المغرب كما عرفتَ، وحاول الرشيد أن يوقف نفوذهم وتقدمهم، فاختار صديقاً له يدعى "ابن الأغلب" وولاه على القيروان (تونس)، وأفهمه أن مهمته الأولى هي: إيقاف "الأدارسة" عند حدهم، واستطاع إبراهيم بن الأغلب بعد أن وصل إلى "القيروان" أن يوقف زحف الأدراسة العلوية، وأن يقى الدولة العباسية شر غزوات البربر والإغارة على الأقاليم الشرقية للدولة، وحقق إبراهيم بن الأغلب للرشيد ما أراد.

وكانت هذه الدويلة تمثل الدويلات ذات العلاقة الاسمية بالدولة العباسية بخلاف دولة الأدارسة التي كانت معادية للخلافة العباسية، لقد استطاع "إبراهيم بن الأغلب" أن يوقف الأدارسة، وبعد مناوشات بين الطرفين اقترحوا عليه ألا يعتدي أحد الطرفين على الآخر، وأن يبقى كل في إقليمه، فقبل "ابن الأغلب"، واستقل "إبراهيم بن الأغلب" بالإقليم، ولكنه ظل على علاقة بالخلافة العباسية، فهو يذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة، ويضع اسمه على العملة، ولكن فيما عدا هذين الأمرين فليس للخليفة العباسي أي نفوذ على دولة الأغالبة، فهم يتوارثونها أباً عن جد،

ويصرِّفون أمورها كما يشاءون دون رقيب، ولما قويت شوكة الأغالبة بدءوا التوسع، ولكن الأدارسة حدوا من توسعهم غرباً، والصحراء حدتهم جنوباً، والعباسيون شرقاً، فلم يبقَ لهم سوى الاتجاه شمالاً حيث البحر!

فهل توقف الأغالبة؟ كلا، فها هم أولاء ينشئون أسطولاً ضخماً، يبنونه في سنوات معدودات، ويبدءون جهادهم المبارك ضد الصليبيين بقيادة "أسد بن الفرات" في البحر الأبيض المتوسط، ترى إلى أين؟ هاجموا جزيرة "صقلية" مراراً على مدى ثمانين عاماً حتى استطاعوا القضاء على مقاومة الرومان من أهل الجزيرة وحكامها، وضموها لأراضي المسلمين، ثم استولوا على جزيرتي "مالطة" و"سردينيا" ونزلوا بعد ذلك في كثير من السواحل الأوروبية، وبخاصة سواحل إيطاليا الجنوبية والغربية، والسواحل الجنوبية لفرنسا، لقد عاشوا أكثر من قرن من الزمان يحكمون تونس وملحقاتها، ويحكمون صقلية، ويفرضون هيبتهم على الدول الأوروبية، وقد استطاعوا في بعض هذه السواحل إقامة حاميات وحصون دائمة، وإن لم يستطيعوا التوغل في بعض هذه البلاد والاستيلاء عليها من أيدي أهلها، وقد يتساءل البعض: ما قيمة هذه الفتوح وهي ليست إلا بعض جزر، وبعض نقاط السواحل؟

إنها في حقيقة الأمر على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن هذه الجزر والسواحل الضيقة كانت جسراً عبرت عليه الحضارة الإسلامية إلى أوروبا في زمن كانت فيه أوروبا في ظلام حالك.

كما أن السيطرة على هذه الجزر كان يؤمن التجارة الإسلامية في غرب البحر المتوسط وكانت الثقافة الإسلامية الضوء الوحيد في العالم الذي أنار وجه الأرض حينذاك.

وعاشت دولة الأغالبة قرناً وتسعة أعوام من سنة 800م إلى سنة 909م، وازدهرت الحياة الاقتصادية والعمرانية في تونس على عهدهم، ولعبت مساجدهم في

تونس دوراً كبيراً في دعم الحضارة الإسلامية، وكان جامع الزيتونة جامعة إسلامية عظيمة.

وقد انتهت حياتها على يد الفاطميين يوم دخلوا القيروان فاتحين.

الدولة الطاهرية 205-259هـ/ 821-873م

قامت هذه الدولة فى خراسان، وقد أسسها طاهر بن الحسين أحد كبار قواد الجيش في عهد الخليفة المأمون.

ولكن كيف يتسنى له أن يقيم دولة والدولة العباسية في أول عهدها، وفي عصر المأمون الذي يعد العصر الذهبي للدولة العباسية؟! إن لقيام هذه الدولة قصة، فقد كان لإقليم خراسان وضع خاص في الدولة العباسية منذ نشأتها، إذ كان هؤلاء الخراسانيون -كما علمتَ في قيام الدولة العباسية- يشعرون بأنهم أصحاب فضل على الدولة العباسية، وبأن سيدهم أبا مسلم الخراساني هو المؤسس الأكبر لهذه الدولة، ورغم ذلك لم يحسن العباسيون جزاءهم حين قتل المنصور أبا مسلم، والواقع أن الخلافة العباسية كانت تتجاوز كثيراً عن الخراسانيين، وتحاول إرضاءهم؛ اعترافاً بفضلهم على الدولة، وفي عصر المأمون، كان طاهر بن الحسين وابنه عبد الله من كبار رجال.

الفصل الخامس

ثروة الدولة العباسية
في عصر الانحطاط

ثروة الدولة العباسية في عصر الانحطاط

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة، فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة كما بلغت الدولة الأموية في الشام شبابها في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد والدولة الأموية بالأندلس بلغت شبابها في أيام الخليفة الناصر وابنه الحكم، والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في أيام السلطان سليمان، وقس عليه.

(العرب والفرس) وقد علمت مما تقدم أن الدولة العباسية إنما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً أهل خراسان، وهؤلاء لم ينصروها إلا انتقاماً لأنفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الأمم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين، فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون إلى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم في إرجاع نفوذهم، فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون إلى شوكتهم وسلطاتهم، ثم مات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة والأمين عربي الأبوين لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور، فأخذ أهل بغداد بنصرته وفيهم جند العرب (الحربية)، وأما المأمون فأمه فاديه فارسية الأصل، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده وانتهى الخلاف بمقتل الأمين وفوز المأمون فعاد النفوذ إلى الفرس وعادوا إلى امتهان العرب.

(الأتراك) فلما مات المأمون سنة 218هـ أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله وكانت أمه تركية الأصل من بلاد السغد في تركستان فشبّ محباً للأتراك وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين وهي أول مظاهر جرأتهم

على الخلفاء، ولم يكن له من الجهة الأخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم العباسيون من الذل، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنوّ أجله بمحاربتهم، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب، وكان مع ذلك على رأي أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة في تأييده حتى أنه أحضر أحمد بن حنبل الإمام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكترث بذلك وإنما كان معتمده على جند الأتراك، فقد فسدت النيات واضطربت الأموال وابتدأت الدولة بالتقهقر من ذلك الحين، فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم. ثم إن ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر، فلما كانت الدولة العباسية إبان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ثم أخذت بالتقهقر بغتة في أيام المعتصم.

مقدار الجباية في عصر الانحطاط

وإذا نظرنا إلى ما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالي الأعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الأولين، على أنهم كانوا إذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً خلّفه من يسرف فيضيعه، ومن أمثالهم المأثورة أن ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الأمين (سنة 193ـ 198هـ) وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل (سنة 232 ـ 247هـ) وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي أنفقه المقتدر (سنة 295 ـ 320هـ).

وبالإجمال إن الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها، والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على النفقات ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية إلا في أحوال خصوصية وبمبالغ صغيرة فالمعتصم ترك في بيت ماله 8.000.000 درهم والمستعين (سنة 251هـ) خلف في بيت المال 500.000 دينار والمكتفي (سنة 295هـ) خلف 15.000.000 دينار والظاهر أنها اجتمعت بتوالي الخلفاء فلما تولى المقتدر أنفقها كلها وأنفق ما جمعه في أيامه من أموال المصادر فضلاً عن الخراج حتى قدّروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و 70.000.000 دينار ما عدا نفقات الدولة واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والغلمان للخلافة أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب، وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سنة 361 هـ أنه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع 400.000 درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد، وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت في أيام الراضي بالله سنة 322هـ وخرجت قيادة الأمور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة.

وأسباب انحطاط الثروة العباسية هي: (1) قلة الجباية و(2) كثرة النفقة.

أما أسباب قلة الجباية، فهي:

1) ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها في أيام الرشيد والمأمون ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لأسباب يطول شرحها، وأول ما استقل من الولايات العباسية أفريقية بدأت بالاستقلال في أيام الرشيد كما تقدم، ثم خراسان في أيام المأمون ثم مصر في أيام المعتمد في أواسط القرن الثالث للهجرة ثم فارس وما وراء النهر وغيرها، ولم يمض الربع الأول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة إلى بضعة عشر قسماً كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين، على أن معظم هذه الدول كانت تعدُّ الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي الأموال له بعضها باسم

الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية أو غير ذلك، وكان أكثرهم لا يؤدي ما عليه إلا مرة كل بضعة أعوام، وطبيعي أن تشتّت المملكة على هذه الصورة يقلل من مقدار الجباية.

2) تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية في أيام زهوها ثقل الضرائب خصوصاً في العراق إذ كانت المقاسمة على النصف إلى أيام المأمون، فأدرك هذا الخليفة ثقل هذا الخراج ورأى الثروة فائضة في بيت ماله والأموال متوفرة فعمد إلى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين أي أنه أنقصه عشرين في المائة وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً إذ كان في قائمة قدامة 114.457.650 درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبة 78.319.340 درهماً لأن الأول قدّره على ما يظهر باعتبار النصف والثاني باعتبار الخمسين واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء فأبطل الواثق سنة 232هـ أعشار السفن وقد رأيت أنها ضريبة ذات بال كان يرد منها إلى بيت المال شيء كثير، واقتدى بالواثق خلفه المتوكل فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين.

الجزية والزكاة

ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول الناس في الإسلام بتوالي الأعوام حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينة السلام في أواسط القرن الثالث للهجرة إلى 130.000 درهم وفي قائمة علي بن عيسى أنهم جبوها 16.000 دينار أي نحو ضعفي ذلك.

ويقال نحو ذلك أيضاً في الزكاة فقد تناقصت بتوالي الأعوام حتى كادت تتلاشى وأصبحت المطالبة بها تدعو إلى التذمّر.

3) استئثار العمال بالجباية

فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال إلى ما تطمح إليه أنظارهم من طلب الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية واضطر الخلفاء إلى التراضي معهم على مال مضمون وأن يكون أقل مما يجبى وهو الضمان أو المقاطعة، كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة 205هـ على أن يدفع له 1.000.000 درهم في العام مع أن ارتفاع جبايتها الحقيقي 11.500.000 درهم وضمن البريدي الأهواز على أيام الراضي كل سنة 360.000 دينار على أن يدفعها أقساطاً وخراجها الحقيقي يزيد على أربعة أضعاف هذا المبلغ. ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون إلا قليلاً مما تعهّدوا به.

4) انشغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن ونشبت الحروب بين طوائف الجند أو بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وغلت الأسعار وتعطّلت الزراعة لضياع الأمن فقلّت الجباية واحتاج العمال والقواد إلى المال فظلموا الناس من أجل تحصيلها منهم فزاد الخراب، وما من هادم للعمران كالظلم فإنه يغلّ الأيدي ويقعد الناس عن السعي فينشغل به الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته ووبال ذلك عائد على الدولة إذ لا قوام لها إلا بالرعية.

5) تحويل أكثر البلاد إلى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع، ويغلب في الضياع أن تكون لأهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم أو وزرائهم أو كتابهم أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ، فلما انتقلت الدولة الإسلامية من الخلافة الدينية إلى الملك العضوض في أيام بني أمية اختزن الصحابة الأموال واتخذوا المصانع والضياع واقتدى بهم من جاء بعدهم من

التابعين وتابعي التابعين وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية فقد أكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصاباً من أصحابها وليس من ينصفهم من غضب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم ولاعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكاً حلالاً لهم فما أرادوا أخذه أخذوه وما أرادوا تركه تركوه.

فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس سنة 132هـ أعملوا السيف في بني أمية ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والأبنية بحق أو بلا حق والخلفاء يمنعونهم جاهدين وعندما لا يتمكنون من منعهم بالحسنى كانوا يصادرونها أو يقبضوا أموالهم بعد موتهم كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها 500.000.000 درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته 100.000 درهم في اليوم، ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك، وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم ـ حتى في صدر الدولة العباسية ـ كثرة ما كان من الأرضين المهملة في عهد بني أمية، فيأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له ـ كما فعل المنصور بابنه صالح إذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الأهواز ـ ومن أحيى أرضاً مواتاً فهي له.

(الإلجاء) ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة إلجاء الأهالي ضياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززاً بهم من جباة الخراج، فكان صاحب الأرض يلتجئ إلى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه فلا يتجرّأ الجباة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير، ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدوّن ذلك في دفاتر الحكومة، فتصبح تلك الضيعة بتوالي

الأعوام ملكاً للملجأ إليه ويصبح صاحبها الأصلي شريكاً في غلتها، ومثل هذا الإلجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم.

فالضياع على إجمالها قليلة الخراج مع أنها أخصب الأرضين لأن الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الأموال المطلوبة منهم.

(الإيغار) وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه (إيغار) ومعناه في الأصل (استيفاء) فيقولون: (أوغر العامل الخراج أي استوفاه) ثم استخدموها بمعنى الإعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الأرض مرة واحدة ولذلك قالوا: (أوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج)

وأما أسباب كثرة النفقات فهي:

1) إسراف الخلفاء ونسائهم

من الأمور الطبيعية في العمران إذا كثرت الأموال في الدولة أن يسخو الملوك في بذلها وخصوصاً في الدولة المطلقة وعلى الأخص في الدولة العباسية والخليفة مطلق التصرف في بيت المال ودعاة الخلافة كثيرون لا يُقعد فتنتهم غير استرضاء الأحزاب بالمال أو كسر شوكتهم بالحرب، والأول أسلم عاقبة وأقرب منالاً إذا توفرت الأموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون، فلا غرو إذا رأيناهما يبذلان الأموال في استكفاف الأذى عن الدولة أو سد أفواه أهل الفتن، لكنهم تجاوزوا ذلك إلى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف فاقتنوا الجواري واتخذوا الفُرش من الخز والديباج والحرير والمسامير من الفضة وابتنوا المنتزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء وارتكبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش، وقد سهّل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الإسلامي وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الأموال.

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه، وكان وزيره يحيى تحت أمرها فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام 160.000.000 درهم وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد، وغلة أعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال، فقد ذكروا أن إيراد روكفلر الغني الأمريكي الشهير 10.500.000 جنيه في السنة وغلة الخيزران أكثر من 10.500.000 دينار، وقد بينا في غير هذا المكان أن قيمة النقود كانت تساوي ثلاثة أضعاف اليوم والدينار نصف جنيه فتكون دخل روكفلر نحو ثلثي غلة الخيزران.

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة، رغّابة في الاستئثار فلما آنست في ابنها الهادي معارضة لإرادتها دسّت إليه من قتله ولما ماتت توسّع الرشيد بأموالها وأقطع الناس ضياعها.

وقبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو 2.000.000 دينار نقداً وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال: من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته 2.000.000 دينار وكانت مع ذلك قد عرضّت ابنها للقتل من أجل 50.000 دينار، وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها 10.000.000 دينار في العام تنفقها في جواريها وهي نحو غلة الخيزران، وأخرجوا من تربة والدة المقتدر 600.000 دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله، وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام، فلا عجب والحالة هذه إذا تحول الغنى إلى النساء والخدم والقواد،

وهل تستغرب بعد ذلك إذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه 130.000.000 دينار فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر؟ أو إذا قيل لك إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درّاً فباعه بعشرين ألف دينار أو إذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء؟

الجواري والغلمان

قالوا إنه كان في قصر الرشيد ثلاثمائة جارية ما بين ضاربة على آلة موسيقية إلى مغنية إلى راقصة فضلاً عمن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليع الدمشقي وابن أبي مريم المدني وغيرهم، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار أو عشرة آلاف دينار إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلي وهي شيء كثير، فقد اشترى الرشيد خاتماً بمائة ألف دينار، وقس على ذلك.

ناهيك عمّا كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف فقد بلغ عدد خدم المقتدر 11.000 خصي من الروم والسودان غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش، فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها 13.000.000 درهم وبنى الأمير قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها 20.000.000 واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداهما على صورة الأسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالاً عظيماً.

السخاء

على أن الإسراف كان أكثره فيما يبذلونه كرماً وسخاءً ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً، فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته

وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم 6.000 درهم فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على 2.000.000 درهم، وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها، فقد فرّق المنصور في يوم واحد 10.000.000 درهم على أهل بيته، وفرق المأمون في يوم واحد 1.500.000 درهم على ثلاثة أشخاص، وقد فرق 24.000.000 درهم ورجله في الركاب، وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ 100.000.000 درهم، وتصدق المعتصم في أثناء خلافته بما مجموعه 100.000.000 درهم وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الأرزاق 70.000.000 دينار فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مائة ألف درهم، وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر، وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف أنه لا يأخذ قيمتها إلا مائة ألف ألف درهم (مائة مليون) فأعطاه إياها.

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خالد إذ أمره الرشيد أن يدفع ثمن جارية 100.000 دينار واستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الإسراف في ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو 1.500.000 درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه فأضمر ذلك في نفسه. ويقال أنه كان من جملة الأسباب التي حملته على نكبة البرامكة.

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما ماطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل.

2) تكاثر أبواب النفقة في الدولة

تدرّجت الدولة الإسلامية في مصالحها منذ كان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) هو الأمير والوزير والقاضي والقائد حتى أصبح موظفو الحكومة في أيام الخلفاء الأربعة ستة ثم تزايدوا بتزايد الحضارة واتساع المملكة في أيام بني أمية فبني العباس، وكانت تلك المصالح تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم إلى الترف والرخاء فأصبحت في أيام الرشيد أكثر منها في أيام المنصور وفي أيام المأمون أكثر منها في أيام الرشيد، وقس على ذلك تكاثرها في أيام من جاء بعدهم من الخلفاء.

3) زيادة الرواتب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد المصالح التي لم تكن من قبل ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في أوائل الدولة، وطبيعي إذا كثرت ثروة الدولة أن توسّع على رجالها فتزيد رواتبهم وجوائزهم، فإذا كانت تلك الدولة مبنية على أساس ضعيف لا تلبث أن تنفذ ثروتها وتبقى الرواتب كما هي فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطرون إلى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً.

رواتب العمال

كان راتب العامل في أيام عمر 600 درهم في الشهر ثم اختلف باختلاف العمال والأعمال فقد جعل عمر لمعاوية على الشام ألف دينار في السنة، وربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً بل ينالها مكافأة على خدمةٍ قام بها، على أن ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار كعامل العراقين أو مصر أو خراسان، وقد

بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هبيرة أمير العراق في أيامهم 600.000 درهم في السنة ويلغت غلة خالد القسري 13.000.000 درهم.

وقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان إلى التبت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً إلى الهند وجعل له عمالة 3.000.000 درهم في السنة وعقد له لواءً على سنان ذي شعبتين وأعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين (السيف والقلم) ونقش على سيفه بالفضة من جانب (رئاسة الحرب) ومن الجانب الآخر (رئاسة التدبير).

رواتب الكتاب

وكانت رواتب الكتّاب إلى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها في الشهر على 300 درهم فزادها الفضل بن سهل.

رواتب الوزراء

ألف دينار في الشهر، فإذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر إلى قيمة الفضة والذهب في هذه الأيام زاد هذا الراتب على 1.500 جنيه، وما من وزير يبلغ راتبه إلى هذا المقدار اليوم.

على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف العصور والدول، كان راتب الوزير على أيام الناصر الأندلسي 80.000 دينار في السنة وهدايا، وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفي في أواسط القرن السادس للهجرة 100.000 دينار في السنة، وكان للوزراء فضلاً عن رواتبهم المشار إليها رواتب لأولادهم وأخوتهم وخدمهم وأتباعهم وأرزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً في مصر، فقد كان راتب الوزير في الدولة الفاطمية 5.000 دينار في الشهر ولمن يليه من ولد أو أخ من 300 إلى 200 دينار ثم

حواشيهم على مقتضى عدتهم من 300 - 500 دينار ما عدا الإقطاعات غير ما يجري عليه وعلى أهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة، فقد كان للوزير ابن عمار أيام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه وأهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته 500 دينار في الشهر، ومن الفاكهة سلة بدينار وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف جمل بلح.

رواتب القضاة

كان راتب القاضي في أيام الخلفاء الأربعة مائة درهم في الشهر ومؤونته من الحنطة ثم ارتقى في أيام بني أمية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة 88هـ ألف دينار في السنة، حتى بلغ في أيام المأمون سنة (213هـ) 4.000 درهم في الشهر أي نحو 270 ديناراً.

رواتب الخلفاء وأهلهم

قد رأيت أن الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتاب فبالأولى أن يفرضوها لأنفسهم وأولادهم، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال، لكننا لم نجد قولاً صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من الضياع أو الأموال وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك في أول الدولة إذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك فيبتاعون البيعة بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى إذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ 11.000.000 درهم له ولأولاده، أو للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فإنه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع إليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك ويظهر أنها كانت تدفع إليهم في كل عام، ولما توفي ابنه المهدي فرض لأهل بيته كل واحد 6.000 درهم في السنة، والظاهر أن الرشيد زاد في رواتب أهله، وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته، وكان أفراد العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في أيامه 33.000 نفس.

رواتب حاشية الخليفة

ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالأطباء والحجاب والحرس الخاص، وإليك راتب جبريل كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه وخاصته في مدة خدمته وهي 23 سنة 88.700.000 درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام، وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الأيام، فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد 300.000 درهم في السنة، وغلة صاحب شرطته 500.000 درهم وغلة حاجبه 1.000.000 درهم في السنة.

رواتب الجند

ولما أفضت الخلافة إلى المعتصم سنة 218هـ وكان ما كان من اقتنائه الأتراك والفراعنة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للأسباب التي قدمناها أصبح مرجع القوة في كل شيء إلى الجند، وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الخرمي في أرمينيا وآذربيجان وكان بابك قد ظهر في أيام المأمون يدعو الناس إلى دين جديد أساسه التقمص فبعث إليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لأنه أصبح في خطر منه على ملكه فبعث إليه أتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الافشين حيدر بن كاووس سنة 220هـ ثم أردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال وآخر اسمه جعفر الخياط ثم أنفذ إليه ايتاخ ومعه 30.000.000 درهم لنفقات الجند، وبعد حروب سنتين فاز الافشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال، وجاء ببابك إلى سامراء فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون أنهم نجوا من بابك على يده لأنه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً فقتل في عشرين سنة 255.500 نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم، فلما قبض الافشين عليه أمر المعتصم أن يركبوه على الفيل فأركبوه واستشرفه الناس وكان

بابك عظيم الجثة، ثم أدخلوه على المعتصم في داره فأمر سيّاف بابك نفسه أن يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه في سامراء، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله، وكان لا ينفك وهو يواصل الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه إلى يوم رجوعه، فكان يرسل إليه كل يوم خلعة وفرساً ويدفع إليه في أثناء إقامته بإزاء بابك (سوى الأرزاق وغيرها) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم. ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه وألبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه.

فالافشين لم يثبت في محاربة بابك إلا طمعاً بالمال، فإذا اعتبرت هذه النفقات مع أرزاق الرجال وما قد يحتاجون إليه من المؤونة والأخرجة كان المجموع عظيماً جداً. قال الطبري في حوادث سنة 252هـ: (وذكر أن أرزاق الأتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة فكان مبلغ ما يحتاجون إليه في السنة 200.000.000 دينار وذلك خراج المملكة كلها لسنتين)، على أن الخلفاء كانوا إذا احتدم القتال وخاف الخليفة أو الأمير ضعفاً صاح في جنده: (من جاء بأسير فله عشرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير).

رواتب أخرى

كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو ألسنتهم أو أحزابهم، لأن المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لأنفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم، والملك لا يخلو من حساد يترقبون الفرصة للانتقام، وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام أكثر

مما للصحافة في هذه الأيام، فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون تلافي شرور المقاومين بالإحسان إليهم أو الرفق بهم فيقطعون ألسنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية.

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب إبان ثروتها ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الأموال الواردة على بيت المال، ثم ما لبثت أن رأت الجباية تتناقص ولم يعد في إمكانها تنقيص الرواتب بعد أن تعود أصحابها الإسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداءً بخلفائهم ولا في الإمكان إقالتهم خوفاً من غضبهم فعمد الوزراء إلى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال، وذلك أنهم جعلوا الرواتب بإضافة عدد من الأيام على الشهر فإذا أرادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب ألف دينار في الشهر ـ مثلاً ـ فبدلاً من أن يجعلوه 800 دينار يبقونه على ما كان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوماً أو خمسين، فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عن عدد أيام الشهر عند الآخرين.

4) النفقة على البيعة

رأيت في ما تقدم أن الخلفاء في أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم إلى استرضاء أهل الحرمين وكانوا يحملون إليهم الأموال ويبذلون لهم الأعطية ويفرقون فيهم الهدايا، فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم وقوّى جند الأتراك أهمل أمر الحرمين وصارت القوة إليهم أو بالأحرى إلى المال، لأن الأتراك إنما يحاربون مع صاحب المال.

وأما بعد أيام المعتصم فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد، وكان الجند يُسرّون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال لأنهم كلما تولى

خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو أكثر أو أقل على قدر مطامعهم، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الأعمال بوجه الإجمال.

وزاد أهل البلاد شقاءً أن قواد الجند كانوا إذا أعوزهم المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي استخرجوه من الأهالي، وكثيراً ما كان يحدث ذلك في أثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء، فقد نهب جند الديلم أموال الناس في بغداد في أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة 334هـ بشأن الخليفة المطيع لله وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط 100.000.000 دينار، فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها لأن الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد.

5) استئثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم

إذا بلغت الدولة إلى قمة ثروتها وانغمس الملك في الترف واللهو وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه، تحول النفوذ إلى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد وأصبح الأمر والنهي في أيديهم، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم، فاعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد وما كان من إحرازهم الأموال لأنفسهم حتى كان يحتاج الرشيد إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد نكبهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم إليه الأمور، وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو إكرام الرشيد للبرامكة ثم لم يكن راضياً عنه ولذلك فلما دنت وفاة المأمون وصى أخاه المعتصم قائلاً: (لا تتخذن وزيراً تلقي إليه شيئاً فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سريرته).

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال في أيام الازدهار كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشاوى ويقدمون الهدايا رغبة فيها، كما فعل ابن مقلة إذ بذل 500.000 دينار حتى استوزره الراضي، ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة أنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق فقالوا: كيف نصنع؟ فقال أحدهم: ينبغي إن أردتم التصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد، فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة وعاد الباقون إلى الوزير ففرقهم في عدة أعمال.

وبالإجمال إن الوزراء في عصر التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعاً باختزان الأموال، فإن أبا الحسن ابن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات الأولى سنة 296هـ بقي فيها ثلاث سنين فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي 7.000.000 دينار أخذت كلها مصادرة ثم عاد إلى الوزارة سنة 304 وخلع سنة 306 ثم عاد ثالثة سنة 311 وخُلع سنة 312 فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على 10.000.000 دينار وضياع يستغل منها كل سنة 2.000.000 وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق أو في مصر أو الأندلس، فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلّما ملكه أحد قبله وارتفاعها 400.000 دينار كل سنة سوى الخراج وقد وهب وأعطى وأفضل وحج 27 حجة أنفق في كل منها 150.000

دينار، ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه إقطاع في الشام دخله 300.000 دينار في السنة وخلف أملاكاً وضياعاً وقياساً ورباعاً وخيلاً وبغالاً ونوقاً وغيرها ما قيمته 4.000.000 دينار غير ما أنفقه في تجهيز ابنته وهو 200.000 دينار وخلف 800 حظية سوى جواري الخدمة وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية، وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك 60.000.000 دينار عيناً و250 أردب دراهم نقد مصر و75.000 ثوب ديباج أطلس و30 راحلة أحقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته 12.000 دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيها أحب لَبسه و500 صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد ما لا يحصيه عدّ، أما الأبواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ما شاءوا بغير حساب ناهيك بما كانوا يمدون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان فإن طريقة دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره.

ومن أبواب الكسب أيضاً أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناساً يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة.

المصادرة

كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة. فلما أفضت الأمور إلى بني أمية وكان ما كان من

استبداد عمالهم وطمعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يعزلون عاملاً عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما تصل إليه أيديهم من أمواله وكانوا يسمون ذلك (استخراجاً).

والمنصور كان لا يعزل عاملاً إلا قبض ماله وتركه في بيت مستقل سماه (بيت مال المظالم) وتكاثر تعدي العمال في أيام المهدي (سنة 158هـ ـ 169هـ) فاضطر هذا الخليفة إلى النظر في المظالم ـ وما هي إلا مظالم العمال ـ ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالمأمون إلى المهتدي في أواسط القرن الثالث.

العمال

وغنى العمال ميسور في تلك العصور بالنظر إلى استقلالهم في إدارتهم وشؤونهم وخصوصاً عمال الاستيلاء المفوضين في كل شيء، وأبواب الكسب عندهم كثيرة: منها أن العامل إذا جاء عمله فأول شيء يتوقعه أن يحمل إليه الناس الهدايا وفيها الدواب والجواري والأموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً، ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم إلى المال في إرضاء الوزراء أو لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب، ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل على بناء بيت أو جسر أو على حفر ترعة أو نهر ألف دينار مثلاً ويطالب بعشرة آلاف أو مائة ألف وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين ألف دينار فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها، فهل من عجب بعد ذلك إذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة 50.000.000 درهم سوى الضياع والدور والمستغلات؟ وكان محمد هذا يغلُّ كل يوم 100.000 درهم وبلغت أموال علي بن عيسى بن ماهان 80.000.000 درهم فلم ير الرشيد إلا الجنوح إلى الاستخراج وهو المصادرة، وكان الغالب في بادئ الرأي أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ثم صاروا

يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى فإنه عزله واستصفى أمواله المذكورة وحملها مع خزائنه وأثاثه على 1500 جمل غير 30.000.000 درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ.

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها ولكنها كانت في أول الأمر على سبيل النكبة والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو التخلص منه لغرض آخر، ومن هذا القبيل مقتل أبي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس فبعد أن أيّد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراساني بسيفه وشي إلى السفاح أنه ينوي إخراج الدولة من أيديهم فأوعز إلى أبي مسلم فقتله ثم أصاب أبو مسلم من المنصور مثل تلك النكبة، ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام الرشيد والفضل بن مروان في أيام المعتصم وفي نكبة الفضل هذا رغبة في قبض أمواله لأن المعتصم نكبه سنة 221هـ وأخذ من داره 1.000.000 دينار وأثاثاً وآنية قيمتها 1.000.000 دينار، ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواذ على أموالهم وبلغت المصادرة معظمها في أيام المقتدر (سنة 295 ـ 320هـ).

وكثرت المصادرات في أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام، وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على 40.000.000 دينار على أنهم قدروا جملة ما أنفقه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً و70.000.000 دينار.

الكتّاب

وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالها ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً، وكانت أكثر أموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء.

وكان من أبواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال أو سواهم كما فعل أحمد بن أبي خالد الأحول كاتب المأمون في توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين على خراسان وقد شرط له على نجاحه في ذلك 3.000.000 درهم.

الحجاب

وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاة الأمر وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فإنهم من أكثر الناس دالة عليهم فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة لاكتساب الأموال، وكان ذلك شأنهم حتى في العصر الأول ـ قال المغيرة بن شعبة: (ربما عرق الدرهم في يدي أرفعه ليُرى ليسهل إذني على عمر) ـ وقد عرفت أنه أي (الظلم) يدعو إلى خراب الممالك فإنه يقوّض أركان الدول بما يدعو إليه من تقييد الأيدي عن العمل فيقعد الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته، ولا مال إلا إذا اشتغل هؤلاء ولذلك قالوا: (العدل أساس الملك).

الفصل السادس

أسباب صعوبة دراسة التاريخ العباسي

أسباب صعوبة دراسة التاريخ العباسي

شغلت الخلافة العباسية حيزاً كبيراً من الزمن طال عدة قرون، وقد توسعت هذه الدولة توسعاً كبيراً، وضمت في أرجائها أعراقا وأجناسا شتى من البشر، ولكن الباحث في تاريخ هذه الدولة يواجه صعوبات كثيرة في دراسته، ولهذا أسباب، يجدر بنا الإطلاع عليها:

أسباب صعوبة دراسة التاريخ العباسي

1) دولة مترامية الأطراف فيها أقاليم عدة:

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بني العباس:

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات.. وتمتد عرضًا من شاطئ بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة، وهي مقسمة إلى أقسام كبرى، وكل قسم يشتمل على عدة ولايات، وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات:

1. **جزيرة العرب: وتشتمل على أربع كور جليلة:**

الحجاز. اليمن. عمان. هجر.

وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها الله قيامًا لناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم، وبها طيبة: وهي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعث النور الإسلامي ... أمة هذا القسم عربية محضة، تتكلم اللسان العربي إلا بصحار ـ قصبة عمان على شاطئ بحر الهند ـ فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم عربية، ومذاهبهم السياسية:

التشيع ببلاد اليمن، والخوارج بعمان وهجر، والسنة فيما عداهما.

2. إقليم العراق وبه ست كور:

- الكوفة. - البصرة. - واسط.
- المدائن. - حلوان. - سامراء.

وهذا الإقليم كان يسمى في القديم: إقليم بابل، وهكذا كان اسمه في التقويم الأول عهد العباسيين، ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا ... وأمة هذا الإقليم نبطية، دخل عليها العرب في بلادها، فزاحموها وصارت كأنها لهم، ولذلك صارت لغة هذا إقليم عربية، وأصبح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط، والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأي إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة، وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام، وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق، والغساسنة بالشام، إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك، بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم، فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين، وكان الشام مهد الدولة الأموية، كما كان العراق مهد الدولة العباسية..

3. إقليم الجزيرة: جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهي ما بين دجلة والفرات، بها ثلاث كور:

- ديار ربيعة.
- ديار مضر.
- ديار بكر.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم،وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كورة بأسمائهم، ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً، لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم، وينتهي هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية..

4. إقليم الشام وبه ست كور:

- قنسرين. - حمص. - دمشق.
- الأردن. - فلسطين. - الشراة.

وهذا الإقليم دخله العرب قبل الإسلام، وملكوا به، وزاحموا من كان به من الأمم القديمة... ولما جاء الإسلام، كان مهداً عظيماً من مهود الحضارة العربية الإسلامية، ولغة أهله عربية....

وبهذا الإقليم: بيت المقدس، وهو ثالث المساجد المقدسة، بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكًا على بني إسرائيل، ويعظمه جميع الأديان السماوية..

5. إقليم مصر، وبه سبع كور على حسب التقويم القديم:

- الجفار. - الحوف. - الريف.
- إسكندرية. - مقدونيا. - الصعيد.
- الواحات.

وأمة هذا الإقليم كانت في القديم مصرية قبطية، ساكنها كثير من الأمم التي ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم، وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها..

وعندما جاء الإسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين، فأقاموا في مدنها الكبرى، ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس في عهد الدولة الأموية، وأقامت بالحوف (الشرقية)، ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة، بالمصريين تمام الاختلاط، فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربي والدين الإسلامي وذلك بعد تملك الدولة العباسية..

أما أول عهدها: فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطًا لا يزالون على دينهم..

6. **إقليم المغرب، وهو سبع كور:**

- برقة.. - إفريقية. - تاهرت.

- الجماسة. - فاس (السوس الأدنى) .

- السوس الأقصى. - الأندلس.

وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الإسلام البربر، وساكنهم فيه كثير من الرومان والويز الذين ملكوا المغرب قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر، إلا أنهم لم يكثروهم لقتلهم، ولم يكثر العنصر العربي بها إلا بعد ذلك في منتصف القرن الخامس، فأمة هذا الإقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية، واللسان الغالب هو اللسان البربري..

7. **إقليم المشرق، وهو إقليم ذو جانبين:**

- في الشرق، ويسمى جيحون أو أموداريا، ويسمى بما وراء النهر أو هيطل.
- في الغرب، وهو ما كان غربي جيحون ويسمى خراسان.

أولاً: ما وراء النهر: قال البشاري: "هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً وفقهاً وعمرة، ورغبة في العلم، واستقامة في الدين، وأشد بأساً، وأغلظ معروفًا وضيافةً وتعظيمًا لمن يفهم..."

- وبهذا القسم ست كور:

ـ فرغانة.	ـ أسبيجاب.	ـ الشاش.
ـ أشروسنة.	ـ الصغد.	ـ بخارى

ثانيا: خراسان، وبها تسع كور:

ـ بلخ.	ـ غزنين.	ـ بست.
ـ سجستان.	ـ هراة.	ـ جوزجانان.
ـ مرو الشاهجان.ـ نيسابور.		ـ قهستان.

وهذا الإقليم من أعمر الأقاليم الإسلامية، وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها، ومعظمهم كان شيعة لهم، أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين، وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا في عهد الدولة الأموية، وقد كثرت فتوحاتهم فيما وراء النهر في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي العامل من قبل الحجاج بن

يوسف ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتي بعد من الأقاليم الفارسية، ولكن الدين الإسلامي شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة، عمّها العلم ـ ولا سيما الديني ـ ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء في العلوم كافة.

8. **إقليم الديلم، وبه خمس كور:**

- قومس.
- جرجان.
- طبرستان.
- الديلمان.
- الخزر.

وهذا الإقليم لم يفشُ الإسلام به إلا في عهد الدولة العباسية، ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية..

9. **إقليم الرحاب، وهو ثلاث كور:**

- أران.
- أرمينية.
- أذربيجان.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة، فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم، ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا في عهد الدولة العباسية، واللغة العربية به قليلة

10. **إقليم الجبال وبه ثلاث كور:**

- الري.
- همذان.
- أصفهان.

11. إقليم خوزستان، ويعرف بالأهواز وبه سبع كور، وهي:

- السوس، وهي تتاخم العراق والجبال.
- جنديسابور.
- تستر.
- عسكر مكرم.
- الأهواز.
- الدورق.
- رامهرمز.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزي..

12. إقليم فارس وبه ست كور:

- أرجان.
- أردشيرخرة.
- درابجراد.
- شيراز.
- سابور.

ـ أصطخر.

ويهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها..

13. إقليم كرمان، وبه خمس كور:

ـ بردسير.

ـ نرماسير.

ـ السيرجان.

ـ بم.

ـ جيرفت.

14. إقليم السند وبه خمس كور:

ـ مكران.

ـ طوران.

ـ السند.

ـ ويهند.

ـ قنوج.

فهذه أربعة عشر إقليماً منها ستة عربية وثمانية أعجمية، والمراد بكونها عربية: تغلب اللسان العربي على أهلها، وإلا فأصل إقليم العرب هو جزيرتهم فحسب..

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبي منها جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقي عن مصروفها، وذلك شيء عظيم... هذا هو الملك الطويل العريض الذي ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان، وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التي بيناها، بل كان بعض الأقاليم فيه الواليان والثلاثة، وبعضها قد يضم إلى إقليم آخر حسب الأحوال.

الأحداث المعقدة والمتشابكة في التاريخ العباسي:

في الواقع إن أحداث تاريخ دولة الخلافة العباسية معقدة، ومتشعبة ومتشابكة، وذات تكوينات سياسية متعددة، وقد شكلت دولة إسلامية مترامية الأطراف، تُعَدُّ امتدادًا لدولة الخلافة الأموية، تفاعلت عليها عناصر متعددة عربية وفارسية وتركية، وشهدت بنى اجتماعية وعنصرية متباينة، وتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية مهمة، حددت مسيرتها ونهجها، وظل العامل الأبرز في صنع هذه الأحداث والتفاعلات العقيدة الإسلامية بفعل تأثيرها الجذري في المجتمع الإسلامي.

وترجع هذه الأحداث المعقدة والمتشابكة إلى:

ـ العرقيات المؤثرة سواء عربية أو تركية أو فارسية بالإضافة إلى عرقيات أخرى..

(ب) المذاهب المختلفة سواء سنية أو شيعية، والشيعة مذاهب كثيرة متنوعة، وأحيانًا كان هناك خلاف بين المذاهب السنية..

أولاً: العرقيات المؤثرة:

بعد أن توقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العصر الأموي، انصرف الناس إلى الصراع الداخلي، حتى إذا نهض العباسيون بالأمر، واستقر لهم وخلد الناس إلى الراحة قليلاً استغل هذا الوضع كل من كان يخفي في نفسه شيئًا، وكان معظم هؤلاء المستغلين من المجوس حيث أظهروا التشيع وساروا مع أبناء جلدتهم من المسلمين الفرس وراء العباسيين حتى إذا نهضوا بالحكم تسلم بعض الفرس سلطات واسعة، فاستفاد المستغلون من العصبية، وعملوا على تهديم الإسلام، وظهرت بينهم حركات سنباذ والمسيلمة والراوندية والمقنعية والبابكية، بل وأصابع الاتهام تشير إلى داعية بني العباس الأول، أبي مسلم الخرساني، إذ نسبت بعض هذه الفرق نفسها له، أو طالبت بدمه، وإن كان هذا يبدو استغلالاً وإفادة من وضعه، ومن هنا بدأت العصبية تبزغ بقرونه...

وكانت أرجاء الدولة الإسلامية متسعة وعدد السكان كبيراً وخاصة في العاصمة، وقواعد الولايات، التي تضم أشتاتًا من الناس، وهذا يستدعي جنداً كثيراً يوطِّد أركان السلطة، ويحفظ الأمن، ولما كان أهل البلاد يعيشون في حالة من الرخاء والرفاه فهم بعيدون عن حياة الجندية، وما دامت الفتوح الإسلامية قد توقفت، ولم يعد الجهاد على نطاق واسع كما كان، وإنما في أوقات محددة تقضيه الظروف ولهذا فإن السكان لا يرون ضرورة للانخراط في الحياة العسكرية، وكان الخليفة عندها مضطرًا لاستقدام جنود من مناطق لا تزال غير مترفة بعد، أو قد دانت بالإسلام منذ وقت قصير، أو يأتي بالأسرى والمماليك وينشئهم تنشئة عسكرية بعد أن يدخلوا في الإسلام، وقد جيء بجند من الترك، وترقوا في الرتب حتى غدوا قادة ثم أصبح الأمر

بيدهم يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعينون من أرادوا فضعفت هيبة الخلافة، وانخفضت مهابة السلطة.

وقد تأثرت دولة الخلافة العباسية بذلك الصراع على النفوذ بين العرب والفرس والترك، وقوى نفوذ الفرس بفعل عدم قدرة الخلفاء المحافظة طويلاً على التوازن بين هذه الشعوب، فسيطروا على معظم المرافق، فكان منهم الوزراء والقادة المتسلطون بدءًا من عهد المنصور، حتى اضطر هارون الرشيد إلى نكبة وزرائه البرامكة، ثم رجحت كفتهم بعد انتصار المأمون على أخيه الأمين، وبلغ بنو سهل، وهم فرس، منزلة كبيرة في عهده، ورأى المعتصم أن يصطنع لنفسه عنصراً جديداً يعتمد عليه، فاتخذ من الأتراك بطانة وأداة، ووزراء، وقادة فقضى بذلك على النفوذ الفارسي.

وبوفاة الواثق في عام (232هـ/ 847 م) ينتهي العصر العباسي الأول... وفقدت دولة الخلافة العباسية فعاليتها في العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ في نفس العام، وذلك نتيجة لضعف لهيئة الحاكمة، مما أدى إلى إضعاف السلطة المركزية للدولة سياسياً وإدارياً ومالياً وبالتالي أخذت الولايات تنفصل عنها.. لكن المباديء التي نادت بها الثورة، ظلت تؤتي ثمارها على الرغم من ضعف الخلافة وانتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقامت في الأطراف دول انفصالية ودخلت شعوب جديدة في المجتمع الإسلامي، تمكنت من الوصول إلى الحكم، ووقع الخلفاء تحت نفوذهم، مما أدى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، فبرز الأتراك على الساحة السياسية وقد حملوا عبء إدارة الدولة وتوارى الخليفة في الظل..

وتحول مسار التاريخ السياسي، الذي لم يعد تأريخًا للخلافة، وإنما أضحت الشعوب الإسلامية هي التي تصنع هذا التاريخ وتوجهه، فقد برزت العنصريات في ظل شعار المساواة بروزًا للامركزية، ومن الطبيعي في هذا الوضع الشاذ، أن تتجه

جهود المؤرخين إلى تأريخ سياسات الشعوب الإسلامية كجماعات إقليمية تسعى إلى تنمية شخصيتها ومصالحها، وتقوية قبضتها على ما تسيطر عليه، بدلاً من الاتجاه إلى تأريخ أعمال الخلفاء.

وتلاشت في هذا العصر، فكرة جمع العالم الإسلامي تحت قيادة سياسة واحدة، وتأرجحت علاقات الخلافة مع الدول الإقليمية بين العداء السافر حينًا والتعاون المثمر أحيانًا أخرى..

وشكل العصر العباسي الثالث الذي ابتدأ في عام (334هـ/ 945م) ردَّه فعل مناهضة للنفوذ التركي الذي سيطر على مقدرات الخلافة في العصر العباسي الثاني، ومثل حركة فارسية ـ شيعية تزعمها بنو بويه الذين أسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان والري وأصفهان وهمذان، وتمكنوا من فرض هيمنتهم الفعلية وبسط سلطتهم على العراق حتى عظم نفوذ هذه الأسرة وسمي باسمها العصر العباسي الثالث..

وقد حافظ البويهيون بعد تردد، على منصب الخلافة، لكنهم سيطروا على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، واستمرت مظاهر ضعف الخلفاء، وفقدان هيبتهم مسيطرة طيلة هذا العصر..

وشكل العصر العباسي الرابع، الذي ابتدأ في عام (447هـ/ 1055م) ردَّه فعل مناهضة للنفوذ الشيعي، ويتشابه هذا العصر مع العصر السابق من حيث تركيز السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين، على المشرق الإسلامي فبسطوا هيمنة فعلية على مقدرات الخلافة مع احترام شخص الخليفة ومركز الخلافة، ويختلفان من حيث المذهب الديني بفعل اعتناق السلاجقة المذهب السني الذي يعتبر الخليفة العباسي رئيسه الروحي.

وتأرجحت علاقة الخلافة بهؤلاء السلاجقة بين التعاون المثمر والعداء السافر، خاصة في فترة تفكك وحدة السلاجقة، فمال الخلفاء إلى الانعتاق من الطوق السلجوقي، لكن الخلافة رأت نفسها عاجزة عن وضع حد للاضطرابات الناجمة عن تنازع الأسرة السلجوقية مما دفعها إلى الاستعانة بالخوارزميين للقضاء على السلاجقة، وأوقعها ذلك في نزاع مع القادمين الجدد أيضًا بفعل طمعهم في الهيمنة على اختصاصاتها.

وحتى تتخلص من سيطرة الخوارزميين عمدت الخلافة إلى الاستعانة بعنصر جديد هو العنصر المغولي الذي تميز بقسوته ووحشيته وقد سقطت تحت ضرباته الموجعة في عام (656هـ/ 1258م).

ثانياً: المذاهب المختلفة:

كان لتعدد المذاهب واختلاف الفرق أثر سيئ وخطير على الإسلام والمسلمين، فالإسلام الموسوم بالسماحة، الداعي إلى السلام قد تخضبت أيدي أبنائه بدماء بعض نتيجة للخلافات المذهبية، وضيق الأفق الذي حَلَّ بهؤلاء المتعصبين لمذاهبهم، وانتهى الأمر في كثير من الأحيان ـ ولفترات طويلة من الزمان ـ إلى القتال الدامي الذي ترك رواسب كثيرة في نفوس المسلمين من أبناء الطوائف المختلفة..

وقد بدأت دماء المسلمين تسيل أول الأمر على يد الخوارج، الذين رأوا أن الإسلام لا يتم إلا بالجهاد وقتل باقي المسلمين ممن لا يعتنقون مذهبهم، ومن بعد الخوارج قام القرامطة الذين قضوا مضجع العالم الإسلامي، وحل شرهم في كل بلد، وأسالوا الدماء في كل صعيد وواد..

هذه الآلاف من أرواح المسلمين التي أزهقت بسيوف الخوارج والقرامطة لم يكن سبب إزهاقها إلا الأفق الضيق والتعصب الأعمى، والإسلام من كل ذلك براء..

ومع عجلة الزمان أخذ الخطر ينتشر من مكامنه وأخذ الصراع بين المذاهب المختلفة ـ بخاصة الشيعة والسنة ـ يحتال مكاناً ظاهراً في حياة المسلمين، والغلبة للقوى صاحب السلطان من الطرفين، وهكذا نجد الشيعة حينًا معتدين غالبين، ثم ينتقل الأمر لم يكن مقصوراً على معسكري الشيعة والسنة بل كثيرًا ما وقع الخلاف بين أحزاب السنة أنفسهم..

وإذا ما تتبعنا المصادمات والخلافات التي وقعت بين الشيعة والسنة، سواء أكان المعتدون هؤلاء أم أولئك، فإننا سنجد صفحات دامية سوداء لوثت أفق الحياة الإسلامية لبضعة قرون من الزمان..

فرجل فاضل مثل أبي عبد الرحمن النسائي ـ وكان متشيعاً ـ يُسأل في دمشق عن معاوية رضي الله عنه وفضائله فيرد رداً به مساس بالخليفة الأموي، فإذا بالناس يدفعونه ويخرجونه من المسجد، ويدوسونه حتى يموت بسبب ذلك..

وينشب في مصر في يوم عاشوراء سنة 350هـ خلاف بين الجنود السنة من أتراك وسوادنيين من جانب، والشيعة من جانب آخر، ويسير الجنود في الشوارع يسألون من يجدونه في الطريق: من خالك؟! فإذا لم يقل: معاوية يلقي من الضرب والأذى ما لا طاقة له به...

وتقع فتن دامية أعوام 408هـ 444هـ 445هـ 449هـ ويجري قتال رهيب بين كل من الشيعة والسنة وتسيل الدماء أنهاراً، وتخرج نساء الشيعة ناشرات شعورهن حزنًا على من ماتوا من أزواجهن، ويلهبن عواطف العامة، فيشتد الأمر، وتشتعل الحرائق إلى أن تأتي على الأخضر واليابس لغير ما سبب إلا أن فريقًا من المسلمين يخالف فريقًا آخر في الرأي..

وفي مصر نقرأ في أحداث سنة 353هـ أن أحد كبار الشيعة يحبس لغير سبب فيموت في الحبس، فيحمل إلى قبره، ولكن يأبى التعصب الكريه أن يترك جثة الرجل تمر في أمان، بل يلتحم الجند بأصحاب الشيخ، وتقع بين الفريقين معارك دامية..

على أن بعض الشيعة أنفسهم كانوا مسئولين عما يصيبهم من الأذى في بعض الأحيان لإظهار تعصبهم ضد الصحابة الكرام، ولعنهم جهاراً، الأمر الذي كان يثير عليهم جمهور المسلمين، ففي أحداث سنة 345 هـ قامت فتنة كبيرة في أصبهان ـ وكان سكانها سنيين ـ لأن رجلاً من أهالي قم ـ وهم شيعة غلاة ـ قد سبَّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوقع كثيرٌ من القتلى، ونهبت أموال التجار من أهل قُم.

ويقال إن "قُم" هذه كان يسكنها قوم من الغلاة هم "الغرابية" ومذهبهم أن المال كله للبنت، فلم ولى أمرهم قاض حكم للبنت بالنصف فهددوه دون قتل، وإنما يحكمون للبنت بكل المال تكريمًا للسيدة فاطمة الزهراء..

على أن الشيعة لم يكونوا المعتدى عليهم بصفة دائمة فكثيرًا ما كانوا المعتدين، خصوصاً إذا كانت الأمور في يد دولة شيعية كالبويهيين أو الفاطميين، أو حيث يكثر تجمعهم فلم يكن إنسان يستطيع أن يذكر الصحابة بالخير في بعض الأزمنة في الكوفة، لأن مصيره يكون القتل السريع، ولذلك قيل: من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة وليقل: رحم الله عثمان..

وكان في القيروان قاضٍ سنيٌّ اسمه أبو سعيد، فاستدعاه داعي الدعاة الفاطمي وطلب إليه أن يعتنق المذهب الشيعي فرفض القاضي قائلاً: لو نشرتني إلى اثنين ما فارقت مذهب مالك، فأمر به داعي الدعاة فقطع لسانه..

وكان البويهيين لتعصبهم للتشيع يكرهون أهل السنة، وكثير ما أوقع معز الدولة البويهي الأذى بالخلفاء من قتل أو سمل عيونهم لا لشئ إلا أنهم سنيون...

على أن أكثر ما حل بأهل السنة، من أذى كان على يد الشيعة من الفاطميين، فقد ضرب رجل من مصر وطيف به القاهرة لأنهم وجدوا عنده الموطأ للإمام مالك، وأمر الحاكم بأمر الله نائبه بدمشق بعقاب رجل مغربي ضرب وطيف به على حماره ونودي هذا جزاء من أحب أبا بكر وعمر، وبعد انتهاء الطواف ضربت عنقه..

وقد بالغ الفاطميون في إيذاء أهل السنة، فعزلوا كل السنيين من المناصب الحكومية، وحبسوا قاضي القضاة لأنه رفض أن يعترف بإمامة علي، وسبوا الصحابة والخلفاء الراشدين بكتابات منقوشة على جدران المساجد وفي الشوارع، ولعنوا أهل السنة على المنابر، إلى غير ذلك من أصناف الأذى التي أريق بسببها الدماء حينً، و حلّ الأذى والتحقير مكان الدماء حينًا آخر...

ولم يقف أمر الخلاف الدامي بين المسلمين على السنة والشيعة وحدهم، بل إنه جرى بين المعتزلة بمساعده بعض أهل السنة ممن رفضوا القول بخلق القرآن...

ولعل أياديَ خفية كانت حريصة على إذكاء نار الفتنة بين المسلمين حتى بين أبناء الطائفة الواحدة، فقد جرت خلافات ومصادمات بين أهل السنة أنفسهم، ولقد كان الحنابلة (أنصار أحمد بن حنبل) على رأس المعتدين دائمًا، واشتهروا بالعنف في معاملة خصومهم من أبناء المذهب الشافعي، فقد ثاروا عليهم، وألحقوا بهم الاعتداء وأرادوا أن يجعلوا لأنفسهم مركزاً حصيناً ينقضون منه على خصومهم، فبنوا مسجداً في بغداد جعلوا منه وكراً للمشاغبة، واستعانوا بفريق من العميان مسلحين بالهروات كانوا يطلقونهم على الشوافع فيوسعونهم ضربًا حتى شارفوا على الموت..

وبلغ الأمر بالحنابلة وعنف خصومتهم أن منعوا دفن ابن جرير الطبري، فاضطر أصحابه أن يدفنوه في داره ليلاً، فقد استعانوا بالعامة في ذلك، لا لشئ إلا أن الطبري لم يعترف بابن حنبل كفقيه واعتبره محدثًا ليس غير.

3) الدول الانفصالية الكبرى:

طال عهد العباسيين (132 ـ 656هـ) فوصل إلى ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، وضعفت أيامهم في آخرها إذ زاد ظهور العصبيات فقامت دول على أساسها، ولم يكن ثمة داعٍ لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من جديد؛ فظهرت الدولة السامانية، والغزنوية، والخوارزمية، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساساً في نشأتها، ثم نما باسم العصبية لداومه، ودعم الشعب لها..

كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسمياً، وأعلنت عن قيام خلافة مستقلة فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدول الإسلامية على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معاديةً بعضها لبعض، وكل منها على صلة بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم الأمويين في الأندلس، هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفة واحد، والمسلمون جميعًا تضمهم دولة واحدة، وهذا يدل على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل في الصدر الأول.

ظهور المدارس الفكرية المختلفة والمتباينة:

نتيجة الترجمة، واختلاط المسلمين ببيئات متنوعة، وثقافات مختلفة، نتجت تحليلات كثيرة مختلفة لنفس الحدث، مما أدى إلى بلبلة فكرية كبيرة فهذا يمدح في شخصية، وآخر يذم في نفس الشخصية، وهذا يصف رجلاً بالفكر المتنور المتحرر وآخر يصف نفس الرجل بالإلحاد والزندقة وهكذا..

فإذا نظرنا إلى أفكار المعتزلة بصفة عامة وجدناهم أكثر الفرق الإسلامية أخذًا بلباب الفلسفة اليونانية والانتفاع بها، فلا نكاد نقرأ لواحد من أئمتهم حتى نلمس ظلال الفلسفة اليونانية متمشية في جنبات أفكاره، لعل هذه الفلسفة كانت أوضح ما تكون عند أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، والجاحظ..

ومن أهم المسائل التي نادى بها المعتزلة "مسألة الاختيار" مما دفع كثير من المسلمين إلى مناصبتهم العداء، فنسبوا إليهم أنهم متأثرون فيها بمذهب زرادشت، وذهب البعض إلى تسميتهم "مجوس الأمة الإسلامية.."

وظهر على أيدي المعتزلة بعض القضايا الخطيرة مثل "قضية خلق القرآن"، وتبني بعض الخلفاء العباسيين هذه القضية وعملوا على نشرها بين الأمة الإسلامية أمثال الخليفة المأمون، والمعتصم، والواثق.

فلذلك نظر المعتزلة إلى هؤلاء الخلفاء باعتبارهم أصحاب فكر متنور ومتحرر، أما أهل السنة فقد وصفوهم بالإلحاد والزندقة..

5) تشويه التاريخ العباسي عن طريق:

- الشيعة (الطالبين)

- المستشرقين.

- المستغربين.

(أ)ـ الشيعة (الطالبيون)

لقد لعب الشيعة في تشويه تاريخ بني العباس الدور نفسه الذي لعبوه في تشويه صفحات بني أمية بالاشتراك مع العباسيين خصوم بني أمية السياسيين، وحكام العصر الذي دُوِّنَ فيه التاريخ، ذلك أن آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها انفرط عقد بني أمية قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبناء أبي طالب، وأزاحوهم من وجهم، بل ومن جانبهم...الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العباس، وينازعونهم الأمر، ويعملون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

ينظر المسلمون إلى آل البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة احترام وتقدير، وكان لهذه النظرة أثر كبير في الحياة السياسية عامة، وينحصر آل البيت في أبناء أبي طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا وهم: علي، وجعفر، وعقيل، رضي الله عنهم، وفي آل العباس عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي أسلم مع أخيه الحمزة رضي الله عنهما من بين أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حمزة سيد الشهداء لم يعقب، ولم يشمل آل البيت في أبناء أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبير، والحارث، وأبي لهب، حيث جاء الإسلام هؤلاء الأبناء متأخرًا، وربما انحصر آل البيت في أبناء علي رضي الله عنه، من زوجه فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث انقطع عقب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها، هذا إضافة إلى قرابة علي، وسابقته في الإسلام، وجهاده أعداء الله، وإصهاره لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى رأى بعض المسلمين في هذا سببًا في أحقيته بالخلافة، وأحقية أبنائه من بعده، رغم ما في هذا القول من مجانبة عن تعاليم الإسلام، لأن الخلافة ليست وراثية، وإنما لها شروط يفرضها الصلاح والتقوى والقوة في الحق، وتحق لأي مسلم تتوفر فيه الشروط...وعندما قامت الدعوة العباسية على 'الرضا من آل محمد' ظن أبناء علي رضي الله عنه أن لهم في الدعوة نصيباً، فلما

قام العباسيون بالأمر، واستأثروا بالحكم، وقف شيعة أبناء علي موقفًا معاديًا للعباسيين وقاموا يعملون ضدهم، فمن جانب ثاروا ضدهم، واستمرت حركاتهم، ومن جانب آخر اتهموهم بالظلم، ورموهم بالمفاسد، وأشاعوا الدعايات ضدهم، والسخرية منهم ومن تصرفاتهم، وبالمقابل فقد لاحق العباسيون خصومهم السياسيين من شيعة أبناء علي رضي الله عنه وشددوا عليهم، واضطهدوهم، ونكّلوا بزعماء ثوراتهم كي يلقوا بينهم الرعب، وأحيانًا حاولوا استرضاء بعضهم اتقاءً وخوفًا من حركاتهم، فتقوقع الشيعة على أنفسهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم؛ وجعلوا لأنفسهم عقيدة خاصة بهم اختلفت عن الإسلام إذ جعلوا لأئمتهم العصمة، وعَدُّوهم مخصصين من عند الله، ونسبوا لهم التأويل والمعرفة دون سواهم، وطعنوا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونسبوا هذا كله إلى أعلام المسلمين من آل البيت فدوّنوا كتبًا ونسبوها لسابقين مثل: نهج البلاغة الذي نُسِبَ لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أوجدوا فقهاً خاصاً ونسبوه لجعفر الصادق رحمه الله وهكذا..

وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصة الأقوياء منهم والصالحين أمثال: هارون الرشيد الذي كان قوياً، ولننظر إلى بعض هذه الافتراءات التي يبدو فيها الاختراع مباشرة، أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك قال:

لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشُغِفَ بها، فأرسل إلى أبي يوسف، فسأله: أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين أو كلما ادَّعت أَمَةٌ شيئًا ينبغي أن تصدق، لا تصدقها فإنها ليست مأمونة، قال ابن المبارك: فلم أدرِ ممن أعجب من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرج على حرم أبيه، أم بهذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيه! قال: اهتك حرمة أبيك، واقصد شهوك، وصيِّرْه في رقبتي، وذكروا أشياء عن الرشيد

وأبي نواس يندَي لها الجبين، وأبو نواس لم يَرَ الرشيد، ولم يدخل عليه، وذكروا أشياء أكثر من ذلك عن صلة أبي نواس بزوج الرشيد زبيدة بنت جعفر بن المنصور، فقالوا: إن أبا نواس دخل مرة قصر الخليفة فرأى الرشيد نائمًا مغطى فاستلقى فوقه، فرفع الرشيد رأسه ونهره، وقال: ما هذا يا أبا نواس؟ فقال: معذرة يا أمير المؤمنين فقط ظننتك السيدة زبيدة ـ والله

ويتهمون الأمين بكثرة شربه الخمر، ثم نراهم يصفونه بأنه أراد قتل أبي نواس عندما انتهى إليه أنه يشربها.. (10) إلى غير ذلك من هذه القصص المكذوبة التي ألفوها وملأوا بها كتب التاريخ..

فإذا كان الخلفاء بهذا اللهو المفرط، وهذا المجون الواسع فمن الذي كان يسوس أمور البلاد، ويذود عنها، ويرسل الجيوش، وينطلق أمامها أحياناً، وأحياناً أخرى ينطلق الأمراء من أبناء الخليفة، وإخوته وأبناء عمومته، والذين من المفروض حسب هذه الروايات أن يكونوا مثل إمامهم..

وإذا كان الخلفاء على هذه الصورة المدونة في التاريخ فمن الذي شاد هذه الحضارة لعظيمة التي نفتخر بها بين أمم الأرض، وهي في أعلى مستو مما شادته الأمم الأخرى.. أهكذا جاءت ودون تعب، ومن غير جهد، أم أقامها غير أسلافنا ثم نسبت إليهم..

حقيقة إن الذين شادوا حضارتنا رجال عظماء، ولكن التاريخ الذي دُوِّنَ بأيدٍ مغرضةٍ قد حَطَّ من شأنهم كثيراً..

وإن تواري كثيرٍ من الطالبيين واختفائهم قد سهل ادعاء كثير من الرجالات النسب الهاشمي، وبسبب حب المسلمين لآل البيت فإن كثيرًا من الطماعين في السلطة نسبوا أنفسهم لآل البيت حتى يلتف الناس حولهم ثم يقوموا بحركات ضد الدولة،

ومن هذه الحركات كانت فتنة الزنج، ودعوة العُبَيْدِيين الفاطميين وبعض القرامطة، والفرق الباطنية، حتى اختلط الأمر على كثير من المؤرخين.

(ب) مستشرقون:

اذا نظرنا في كتب المستشرقين التي تبحث في العصر العباسي الأول وجدناها تعطي أبشع صورة لذلك العصر، بل إن أغلب التشويه الذي نراه عند الباحثين العرب والمسلمين مقتبس عنهم، وما هو إلا ترديد ونشر ونقل لآراء المستشرقين الذين تتلمذوا لهم ولمصادرهم وكتبهم ومناهجهم، وصدقوا ما شاع من موضوعية المستشرقين..

قد دخل النقص والخطأ على تلك الدراسات الغربية من عدة وجوه منها:

أولاً: لاستجابة الناقصة للحادثة التاريخية وتفسيرها، وعن ذلك يحدثنا الأستاذ سيد قطب ويقرر على الإنسان الذي يريد فهم حادثة أو تفسيرها: أن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة، أو يستجيب لوقوعها في مداركه ولا يرفض شيئًا من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد، فأما إذا كان يتلقاها بادئ ذي بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس ـ عن عمد أو غير عمد ـ فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية، وذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص.. عنصر الروحية الغيبية وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية على وجه أخص وكلمات كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة.. هذا النقص يُعَدُّ عيبًا في منهج العمل التاريخي ذاته، وليس مجرد خطأ جزئي في تفسير حادثة أو تصوير حالة، ومن ثم

فالمنهج الأوروبي في البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة سواء كان ذلك ناشئًا عن الطبيعة الغربية ذاتها وملابسات حياتها البيئية التاريخية، أو ناشئًا عن تعمد المؤرخ الأوروبي تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين في الدراسة، هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية بل لتناول الحياة الشرقية على وجه العموم، ولكن عدم الصلاحية يتجلى في جانب الدراسات الإسلامية أوضح وأقوى...

ومن هنا ندرك الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ ريسلر عند تفسيره للفتوحات حيث يقول: "إذا كانت هذه الغزوات الحربية قد استجابت للغرائز العريقة في القدم لرجال تعودوا أن يقاتل بعضهم بعضً، وإذا كان هؤلاء الرجال قد كفوا عن القيام بهذه اللعبة على أرضهم الخاصة، فإن هذا يفسر لنا أسباب انتشار فتوحاتهم كما يبرر كذلك وفرة هجماتهم وعنفه...." وهذا ينافي واقع الفتوحات التي اشتهرت بسموها ورفعتها وغايتها النبيلة، فما انطلقت تلك الفتوحات إلا تنفيذاً لغرض الجهاد، وتوطيدًا للدعوة إلى الإسلام، وأما الاستجابة للغرائز، وتنفيذ الرغبات والشهوات فأمور حاربها الإسلام وأمر بكبح جماحها

ثانياً:

ومما أدخل النقص في الدراسات الغربية تلك النظرة إلى الأحداث والوقائع من زاوية رؤية معينة، صبغوا ولونوا بها تاريخنا وحضارتنا وعن ذلك يقول الأستاذ سيد قطب: "إنه لا يخفي أن كل امريء يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية، وكذلك الشأن في الأحداث والوقائع، والأوروبي بطبيعته، ميال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم، فهي نقطة الرصد في نظرة، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث ومن هنا تتخذ في نظره أشكالاً معينة ليس هومن يملك الجزم بأنها أصح الأشكال، وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها، وإذا كان بديهيًا أن أوروبا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ، وكان الأوربي لا يملك اليوم أن

يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر الى الماضي.. أدركنا مدى انحراف الزاوية التي ينظر بها الأوروبي للحياة الإسلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤية التي يُضطر إليها اضطراراً، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعينة.

فالأوروبي ـ مثلاً ـ ينظر إلى الفتاة المسلمة بنفس نظرته إلى الفتاة الأوروبية فيقول أحدهم عن تعليم البنات المسلمات: يقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قويمة، وعلى تعويدهن الصلاة وجعلهن في وقت مبكر صالحات للأعمال المنزلية، وبعد سنوات أيضاً، يعلمن قرض الشعر، والفنون الزخرفية والموسيقى والرقص في المدارس المخصصة لذوي اليسار في المجتمع الإسلامي، فكما أن الفتاة الأوروبية تتعلم الرقص والموسيقى ـ ولا يثلب ذلك فيها ـ فكذلك الفتاة المسلمة في نظره بالرغم من الخلاف الكبير بين الحالتين :فالرقص والموسيقى محرمان في الإسلام ويثلبان في شرف الفتاة المسلمة...

ثالثاً: التعمد في تشويه الأخبار، وافتعال الأكاذيب، ووضع الافتراءات ومسخ التاريخ والحضارة الإسلامية مسخاً، وهذا التعمد بسبب العداء الموجود بين الصليبية والإسلام، والصراع بين الاستعماروالشرق، وبسبب نوايا الاستعمار الخبيثة، ولأن هذه الطريقة في الدراسة ترسخ في أذهان الجيل المعاصر أنه ليس له أمجاد، وليس له تاريخ مشرف، وأنها تساعد على نشأة جيل لا يكن لأمته سوى البغض والاحتقار، ولا شك أن مثل هذا الجيل يملك الاستعداد التام لتغريب شخصيته.

وهذا ما حصل فعلاً لأننا نحن الأمة الإسلامية إنما ننظر الآن إلى أنفسنا وإلى سوانا بعدسة صنعتها أيد أجنبية عنا، أجنبية عن عقيدتنا وتاريخنا، أجنبية عن مشاعرنا وإدراكنا، أجنبية عن فهمنا للأمور وإحساسنا بالحياة وتقديرنا للأشياء ثم هي بعد ذلك كله ـ مغرضة في الغالب ـ تبغي لنا الشر لا الخير؛ لأن مطامحها ومطامعها ومصالحها الخاصة وأهدافها القومية كلها تدفع بها دفعاً لأن تبغي لنا الشر؛ لأن خيرنا لا يتفق مع خيره، ولأن مصالحنا تعطل مصالحها.

ولذا فقد أصبحنا ندرس في مدارسنا ومعاهدنا على وجه الخصوص تاريخاً إسلامياً مشوهاً وتاريخاً أوروبياً مضخماً، لا عن مجرد خطأ غير مقصود، ولكن عن نية مبيتة من الاستعمار الغربي الذي يهمه ألا نجد في تاريخنا ما نعتز به، وأن نرى أوروبا على العكس هي صاحبة الدور الأول في التاريخ الإنساني فإذا يئسنا من ماضينا واستعرضنا دورنا في الحياة البشرية، وامتلأت نفوسنا مع ذلك إعجاباً بالدور الذي قامت به أوروبا، وإكباراً للرجل الأبيض.. سَهُلَ قيادتنا على الاستعمار.. وذلت رقابنا للمستعمرين.

وما أكثر الحوادث المفتعلة، والحقائق المزيفة، والأخبار الكاذبة الموضوعة التي نجدها في كتب المستشرقين التي لا تحصى، والأمثلة على ذلك كثيرة فعلى سبيل المثال ما كتبه "جاك. س. ريسلر" في كتابه "الحضارة العربية" تحت عنوان "البغاء" حيث يقول: "الدين من حيث المبدأ يحرم البغاء، لكن الدولة كانت تأذن به وتنظر إليه على أنه مصدر للدخل"...

فهو لم يُشِرْ إلى المصدر الذي أخذ عنه هذا الخبر، وهذا يثبت الوضع والدس لأنه كان يتكلم عن الدولة الإسلامية في القرون الأولى، وحالها معلوم، ولم يقل أحد بوجود مثل هذا، بل إن الحدود بقيت مطبقة إلى قرننا الحاضر، فكيف تبيح تلك الدولة البغاء بالحجة الواهية التي ذكرها ومع الأسف الشديد وبالرغم من كل هذا يقول المترجم في تقديمه الكتاب: "ولا ريب أن المؤلف قد أنصف الحضارة العربية وأبرز مكانتها ودروها الكبير في تاريخ الإنسانية، وكيف تأثرت شتى الحضارات بها؛ نظراً لأصالتها وعمقها وشموله، وسعة آفاقها الرحبة وذلك كله بطريقة موضوعية، وتحليل دقيق، وتركيز رائع على الجوانب المضيئة فيها"...

وهكذا نرى البلاء الذي حل بأهل الإسلام متمثلاً في الاقتداء بالغربيين والثقة المتناهية بهم، ومدحهم وإطرائهم حتى في المواطن التي يستحقون فيها كل الذم.

(ج) المستغربون:

المستغربون هم أحد عناصر الهدم والتشويه في التاريخ الإسلامي، فقد كان الاستعمار حريصًا على طمس معالم التاريخ الإسلامي بتشويه صفحاته، ومحو الصورة لناصعة من أذهان المسلمين..

فالجامعات الأوروبية وجهت تيار السياسة إلى خدمة الرغبات الاستعمارية، ثم انتقلت العدوى الفكرية إلى البلاد الإسلامية عن طريق المبعوثين الشرقيين إلى جامعات أوروبا، وصارت البرامج التعليمية وسيلة لإبعاد الشباب الإسلامي عن تاريخه وماضيه، وستاراً سميكًا على كل ما يرفع من شأن الإسلام، سواء في رجاله أو في تعاليمه..

ثم دعموا أساليبهم الاستعمارية الموصلة إلى أهدافهم، فلجأ العلماء المستشرقون إلى تحريف الحقائق، وتزييف الوقائع الإسلامية وانتهزوا فرصة إقبال الشباب الإسلامي على مُؤَلَّفاتهم وجامعاتهم فسمموا أفكارهم، وهونوا عليهم عزة دينهم، وطعنوا في الإسلام ورجالاته وصوروهم لهؤلاء الطلاب في صورة تافهة.

وما زالوا بكثير منهم، حتى انخدع بما سُمَّ، وآمن بما قرأ، فكانوا أبواقًا تنعق بما سمعت من خصوم دينهم ووطنهم، وأسندت إليهم مراكز التوجيه العلمي في دور التعليم الإسلامي، فنشروا السموم التي شربوها هناك من أوروبا، واستهانوا بأمجاد أسلافهم العرب، وحفظوا لكل شخصية مثالية ما يحط من قدرها،ويسقطها في نظر كل دارس لها.

وأخذ كُتَّابهم ـ وصنائعُ الاستعمار الذين تخرجوا في مدارسهم وجامعاتهم ينشرون ويكتبون ما انطوت عليه صدورهم من الحقد على هذا الإسلام وأصحابه.

وهكذا يعاني الإسلام من خصومه إلى الآن، أساليب جديدة تمليها الكراهية، ويدفع إليها الخوف من أن يصبح الإسلام قوة تعيد أيامه الأولى، فلا تستطيع قوة في الأرض أن تقف في سبيله.

الشيعة والسلطة:

لقد استغل كل طامح للسلطة حب آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصة فأظهر التشيع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك؛ لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكًا فيه كل بعد عن الإسلام، وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية والإسماعيلية والحمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية) ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية (الاثنا عشرية) التي بدأت تصوغ أفكارًا لها، وتبلورها، ثم تنسبها للعصور التي خلت، وللرجال الذين مضوا، وما هم كذلك، واختلط الأمر على المؤرِّخين المحدَثين، وظنوا أن هذه الأفكار قد نشأت منذ صدر الإسلام، وحمّلوها عظماء رجال ذلك العهد أمثال علي زين العابدين بن الحسين وابنه زيد وحفيده جعفر الصادق، وشاع ذلك، وما جاء القرن الرابع الهجري إلا ومُدَّعُو التشيع يسيطرون على أكثر أرجاء الدولة الإسلامية ولم يعملوا على وحدة صفوفهم؛ ذلك لأنهم لم يكونوا فرقة واحدة، ولم يحملوا فكرًا واحدًا، بل ولا هدفًا واحدًا، وإنما لكل إمارة أو دولة رقعة من الأرض تحكمها، الأمر الذي يدل على أنهم رجال طامعون، وأصحاب مصالح وغايات اتخذوا من التشيع وسيلة لهم للسيطرة على الحكم،وتحقيق أغراضهم من وراء ذلك؛ فقد سيطر القرامطة على الجزيرة العربية كلها باستثناء منطقة عسير، ووصلوا إلى الشام، وطرقوا أبواب مصر، وحكم الفاطميون شمالي إفريقية، ثم أخضعوا مصر وجعلوها قاعدة ملكهم، وأخضع الحمدانيون شمالي بلاد الشام، وسيطر البويهيون على الدولة العباسية، ومع ادعائهم جميعًا للشيعة إلا أن دولهم بقيت متفرقة، بل كثيراً ما اقتتلت وتناحرت، فقد وقف الفاطميون في وجه القرامطة، وصدُّوهم عن مصر، وقاتل البويهيون الحمدانيين.

حركة الزنج: (255 ـ 270هـ/ 869 ـ 883م

ـ طبيعة الحركة وأهدافها:

قامت حركة الزنج في عام 255 هـ، وأنهكت دولة الخلافة العباسية قبل أن تقضي عليها، وكان عماد هذه الحركة في باديء الأمر بعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة: الزنج، أهل القرى، العرب الضعفاء، عشائر عربية ثائرة على السلطة.

أما فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع، فهو علي بن محمد الفارسي الأصل، وهو شخصية محيرة فعلاً حيث يلاقي الباحث صعوبات جمة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التي كان يمر بها، واتصف بأنه رجل طموح وموهوب.

ويبدو أن حياته كانت غير طبيعية فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه، فسلك نهجاً جديداً، وظهر كقائد ديني ومتنبيء، فادعى نسباً علوياً (16) محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحلَّه أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جُبي له الخراج.

ويبدو أن جماعة كثيرة العدد في البحرين قد تنكرت له، مما دفعه إلى مغادرتها إلى البادية ليستقطب الأعراب، وادعى فيها النسب الشيعي على أنه يحيى بن عمر أبو الحسين، فالتف حوله بعض الأعراب استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين، إلا أنه هزم وفر إلى البصرة.

ووقف أثناء إقامته القصيرة فيها على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية حيث كان المجتمع البصري منقسماً على نفسه، فحاول أن يستغل هذه الخلافات لصالحه إلا أنه فشل، وفي الوقت نفسه رأى في حياة العبيد فيها الذين يعملون في المستنقعات المجاورة فرصة لتحقيق طموحاته لكنه طُرِدَ منها فذهب إلى بغداد، وفي بغداد استنبط نسباً علوياً جديداً فانتسب إلى أحمد بن عيسى بن زيد، ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة، ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع، فعاد إلى البصرة في عام 255هـ ليتزعم حركة ثورية مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس كما ادعى العلم بالغيب، وانتحل النبوة.

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية؛ فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدية، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون في ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها، وركز كثيرًا على عراقة أصله وكتبها على نقوده وسمي نفسه "المهدي علي بن محمد" المنقذ..

وجهر علي بن محمد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج الذين يلائم مبدأهم ميل أصحابه الشورية، فحارب من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة، وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر وهما لون العلويين ولون الخوارج.

لقد تعارضت أفكار علي بن محمد عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها التي تؤكد على الوراثة، وتبنى رأي الخوارج القائم على الشورى، مما نفَّر منه الأعراب البسطاء، وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها، كما رفض قرمط أن يرتبط معه بعوامل دينية، أما شدته وقسوته تجاه أعدائه فقد جعلته خارجياً متطرفاً، يُضَاف إلى ذلك أنه عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاك للعبيد.

والواضح أن هذا التناقض في عقيدة الحركة يفرغها من أي صبغة عقائدية، ويجعلها حركة مسلحة ضد النظام ليس إلا، كما يجعل من قائدها رجلاً مغامراً طموحاً إلى السلطة..

دوافع الاستجابة لهذه الحركة:

تعددت دوافع الاستجابة لهذه الحركة ما بين سياسية، واقتصادية واجتماعية:

الدوافع السياسية:

بسبب تردي أوضاع الخلافة، نتيجة تصاعد نفوذ الأتراك إلى جانب صراع خفي بين المترفين والعبيد وجد متنفساً له في دعوة علي بن محمد.

الدوافع الاقتصادية:

نتيجة الأوضاع المالية المتدهورة وظاهرة التكوين الطبقي داخل المجتمع الإسلامي من طبقة ثرية إلى طبقة تجار فالطبقة العامة العاملة.

واتسعت الهوة مع مرور الزمن بين هؤلاء وبين الطبقة الإقطاعية، وبلغ التناقض الاجتماعي مداه، مما كان دافعاً للاستجابة لنداء الثورة الذي أطلقه علي بن محمد..

الدوافع الاجتماعية:

بفعل نمط حياة فئات العبيد التي كانت تعيش في ظروف قاسية وسيئة من خلال عملها في تجفيف المستنقعات وإزالة السباخ (18) عن الأراضي، ثم نقل الملح إلى حيث يعرض ويباع، لقاء وجبة طعام، فأرادت هذه الفئات التخلص من هذا العمل الشاق ومن ضنك العيش.

وقد سيطر علي بن محمد خلال عشرة أعوام (255 ـ 265هـ) على رقعة واسعة تمتد بين الأهواز وواسط، وهدد بغداد، عندئذ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة بمحاربته؛ فاصطدم بمجموع الزنج وقتل علي بن محمد، واستسلم من بقى من أتباعه.

وبإخماد الثورة، أُسْدِلَ الستار على هذه الحركة التي قضَّت مضاجع الخلافة لعباسية، وكلفتها الكثير من الجهد والأموال والأرواح والتي دامت أكثر من أربعة عشر عاماً (255ـ 270هـ).

19) حركة الزنج في الميزان:

لقد انطلقت حركة الزنج من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي بين مستنقعات البصرة وسهولها، وكانت بدايتها ناجحة انسجمت فيها أهدافها مع أفعالها لكن النزعة الفوضوية التي طبعتها وهي في قمة مواجهتها أدت إلى تقلص أبعادها الاجتماعية، وقد زاد من تلك النزعة افتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع، كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير.

ومن جهة ثانية فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها مهلة لتنظيم صفوف قواته،وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة لذلك كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري مما

دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتت استطاعت أن تكون إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد.

الزيدية:

حفل العصر العباسي بكثير من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر بعيد في تاريخ هذا العصر، والعصور اللاحقة، فقد قام الشيعة بحركات تمخض عنها انفصال كثير من أجزاء الدولة، وانتشار المبادئ الشيعية، خاصة الإسماعيلية والقرامطة، وتكللت جهود الإسماعيلية بقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب إلى جانب قيام الدولة العلوية الزيدية في طبرستان.

والواقع أن عهد المتوكل تميز بالتضييق على الشيعة عامة، وقد تأثر هذا الخليفة بآراء وزيره عبيد الله بن خاقان الذي اشتهر بكراهيته لهذه الفئة.

وقام الزيدية في عهد المستعين بعدة حركات ضد السلطة المركزية لعل أبرزها خروج يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد في الكوفة ويبدو أن لخروجه علاقة مباشرة بتحسين أوضاعه المادية.

وجمع يحيى حوله عدداً من الأعراب وجماعة من سكان الكوفة ودخل هذه المدينة بعد أن هاجمها ودعا فيها إلى الرضا من آل محمد لكن حركته لم يكتب لها النجاح، إذا اصطدم به القائد العباسي الحسين بن إسماعيل بن إبراهيم بن مصعب، وتغلب عليه، وقُتِلَ يحيى في المعركة.

أما الحركة الزيدية الأخرى التي تركت أثراً فكانت خروج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل في نواحي طبرستان عام (250هـ/ 846م) وكان سوء تصرف الولاة العباسيين في تلك المنطقة، السبب الأبرز لخروجه، مما دفع السكان إلى الارتماء

في أحضان الطالبيين، وبايعوه كما بايعه رؤساء الديلم، ولقب نفسه "داعي الخلق إلى الحق" أو "الداعي الكبير" وتمكن خلال ثلاثة أعوام من الاستيلاء على جميع طبرستان وقسماً مهماً من الديلم والري، وأخذ الطالبيون يتقاطرون عليه من الحجاز والشام والعراق، بعد أن ذاع صيته واشتدت شوكته..

الإسماعيلية:

في الوقت الذي كانت حركة الزنج تُحْتَضَر ظهرت دعوة الإسماعيلية التي يعود تاريخ حضورها على المسرح السياسي إلى أواخر عهد الدولة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق، وبعد وفاته انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي في كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام: وهما الإمامية الموسوية، وقد أُطلق عليها فيما بعد:الاثنا عشرية، اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين اعتقدوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة والده، فقد حول أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور، وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتميزهم عن الاثنى عشرية.

ومن أشهر نواب الأئمة الإسماعيلية الذين عملوا على نشر المذهب وترأسوا الدعوة ميمون القداح[22] الذي وضع أسس المذهب الإسماعيلي ممهدًا السبيل لابنه عبد الله الذي أقام في سلمية من أعمال حماة في بلاد الشام، وانتشر دعاته في المناطق المضطربة لاستغلال تذمر بعض قطاعات من الناس من الإدارة العباسية.

انتظمت الدعوة منذ الثلث الأخير من القرن التاسع الميلادي في بلاد اليمن والعراق، والراجح أن الدعوة إلى هذا المذهب ظهرت عقب وفاة الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الاثني عشرية في عام (260هـ/ 874م).

تعرض الإسماعيليون للاضطهاد على أيدي السلطة؛ فاضطروا إلى الاعتصام في مواطن نائية ومنيعة يصعب على العباسيين اقتحامها، كما نشروا دعوتهم سرًا، واجتهدوا لاستقطاب الأتباع منطلقين من سلمية إلى كافة البقاع الإسلامية، لكن ركون الحركة الإسماعيلية في تلك الفترة إلى العمل السري، لم يمنعها من ممارسة العمل السياسي، فقد كانت تترجم أفكارها السرية في مضايقة الدولة كلما سمحت لها الظروف..

القرامطة:

توجهت الدعوة الإسماعيلية إلى كافة طبقات المجتمع، لكن التجاوب كان متفاوتًا في حين وجد الفرس فيها أسلوبًا للتعبير عن كراهيتهم للعرب، وهكذا أصبحت الدعوة الإسماعيلية، حركة ثورية كبيرة، تضم اتجاهات مختلفة لعل أبرزها:

- **الاتجاه الاجتماعي:** لإقامة العدالة الاجتماعية..
- **الاتجاه الشيعي:** الذي شكلت المباديء الشيعية هدفه الأسمى.
- **الاتجاه العنصري الفارسي:** الذي أدرك مناصروه أهمية تحقيق المباديء المزدكية..

لكن جمعت هذه الاتجاهات غاية واحدة هي حُلْمُ الخلافة، وقد نتج عن اختلاف الأهداف استحالة اندماج الميول المتعددة بشكل كامل، وهذا يفسر لنا السبب في تطور مراحل هذه الدعوة التي اتخذت طابعاً مختلفاً أو حتى متناقضاً، فقد نشأت عن المذهب الإسماعيلي قوتان كبيرتان هددتا دولة الخلافة العباسية، إحداهما الحركة القرمطية التي ضايقت العباسيين، وهددتهم في عقر دارهم، والأخرى هي الدولة العبيدية، التي انطلقت من سلمية وقامت في بلاد المغرب.

ظهرت الحركة القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وهي استمرار للدعوة الإسماعيلية رغم الأطوار العصبية التي مرت بها العلاقة بين الحركة

الأم (الإسماعيلية) والحركة الناشئة (القرمطية) ووصولها إلى حد المواجهة المسلحة، ولدى العودة إلى المصادر الإسماعيلية، نراها تنظر إلى القرامطة نظرة فئة تمردت على قيادتها وانشقت عنها.

نشأت الحركة في سواد العراق في عام (261هـ/ 875م) في عهد الخليفة المعتمد، ثم انتقلت إلى بلاد الشام والبحرين واليمن وذلك لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية هي نفسها التي قامت في ظلها حركة الزنج، والراجح أن الاتجاه الاجتماعي ـ الاقتصادي قد غلب على اتجاهها الديني بالرغم من أن دعاتها كانوا متطرفين في آرائهم الدينية المتعلقة بالشريعة الإسلامية..

ويعتبر حمدان بن الأشعث المعروف بقُرْمُط، وهو من أهل الكوفة أحد دعاة القرامطة الأوائل، وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزنج، واتجهت إلى أولئك الذين نجوا في المناطق التي عمت فيها الحركة المذكورة، فصادفت رواجًا كبيرًا في صفوف الأعراب -الذين يتوقون للغنائم- وفلاحي السواد والطبقات الفقيرة، وسمي أتباعه بـ"القرامطة" نسبه إليه.

ثم حدث أن خبت الحركة في العراق بفعل الاختلاف الذي حصل بين قيادتها والقيادة الإسماعيلية، وآلت قيادتها إلى زكرويه بن مهرويه الفارسي وهو أحد تلاميذ حمدان، الذي نقل نشاطه إلى بلاد الشام، وامتد إلى بادية السماوة..

وأخذ ابناه يحيى بن زكرويه الملقب بصاحب الناقة، وحسين بن زكرويه الملقب بذي الشامة أو صاحب الخال، على التوالي مهمة نشرها، وتلقب كل منهما بأمير المؤمنين، فهاجما المدن والقرى وأثارا القلق والهلع في بلاد الشام قبل أن تقضي الدولة عليهما في عامي (290و291هـ/ 903 ـ 904م).

وقام زكرويه لينتقم لمقتل ابنيه، لكنه قتل في عام (294هـ/ 907م) وانتهى بمقتله أمر القرامطة في بلاد الشام..

وتقترن الحركة القرمطية في البحرين باسم أبي سعيد الجنَّابي الفارسي وابنه أبي طاهر، وقد بسط الأول هيمنة فعلية على هجر والأحساء والقطيف وسائر البحرين وأنشأ دولة مستقلة عاصمتها المؤمنية، وقُتِلَ في عام (301هـ/ 914م)، فتسلم ابنه أبو طاهر سليمان رئاسة الدعوة، وتابع سياسة العنف بأساليب بالغة الخطورة؛ فعانت البصرة والكوفة من غاراته الوحشية، كما أغار على قوافل الحجاج، وهاجم مكة في عام (317هـ/ 929م)، فنهب أموال الحجاج وقتلهم في المسجد الحرام، واقتلع الحجر الأسود من الكعبة، واحتجزه لعدة أعوام (25) مع ما يمثل ذلك من تحد كبير لشعور المسلمين وقد ندَّد خصومه من أهل السنة، وحلفاؤه من الإسماعيليين والعبيديين بأعماله.

ويبدو أن هناك عاملين دفعا بالقرامطة إلى انتحاء هذا المنحى الديني والاقتصادي.

فمن الناحية الدينية حاول القائمون على الحركة باعتبارهم يمثلون فرقة باطنية غالية، إيجاد عقيدة جديدة توفق بين الإسلام والعقائد القديمة، فهم لم يعترفوا بالإسلام كدين، رغم تظاهرهم بذلك، بل أدخلوا عليه عقائد الحلول والتناسخ وقدسية الأئمة.

أما من الناحية الاقتصادية، فيبدو أن القرامطة أرادوا إيقاف الحج ومهاجمة القوافل التجارية نظرًا للمنافع المادية الناتجة عنه، كما أن هجماتهم التي نفذوها على البصرة كانت تهدف إلى بَثِّ الفوضى وعدم الاستقرار فيها لتحويل تجارتها إلى موانيء الخليج التي يسيطرون عليها بعد أن رفض الخليفة طلبًا لأبي طاهر أن يتنازل عن الأهواز والبصرة، بالإضافة إلى الهيمنة على تجارة الهند البحرية وصناعة خوزستان.

ومهما يكن من أمر فقد فقدت الحركة القرمطية في البحرين، تماسكها بعد وفاة أبي طاهر في عام (332هـ/ 942م) بفعل الصراع على الزعامة، بالرغم من أن الدولة القرمطية استمرت حتى عام (469هـ/ 1076م) وسط تيارات معادية أوجدها تعصبهم الديني المتطرف..

قيام الدولة العبيدية الفاطمية:

أرسل الحسين بن حوشب، داعي الإسماعيلية في اليمن أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب في عام (288هـ/ 901م) لنشر الدعوة في هذه البلاد، بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها وهما: الحلواني وأبو سفيان، ونجح أبو عبد الله هذا في استقطاب جماعة من حجاج كتامة، وصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بثَّ دعوته بين الناس، وقوى أمره بما التف حوله من الأتباع واستولى على القيروان في عام (296هـ/ 909م) وأزال دولة الأغالبة، ثم أرسل إلى عبيد الله المهدي في سلمية يدعوه للحضر إلى إفريقية لتسلم الأمر، رحب عبيد الله بالدعوة، فترك سليمة وتوجه إلى المغرب.

فوصل إليها في عام (297هـ/ 910م) حيث بويع له بالخلافة، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه دولة الخلافة العبيدية..

التاريخ العباسي مظلوم:

التاريخ العباسي مظلوم ليس فقط بسبب التشويه، ولكن لأن التركيز كان على الجانب السياسي فقط، وأهمل الحديث عن جوانب الحياة الأخرى، والتي كانت حضارية في كثير من الأوقات كالجوانب العلمية والاجتماعية والاقتصادية..

وهذا الإهمال لهذه الجوانب كان عن عمد أحياناً، وكان عن جهل أحياناً أخرى، وكان للاعتماد على مصادر المشوهين للتاريخ في أحيان ثالثة.

الأسباب التي أدت إلى تشويه التاريخ العباسي:

أولاً: الاعتماد على مجرد النقل، والتسليم بصحة الروايات، والجمع من غير مناقشة للمجموع.

من أمثلة ذلك ما ذكره بعض الرواة من معاقرة الخلفاء العباسيين ـ وخصوصًا الرشيد ـ للخمر، وما اتهم به القاضي يحيى بن أكثم من معاقرة للخمر واشتغال بالغلمان، ومما علل به بعضهم تنكيل الرشيد بالبرامكة، وقصة العباسة أخته في ذلك، وما ورد ـ أيضًا ـ من حديث الزنبيل الذي تعلق به المأمون، وسبب زواجه ببوران بنت الحسن بن سهل...

فهذه أخبار كاذبة تناقلتها الرواة دون تحليل أو تدقيق، وقد رد ابن خلدون عن بعض هذه المغالطات في مقدمته..

ثانياً: الجهل بالمصادر، والجهل بمهج المصنفين فيها واقتطاع الخبر أو جزء منه دون إتمامه، ودون الرجوع إلى مقدمة الكتاب...

وهذا سبب لصيق بما قبله، ومتمم له وموضح، فإن الثقة التي منحها الدارسون ـ خصوصًا أهل عصرنا ـ لبعض المصنفات القديمة وعدم الاطلاع على مقدمة الكتاب التي تحتوي ـ في الغالب ـ على منهج المصنف فيه، قد أوقع الكثير منهم في الخطأ والخلط لأنهم أخذوا الروايات على أنها حقائق مُسلَّم بها، وخاصة عند نقلهم عن المؤرخين القدماء، الذين اشتهروا بالصدق والأمانة، ولو أنهم رجعوا إلى كلام هؤلاء المؤرخين لعلموا علم اليقين أن تلك الروايات فيها ما هو حق وصحيح وفيها ما هو غير ذلك، ويؤيد ذلك ما ذكره الطبري في مقدمة كتابه "تاريخ الرسل والملوك".

يخاطب من أراد القراءة فيه حيث يقول: "..... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكر قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤتَ في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا"...

ونحواً من ذلك يقول ياقوت في معجم البلدان: "..... لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول؛ لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق وأنا مرتاب بها نافر عنها، متبرئ إلى قارئها من صمتها لأنني كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد.."....

ومن المثالين السابقين يتبين لنا الخطر الكامن في التسليم عند النقل عن هذه الكتب، ولأن مثل هذه الكتب الأمهات تتكون من مجلدات عديدة وضخمة فإن الدارسين ـ في الغالب ـ يرجعون إلى الأجزاء والصفحات التي يحتاجون إليها فقط في بحثهم عن موضوع معين دون الرجوع إلى المقدمة، أو معرفة منهج المصنف في كتابه..

فإذا كان هذا حال المصنفين الأثبات، والمؤرخين العظام الثقات، فكيف بمن دونهم؟ وكيف بأهل الأهواء والبدع والضلالات؟ وكيف بأهل المجون والشهوات؟ لا شك أنهم في أعلى مراتب التزييف والدجل، إن كانوا معتمد فيما ذكروا من الدس، وإلا فهم في أحط مراتب العلم والمعرفة..

فلا يصح أن نصور عصراً من عصور تاريخنا المجيد بنقل ما كتبه أو قاله أولئك الجهال، ولا أن نتبين روح العصر العباسي ـ مثلاًـ من كتب المجون والضلال ككتاب الأغاني مثلاً..

وإن كثيراً من الباحثين إذا أراد استجلاء صورة واضحة لعصر من العصور هرع إلى تلك لكتب ونقل عنها الغث والثمين..

ولا ننكر أن كتاب الأغاني فذٌّ في فنه، ووحيد في جنسه، إلا أننا يجب ألا نعتمد في كل ما يذكر، لأنه لم يؤلف إلا على أنه كتاب للأغاني والألحان والشعر، ثم زاد فيه مصنفه التراجم والحكايات، وكثيرًا من الأخبار الواهية، والروايات المزيفة، والأساطير والخرافات.

إذاً على القارئ والباحث عند النقل أن يكون متثبتًا من صحة الرواية، وذا نظر سديد يميز به الروايات، وصاحب خبرة وعلم بالمصنفات والمصنفين الذين يأخذ عنهم، وبمنهجهم في مصنفاتهم، وما قصدوا إليه من خلال رواية تلك الأخبار، وإلا فسيكون الخطأ والزلل والضلال حليفه، وسيغرق بحثه ومؤلفاته بأخبار وروايات خاطئة يختلط فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، والصدق بالكذب..[28]

ثالثاً: ميول المدونين والرواة والمصنفين إلى جمع المعلومات وتصنيف الكتب في باب معين كالزهد أو المجون أو اللغة أو غير ذلك، وربما جمعوا تلك الأبواب في مصنف واحد فإذا ما تناولها أهل اللذات المحرمة والانهماك في المجون، فحتماً سيحفلون بما يشبع رغباتهم، ويسد نهمهم، وينسجم مع ميلهم، ويتركون ما فيها من جوانب أخرى لا تهمهم هذا إذا لم يزيدوا عليها من مغامراتهم وبطولاتهم، وعن ذلك يقول ابن خلدون: "وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة إنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة، وهتك قناع المُخَدَّرَت(الشريفات في خدورهنّ)، ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم"...

وهذه الرغبات والميول تجعل كل واحد يصنف ويؤلف فيما يرغب فيه ويميل إليه، فإن كان زاهدًا جمع أخبار الزهد والزهاد والصالحين والعباد، وكأننا لا نرى من

خلال ما جمعه غير الزهد والصلاح، وإن كان فقيهاً ملأ صفحاته بأخبار الفقهاء ومسائل الفقه في جده وهزله، ولا غرابة في أن يفعل غيرهم من أهل البدع والأهواء والضلال وأصحاب المجون والخلعاء والعابثون، كل يصبغ العصر بصبغته، ويصوره بالصورة التي يريدها..

وعندما ابتعد الناس عن الإسلام، تناقلوا في مجالسهم تلك الكتب والروايات والقصص التي تصور ما يناسبهم من اللهو والعبث، واهتموا بتلك الأخبار فجمعوها ورتبوها، وصنفوا في مختلف ألوان اللهو كتبًا للتسلية والأنس جمعوا فيها الأخبار الغريبة، والحكايات الطريفة والقصص الماجنة، والأدب المكشوف، والغزل الخليع...

وما أن جاء عصرنا حتى شاعت فيه التصورات المستوردة عن الإسلام ودولته، حتى إن كثيراً من أبنائه نصبوا أنفسهم محامين يدافعون عن تلك النظريات التي خلطت السم بالدسم، فشوهت صورة العصر، وذلك لأنهم تبنوا هذه الأفكار والنظريات التي وضعها أعداؤن، واتخذوها على أنها حقائق مسلمة لا يمكن ردها أو مناقشتها خصوصًا ما ورد منها عن أولئك المستشرقين الذين اتخذهم أهل عصرنا أساتذة، وشاع عنهم ـ زوراً ـ أنهم موضوعيون في دراساتهم، ويعلم الله أنهم والموضوعية على طرفي نقيض، لتصوراتهم الخاطئة عن دولة الإسلام وروحه..

رابعا: التعصب لمذهب أو لجنس أو لملة أو لمدينة أو لدين أو غير ذلك وقد أثر هذا التعصب تأثيرًا بالغًا في حركة وضع الأخبار، وتزييف الروايات، والطعن في الجانب الآخر ومحاولة تشويهه، والحط من منزلته، ووصفه بالدناءة والانحطاط.

وإذا كان هؤلاء الوضاع المتعصبون لا يتورعون عن الوضع في الحديث الشريف، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كذب جزاؤه النار فإن حركة الوضع في غير ذلك أشد وأقوى.

وإذا ورد الوضع في الحديث الشريف حتى من بعض أهل الدين والصلاح ـ بحجة الدفاع عن الإسلام أو الترغيب فيه ـ فإننا نستطيع أن نتبين جرأة الآخرين من أهل العصبيات والأهواء، على الوضع في غير الحديث، وعلى هذا الأساس نتمكن من تفسير التشويه الذي لحق بالعرب مثلاً من قِبَلِ الشعوبية، والتشويه الذي لحق العباسيين من قبل الشيعة وغيرهم، والذي لحق الأمويين من قبل العلويين، والذين لحق الأمين من قبل أتباع المأمون، فكل يحاول ـ ما أمكنه ـ أن يفتعل القصص، ويؤلف الحكايات التي تثلب عدوه، وتضع من قيمته، ولما كانوا يعدون التدين مكرمة، ويعدون من أسمى الفضائل التخلق بأخلاق الإسلام، والاشتغال بالعلم والعمل الصالح، والابتعاد عن اللهو والعبث، لذلك كانوا إذا أرادوا أن يحطوا شخصًا وصفوه بالتحلل من الدين والأخلاق، ورموه باللهو والمجون والمعاقرة، ووسموه بالعبث بالغلمان فضلاً عن الجواري طوال الليل ونصيباً وافراً من النهار...

ومن ذلك مثلاً ما نراه في الشعر في ذلك العصر، حيث وجدنا فريقين من الشعراء: فريقًا علوياً وآخر عباسياً، وكل يحتج لحزبه بهذا الفن، فمن العلويين السيد الحميري من مخضرمي الدولتين شيعيًا غاليًا كثير الشعر جيده، ودعبل الخزاعي ـ الذي ـ كان يحادُّ العباسيين، ويهجو خلفاءهم هجاءاً مقذعاً مراً لم يسلم من لسانه أحد من الخلفاء ولا الوزراء ولا الولاة، هجا الرشيد والمأمون والمعتصم، ومدح العلويين بقصائد كثيرة، وديك الجن الحمصي، والعكوك من أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد..

ولما كان الخلفاء في منعة وقوة، ولم يتمكن أحد من أعدائهم أن ينال منهم علنًا، عمد أعداؤهم إلى ما يسمى 'بحرب الشائعات' في السر والخفاء، ويصور لنا ذلك ما قاله قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني المتوفي سنة 415هـ: انظر إلى الشعر أو الذين هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغيرهم، ومن الكتب التي وضعها الملاحدة وطبقات الزنادقة.. فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط

الإسلام وسلطانه، والمسلمون أكثر مما كانوا إذ ذاك، وأشد ما كانو، ولهم القهر والغلبة والعزة، والذين وضعوا هذه الكتب أذل ما كانوا، وإنما الواحد بعد الواحد من هؤلاء يضع كتابه خفيًا وهو خائف يترقب ذلك عن أهله وولده، ولا يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد، ممن هو في مثل حاله من الخوف والذل والقهر، ثم ينتشر ذلك في أدنى مدة ويظهر على أن يباع في أسواق المسلمين..

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر الروايات والأخبار والمصنفات الكثيرة، التي أظهرت الخلفاء بمظهر الفساد والترف، واللهو والمجون ويوضح ذلك أتم توضيح أن أغلب تلك الروايات قد ورد مقطوعًا وبصيغ الشك والضعف مثل: روى وقيل وحكى... والراوي والقائل من القصاصين الذين يطرفون العامة بغرائبهم، أو من المعارضين الذين يبتغون الانتقام لحزبهم المهزوم..

أمثلة من تشويه التاريخ العباسي:

1. الانتقاء المغرض..
2. التأويل الفاسد..

فقد كتب أحد الكتاب المحدثين وهو محمود إسماعيل، صاحب كتاب "الحركات السرية في الإسلام ـ رؤية عصرية"..

نظرة الكاتب لحركة القرامطة:

فقد كتب هذا الرجل في مقالاته وأبحاثه الفريدة يثبت أن هذه الحركات السرية التي كانت تعمل على تحطيم الإسلام هي حركات تقدمية، تحررية مستنيرة..

فقد كتب ـ عفا الله عنا وعنه ـ كتابًا يدرسه لطلابه جاء فيه: "القرامطة تجربة رائدة في الاشتراكية"، وتحت هذا العنوان جعل "داعيتهم عبدان".. ليس داعيًا مشهورًا،

تفانى في نشر الدعوة وحسب، بل صاحب مدرسة ورائد جماعة فكرية، ظلت مخلصة لآرائه بعد مماته، ونقل عن الفهرست لابن النديم أنه ألَّف في المذهب عشرة كتب قيِّمة (أضاف لها وصف قيِّمة من عنده) ثم قال في الصفحة نفسها: "ولكن شيئاً من تراث تلك المدرسة لم يصل إلينا، ومن ثم فكل ما يعول عليه دراسة القرامطة مستمد من المصادر السنية والشيعية فقط، وهي معادية للقرامطة على طول الخط.. وهذا الاتفاق والإجماع لا يمكن أن يتخذ بحال ذريعة للتسليم بصحة ما أورده مؤرخو الشيعة والسنة عن القرامطة إذ ينطوي على افتراءات واتهامات باطلة.. فالمعقول أن هذا الإجماع مدعاة للشك أكثر منه قرينة على اليقين"...

ثم غمز علماء الأمة جميعًا قائلاً: "إنهم ينتمون إلى طبقة أهل القلم التي تدين بوضعها المتفوق لإنعامات وهبات الحكام، وبديهي أن ينظر هؤلاء وأولئك باستعلاء لحركة قوامها المستضعفون من العمال والفلاحين"...

وراح الكاتب (البحاثة) يكشف عن عظمة القرامطة، وما أدوه من دور في التاريخ الإسلامي، داعيًا لنا أن نقف على عبقرية ذلك العمل السري الذي أقام تلك الدولة لتظل شوكة في جنبي الخلافتين العباسية والفاطمية ما ينيف على قرن من الزمان"...

وهو يرى أن القرامطة أهل صلاح وتقي ينقطعون للصلاة والعبادة..

وأن داعيتهم زكرويه القرمطي عظم قدره في أعين الناس، وصارت له مرتبة في الفقه والدين، وأن حمدان قرمط ـ زعيم الحركة ـ عرف بالزهد والتعبد..

فحركة القرامطة عنده كانت ثورة اجتماعية باسم الدين، وليست حركة مروق"....

أما جرائمهم وسفكهم الدماء، وقطعهم الطرق، وترويعهم الآمنين، وفتكهم بحجاج بيت الله الحرام الآمنين، وفظائعهم التي تقشعر لهولها الأبدان، من تدمير للبلاد، وحرق للزروع، وطمر للآبار وعيون المياه، بالجثث، وعظام الضحايا وجماجم... كل ذلك عند الكاتب مغفور للقرامطة..

العدوان على الكعبة المشرفة والحجر الأسود:

ان الأَوْلى بالمؤلف البحّاثة الأكاديمي أن يتجاوز عن ذكر هذا الجُرم البشع، ولا يعرب عن رأيه فيه، فعسى ألا يطوف بذهن القارئ، ولكنه (بأسلوبه العلمي ومنطقه الأكاديمي) يقول بالحرف الواحد: "والمؤرخون يتحاملون على القرامطة، ويصمون حروبهم بالوحشية والميل الشديد لسفك الدم، ويتخذون من حادثة هجومهم على مكة، ونقل الحجر الأسود إلى البحرين ذريعة لمزيد من التحامل، ومن (المحقق) أن هذه الحادثة كانت لها دوافعها السياسية، ولم تعبر عن ميل طبيعي لدى القرامطة في السلب والابتزاز، أو عن رغبة في إهدار المقدسات الإسلامية..."

ثم يقول مؤنباً كتاب عصرنا: "والواقع أن المعاصرين (يقصد للقرامطة) لم ينظروا إلى هذا الحادث باعتباره حادثًا جللاً، كما فعل اللاحقون فقد انتهكت حرمة الكعبة مرتين، وضربت بالمجانيق في العصر الأموي، كما كان المتصوفة -آنئذٍ- يعتبرون الحجر الأسود وتقديسه ضرباً من الوثنية..

ولذلك وجب على الدارسين التخفيف من غلوائهم، ولنظر إلى هذا الحادث على أنه أمر طبيعي أملته طبيعة العصر وظروفه السياسية". هـ بنص حروفه..

أسمعتم؟ إن العدوان على الحرم ونزع الحجر الأسود أمر طبيعي أيها الرجعيون فخففوا من غلوائكم!!!

ويمضي الكاتب في تزييفه للحقائق، وتأويلاته الفاسدة قائلاً: "أجمع مؤرخو السنة والشيعة على اتهام القرامطة بإبطال التكاليف الشرعية؛ فذكر "الملطي: "أنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض، كما قال "البغدادي": وزعموا أن من عرف العبادة، سقط عنه فرضها، وفي الاتجاه نفسه نجد الغزالي يقول: "ترك القرامطة تأدية العبادات"... هـ بنص حروفه ص111

هكذا يوهم القارىء بالحيدة العلمية وأنه يذكر الآراء المخالفة لرأيه من مراجعها الأصلية، ويعزوها إلى أماكنها من الصفحات والأجزاء قبل أن يناقشها ويردها، فلننظر كيف كان رده لهذا الإجماع من المؤرخين!!

قال: "ونحن نرى أن تلك فرية لا أساس لها من الصحة، وإليك القرائن فالغزالي نفسه ذكر أن الداعي القرمطي كان يشترط على المستجيب للدعوة أن يحج إلى بيت الله ثلاثين حجة إن أخلَّ بواجباته، والطبري ذكر: أن القرامطة كانوا لا يغتسلون من الجنابة، وإنما اكتفوا بوضوء الصلاة لإزالتها، وفي موضع آخر روى: "أن أحد كبار الملاك ضاق ذرعاً بفلاح قرمطي يعمل في ضياعه لحرصه على أداء الصلاة، والمقريزي الشيعي أورد أن الداعي "زكرويه" القرمطي عظم قدره في أعين الناس، وصارت له مرتبة في الفقه والدين، وأن حمدان بن الأشعث ـ زعيم الحركة ـ عُرِفَ بالزهد والتعبد، وكان أنصاره يسمون أنفسهم "المؤمنون" بالله، والناصرون لدينه، والمصلحون في الأرض، هذه النصوص وغيرها تبطل الزعم بأن القرامطة دعوا إلى هدم أركان الشريعة والتنصل من العبادات... هـ بنصه بالحرف الواحد وبدون أي تلخيص....

هكذا بهذه النصوص يدفع إجماع المؤرخين على أن القرامطة دعوا إلى هدم أركان الشريعة والتنصل من العبادات..

وسنضع الآن نص كلام الطبري الذي أشار إليه (الأستاذ الدكتور المؤرخ)، أمام القارئ ونترك له الحكم، جاء في الطبري ما نصه: "وفيها أي في سنة 278هـ وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة..فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة يظهر الزهد والتقشف، وسيف الخوص (ينسجه) ويأكل من كسبه، ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، وكان للهيضم بن العلاء العجلي في تلك الناحية ضياع؛ فوقف على تقصير آكرته (الذين يعملون في مزرعته) في العمارة (تعمير الأرض وإصلاحها، فسأل عن ذلك فأخبر أن إنساناً طرأ عليهم، فأظهر لهم مذهباً من الدين، وأعلمهم أن الذي افترضه الله عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة، فقد شغلوا بها عن أعمالهم، فوجه في طلبه، فأخذ وجيء به إليه، فسأله عن أمره فأخبره بقصته، فحلف أن يقتله فأمر به فحبس..."

هذا ما ذكره الطبري وهو يتحدث عن بدء أمر القرامطة، ثم قال في الموضع الآخر الذي اقتبس من: "..فقدم قوم من الكوفة فرفعوا إلى السلطان أمر القرامطة، وأنهم قد أحدثوا دينًا غير الإسلام، وأنهم يرون السيف على أمة محمد، إلا من بايعهم على دينهم.. وأنهم جاؤوا بكتاب فيه ..." :بسم الله الرحمن الرحيم: يقول الفرج بن عثمان، داعية إلى المسيح، وهو عيسى، وهو من قرية يقال لها (نصرانة) وهو الكلمة، وهو المهدي، وهو أحمد بن محمد بن الحنيفة، وهو جبريل، وذكر أن المسيح تصوَّر له في جسم إنسان، وقال له: إنك الداعية، وإنك الحجة، وإنك الناقة، وإنك الدابة، وإنك روح القدس، وإنك يحيى بن زكريا، وعرَّفه أن الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، مرتين، أشهد أن آدم رسول الله، أشهد أن نوحاً رسول الله، أشهد أن إبراهيم رسول الله، أشهد أن موسى

رسول الله، وأشهد أن عيسى رسول الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشهد أن أحمد بن الحنيفة رسول الله، وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح، وهي من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنيفة، والقبلة إلى بيت المقدس، والحج إلى بيت المقدس، ويوم الجمعة يوم الاثنين لا يُعمل فيه شيء والسورة (الحمد لله بكلمته، وتعالى باسمه، المتخذ لأوليائه بأوليائه، قل إن الأهلة مواقيت للناس، ظاهرها ليُعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام، وباطنُها أوليائي الذين عرَّفوا عبادي سبيلي، اتقونِ يا أولي الألباب، وأنا الذي لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم...

ثم يركع ويقول في ركوعه: سبحان ربي رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون!

يقول لها مرتين، فإذا سجد قال: الله أعلى، الله أعلى، الله أعظم، الله أعظم، ومن شرائعه: الصوم يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز، وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ولا غسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله ومن لم يحاربه ممن خالفه أخذت منه الجزية..

هذا ما ورد في الطبري في الموضعين الذين أشار إليهما المؤلف، فما ذكره الطبري عن القرامطة: عند كل من يعرف القراءة والكتابة هو بنص الطبري:

- أحدثوا دينا غير الإسلام.

- لهم كتاب غير القرآن.

- صلاتهم غير صلاتنا (مرتين في اليوم)

- حجهم إلى بيت المقدس.

ـ يرون السيف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

ـ لهم نبي غير نبينا صلى الله عليه وسلم.

ـ قبلتهم إلى بيت المقدس.

ـ عيدهم الأسبوعي يوم الاثنين وليس الجمعة.

ـ صومهم يومان في السنة (يوم المهرجان ويوم النيروز) وهما من أعياد المجوس.

ـ الخمر حلال.

ـ لا يتطهر من الجنابة.

ـ من قاوم مذهبهم وجب قتله.

هذا ما جاء به القرامطة، وهذا هو دينهم، وهذا ما قرأه الأستاذ الدكتور في الطبري قطعًا، فهل يقرأ هذا الكلام عاقل، ثم يحدثنا عن صلاح القرامطة، وورعهم، وصدق دينهم، وأن أعداءهم من كتاب السلاطين كذبوا عليهم وادعوا عليهم افتراءات واتهامات باطلة؟؟

نلاحظ ما يلي:

أنه قدَّم وأخر في كلام الطبري، فعكس الترتيب الذي ورد عليه الكلام، أنه يرتب على هذا إظهار الطبري بمظهر المتناقض مع نفسه حيث يقول: إنهم أبطلوا التكاليف الشرعية، فهم لا يتطهرون من الجنابة، ثم يعود فيقول: إن أحد كبار الملاك ضاق ذرعًا بفلاح قرمطي يعمل ضياع لحرصه على أداء الصلاة ...

3) السم في العسل:

من كتب التضليل والعداوة للتاريخ الإسلامي (دائرة المعارف الإسلامية): شارك في كتابتها عدد كبير من المستشرقين الصليبيين المختلفين لغةً ومذهبًا وقومية، وفي مثل هذه المؤسسات الهادفة إلى تشويه الإسلام تجد فيها اليهودي والنصراني معًا، والكاثوليكي والبروتستانتي، والألماني والإنجليزي والفرنسي والأمريكي، والهولندي والبلجيكي وغيرهم، ذُكِرَ منهم ثلاثة وستون مستشرقًا في موقف يؤكد قوة التعاون والترابط بين الصليبيين واليهود في محاربة الإسلام وأهله حرباً حضارية وإعلامية وعسكرية.

وقد صدرت دائرة المعارف الإسلامية بعدة لغات بعد أن دسَّ بها عتاة المستشرقين لـ سمومهم وملئوها بشبهاتهم ضد الإسلام وما يتعلق به، ومن المؤسف أنها أصبحت مرجعاً لكثير من المثقفين المعاصرين، الذين يعدونها حُجَّة لا تقبل الرد، مما يؤكد الجهل المتأصل عندهم بالثقافة الإسلامية، وعقدة النقص المصابين بها بعد تفريطهم بهويتهم الإسلامية والاعتزاز بها ...

بعض الصليبيين العرب ودورهم في تزوير التاريخ:

جو رجي حبيب زيدان:

من أصل لبناني، ولد في بيروت 1861م هرب إلى مصر بعد أحداث في لبنان، ومن هناك صاحب الحملة الإنجليزية التي هاجمت السودان مترجماً لها..

وهو أحد كبار عتاة التخريب والتضليل الثقافي في الأمة العربية الإسلامية، ساعده على ذلك تأسيس أكبر دار للطباعة والنشر والتوزيع في الوطن العربي عام 1892م سمّاها دار الهلال، ولم يسمّا دار الصليب لكي يتمكن من تسريب أفكاره بين

الأجيال العربية والإسلامية دون أن يتشكك فيه أحد، فتمكن من الوصول إلى المناهج والمدارس، فدسَّ السم في الدسم من خلال أفكاره وكتبه التي تتستر بالأسماء العربية، قام بعدة رحلات إلى بلاد مختلفة أشهرها إنجلترا، توفي عام 1914م، له عدد من المؤلفات التاريخية منها: تاريخ مصر الحديث، تاريخ التمدن الإسلامي، تاريخ آداب اللغة العربية، تاريخ العرب قبل الإسلام، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، أنساب العرب القدماء، تاريخ الماسونية، رحلة جورجي زيدان إلى أوروبا عام 1912م، التاريخ العام منذ بدء الخليقة إلى هذه الأيام، تاريخ إنجلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام، تاريخ اليونان والرومان، في كل كتابات جورجي زيدان تزييف استشراقي علماني، وفحيح صليبي على التاريخ الإسلامي سلَّط فيه الأضواء على بعض الجوانب منها على سبيل المثال لا الحصر ـ طمس الجوانب المضيئة عند هارون الرشيد ودفاعه عن الأمة ـ وحبه للعلم والعلماء، وعبادته وشغفه بالجهاد والحج وفعل الخير.

الفصل السابع

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون

هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية، استطاع العباسيون أن يزيحوا بني أمية من دربهم ويستفردوا بالخلافة، وقد قضوا على تلك السلالة الحاكمة وطاردوا أبنائها حتى قضوا على أغلبهم ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس، وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية، وبقيت في عقبه لسنة 1029م.

تأسست الدولة العباسية على يد المتحدرين من سلالة أصغر أعمام نبي الإسلام محمد بن عبد الله، ألا وهو العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكبرى، واحتفاظ العرب بها، كذلك استمال العباسيون الشيعة للمساعدة على زعزعة كيان الدولة الأموية، نقل العباسيون عاصمة الدولة، بعد نجاح ثورتهم، من دمشق العربية الشاميّة، إلى بغداد العراقية الإسلامية، التي ازدهرت طيلة قرنين من الزمن، وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل، تنوّعت الأسباب التي أدّت لانهيار الدولة العباسية، ومن أبرزها: بروز حركات شعوبية ودينية مختلفة في هذا العصر، وقد أدّت النزعة الشعوبية إلى تفضيل الشعوب غير العربية على العرب، وقام جدل طويل بين طرفيّ النزاع، وانتصر لكل فريق أبناؤه، وإلى جانب الشعوبية السياسية، تكوّنت فرق دينية متعددة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق وبين الحكام العبّاسيين هو "الخلافة" أو إمامة المسلمين، وكان لكل جماعة منهم مبادئها الخاصة ونظامها الخاص وشعاراتها وطريقتها في الدعوة إلى هذه المبادئ الهادفة لتحقيق أهدافها في إقامة الحكم الذي تريد، وجعلت هذه الفرق الناس طوائف وأحزاباً، وأصبحت المجتمعات العباسيّة

ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدولة العبّاسية وساعد على تصدّع الوحدة العقائدية التي هي أساس الوحدة السياسية، ومن العوامل الداخلية التي شجعت على انتشار الحركات الانفصالية، أتساع رقعة الدولة العبّاسية، ذلك أن بعد العاصمة والمسافة بين أجزاء الدولة وصعوبة المواصلات في ذلك الزمن، جعلا الولاة في البلاد النائية يتجاوزون سلطاتهم ويستقلون بشؤون ولاياتهم دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصالية والتي لم تكن تصل إلا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية: حركة الأدراسة وحركة الأغالبة، والحركة الفاطمية.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه، انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة مجددًا في سنة 1261م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينياً، أما في الواقع فإن سلاطين المماليك المصريين كانوا هم الحكّام الفعليين للدولة، استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان، سليم الأول، فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية.

العصر العباسي الأول: شباب الدولة وصعودها

التأسيس (750 – 785):

طالع أيضا: أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وأبو مسلم الخراساني ومروان بن محمد ومعركة الزاب.

أصيبت الدولة الأموية بالضعف والقنوط إثر وفاة عاشر خلفائها هشام بن عبد الملك يوم 10يناير سنة 743م، الموافق فيه 9 ربيع الأول سنة 125هـ وتعاقب من بعده أربع خلفاء هم الوليد بن يزيد الذي قتلته الأسرة الأموية لانشغاله عن الدولة وأمور السياسة ويزيد بن الوليد وإبراهيم القاسم ومروان بن محمد، وتميزت فتراتهم بانقسام داخلي حاد واستشراء الحروب الداخلية، فضلاً عن الوضع الاقتصادي المتردي، ما ساهم في تقوية الجماعات والأحزاب الدينية والحركات السياسية المعارضة لحكمهم والتي كانت منتشرة بشكل أساسي في العراق وإيران، البعيدة عن حاضرة الخلافة في دمشق، وأبرز تلك الأحزاب التي عارضت بني أمية الحزب القائل بأحقية سلالة علي بن أبي طالب بالخلافة والحزب القائل بأحقية سلالة عباس بن عبد المطلب عم النبي محمد بالخلافة.

كان الحزب الأول قد أطلق عدة ثورات خلال الحكم الأموي، أدت إلى مقتل العديد من مواليه وقادته، فقتل الحسين بن علي عام 680م وقتل زيد بن علي عام 740م بعد أن ثار في الكوفة، أما الحزب العباسي فقد تطور تطورًا تدريجيًا والتزم الهدوء طوال عهود القوة الأموية واستغل ضعف الاقتصاد لتفجير ثورته؛ فضلاً عن ذلك يرى الباحث عبد العزيز الدردوري أن العباسيين قد استغلوا أيضاً التمييز العنصري والطبقي الذي كان يمارسه الأمويون بين العرب وغير العرب في الوظائف والضرائب والجيش، فكونوا بذلك قاعدة شعبية عريضة لدى غير العرب خصوصاً في أوساط فلاحي الريف وعمال المدن الفقراء، وذهب الدردوري وعدد آخر من الباحثين العرب والمستشرقين لاستخلاص قاعدة مفاهدا بأن الدعوة العباسية كانت «ثورة دينية واجتماعية واقتصادية» ويراها البعض أيضاً «ثورة الفرس ضد العرب».

ويمكن إرجاع نضوج الدعوة العباسية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وابنه إبراهيم الذي سجنه آخر الأمويين مروان بن محمد في مدينة حران إلى أن توفي عام 746م، فتولى أخاه أبو العباس شؤون الحركة العباسية بناءً على دعوة أبو

مسلم الخراساني؛ وقد قام أبو مسلم بإعلان قيام الدولة العباسية في خرسان وحارب نصر بن سيار الوالي الأموي فيها وانتصر عليه، ثم احتلّ مدينة مرو ومنها انتقل أبو العباس إلى الكوفة في أغسطس سنة 742م بشكل سري، وظل مختفيًا حتى 29أكتوبر 742م، الموافق فيه 12ربيع الأول سنة 132هـ حين بايعه أهل الكوفة بالخلافة، لتدخل عملية خلق الدولة العباسية مرحلتها الأخيرة، إذ التقى إثر ذلك الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد وجيش العباسيين بقيادة أبي العباس قرب نهر الزاب شمال العراق بين الموصل وأربيل، وكانت الغلبة للعباسيين، الذي أتموا فتح العراق وانتقلوا منها إلى بلاد الشام فمصر حيث طاردوا فلول الجيش الأموي وقتلوا الخليفة مروان بن محمد في معركة بوصير، وبفتحهم مصر دانت لهم سائر الأمصار التي كانت تابعة للأمويين وتأسست الدولة العباسية، ثالث مراحل تاريخ الخلافة، بعد الراشدية والأموية، وبويع أبو العباس بالخلافة ولقب بالسفّاح لكثرة سفكه الدماء، خصوصًا لدى دخوله دمشق حاضرة الأمويين، إذ نهب بيوت الأسرة الأموية والمقربين منها وأحرق قصورهم ثم نبش قبور خلفائهم، ولم ينج من الأسرة الأموية سوى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي انتقل إلى المغرب ثم دخل الأندلس فاستقلّ بها مؤسساً حكماً أموياً فيها، أما أبو العباس السفاح فقد نقل عاصمة الدولة من حران التي كان مروان بن محمد قد نقل إليها عاصمة الدولة الأموية، إلى الكوفة رغم أنه لم يلبث بها إلا قليلاً حتى انتقل للعيش في الأنبار، وإثر وفاته عام 754 ودفنه في الأنبار أخذت البيعة لأخيه أبي جعفر المنصور والذي كان السفاح قد عينه وليًا للعهد .

كانت فترة حكم المنصور توطيداً لدعائم الدولة الجديدة، فقضى على الثورات المتلاحقة التي هددتها، وقتل أبو مسلم الخراساني مع كونه سبب حصول العباسيين على الخلافة خوفًا من امتداد نفوذه، وقضى على ثورة المدينة المنورة التي بايع أهلها محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية بالخلافة، وقضى على

ثورات شبيهة في البصرة وواسط والأهواز، ويصفه الباحث عبد القادر عيّاش بالقول بأن أبو جعفر المنصور أعظم رجل من العباسيين شدة وبأساً ويقظة وثباتاً، شحن الثغور والأطراق وأمن السبل وعرف بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه تاركًا لابنه المهدي ثروة جعلته ينفق في سعة، ومن الأعمال العمرانية الهامة التي ارتبطت به تشييده مدينة بغداد على نهر دجلة ونقله عاصمة الخلافة إليها، وظل مقيمًا بها إلى أن توفي في 7أكتوبر سنة 775م، الموافق فيه 6 ذي الحجة سنة 158هـ، في قصر الخلد الذي أشاده مقابل نهر دجلة، أما على الصعيد الديني فقد توفي خلال عهده الإمام أبو حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي لدى السنة، وقد تلى المنصور في الخلافة ابنه محمد المهدي والذي اهتم بالخدمات الداخلية فنظم البريد والطرقات وأصلح الزراعة ونقل عن رفاه الشعب وعدالة القضاء الذي كان يرأسه بنفسه، كما نقل عن المهدي ورعه وميله للالتزام بالشريعة، والعناية بالفقراء وأصحاب الأمراض والمساجين في جميع أنحاء الدولة، ممهدًا بذلك بدء العصر الذهبي لسلالة آل العباس.

العصر الذهبي (785 -847)

توفي محمد المهدي عام 785م وأخذت البيعة لابنه موسى الهادي، غير أن حكمه لم يطل إذ توفي عام 786مفسحاً المجال أمام أخاه هارون الذي خلع عليه والده لقب «الرشيد» في أعقاب إحدى الغزوات التي انتصر فيها على البيزنطيين، لاستلام السلطة، اهتم هارون الرشيد بالإصلاحات الداخلية فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، وتطورت العلوم خصوصاً الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية، اعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقفة قرب

مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه، وقد نقل ابـن خلكـان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة، راسل الرشـيد شـارلمان، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وينسب المؤرخون صداقة قامت بين الرجلين وتبادل الهدايا حتى قدّم الخليفة مفتاح القـدس لشـارلمان، كـذلك فقـد اهـتم هـارون الرشيد بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة خصوصًا في القوقاز وآسيا الوسطى والأناضول، وقد سجّل عهده عام 782م آخر محاولـة عربيـة لفـتح القسـطنطينية، الـتي اسـتمرت عصيّة على الفتح إلى أن استطاع السلطان العثماني محمد الثاني فتحها عام 1453م.

خـلال بدايـة خلافتـه، اعتمـد الرشـيد علـى البرامكـة وعهـد إلى يحيـى البرمكي بالوزارات، مانحًا إياه صلاحيات مطلقة، واستمر الوضع على مـا هـو عليـه حتى عام805 م حين تخوّف الرشيد من امتداد نفوذهم وزيادة أموالهم وميـل النـاس إليهم، فصادر أموالهم وقتل قادتهم وسجن القسم الأكبر منهم، ويختلف المؤرخون في تصنيف علاقات هارون الرشيد النسائية، فبينما يجزم البعض أنـه كـان «زيـر نسـاء»، يرفض البعض الآخر هذه الفكرة.

توفي هارون الرشيد عام809 م في خراسان وأخذت البيعة لابنه الأمين وفقًـا لوصية والده التي نصت أيضًا ان يخلف المأمون أخـاه الأمـين، إلا أن الخليفـة الجديـد سريعًا ما خلع أخاه من ولايـة العهـد وعـين ابنـه موسـى النـاطق بالحقوليًـا للعهـد، وكان المأمون آنذاك في خراسان، فلما أخذ العلم بأن أخاه قد خلعه عن ولايـة العهـد أخذ البيعة من أهاليخراسان وتوجه بجيش لمحاربة أخيه، وقد استمرت الحروب بينهما أربـع سـنوات، إلى أن اسـتطاع المـأمون محاصـرةبغداد والتغلـب علـى الأمـين وقتلـه عام813 م، ظافراً بالخلافة .

تفرّد عهد المأمون بتشجيع مطلق للعلوم من فلسفة وطب ورياضيات وفلـك واهتمـام خـاص بعلـوم اليونـان، وقـد أسـس الخليفـة عـام 830 م جامعـة بيـت

الحكمة في بغداد والتي كانت من كبريات جامعات عصرها، واخترع في عهده الاسطرلاب وعدد من الآلات التقنية الأخرى، وحاول العلماء قياس محيط الأرض ما يدلّ على الاعتراف بكرويتها من ناحية وتطور العلوم من ناحية ثانية؛ وقد تكون عمليات الترجمة التي رعاها هو وحاشيته وولاته، أبرز سمات عهده، إذ نقلت خلالها العلوم والآداب السريانية والفارسية واليونانية إلى العربية، اكتسبت من خلاله اللغة العربية مكانة مرموقة إذ تحولت من لغة شعر وأدب فحسب إلى لغة علم وفلسفة، وكذلك فقد ساهمت عمليات الترجمة في إرساء منسوب ثقافي عالٍ في الدولة، وقد أثر الانفتاح الثقافي على المعتقدات الدينية، فقال المأمون بخلق القرآن وأجبر الناس على الحذو في هذه الصيغة، كما أعلن المعتزلة عقيدة الدولة الرسمية، ثم عهد بولاية العهد قسطًا من الزمن لعلي الرضا الشيعي وأخذ الشعار الأخضر بدلاً من الشعار الأسود، ثم عاد إلى شعار بني العباس الأسود وعيّن أخاه ولياً للعهد، وزار المأمون مصر ودمشق والجزيرة السورية وتوفي ودفن بطرسوس شمال بلاد الشام في 10 أغسطس سنة 833 م، الموافق فيه 19 رجبسنة 218 هـ وأخذت البيعة لأخاه محمد المعتصم بالله الذي بنى مدينة سامراء وفتح عمورية قرب أنقرة مسقط رأس العائلة الإمبراطورية البيزنطية، واستمرت عمليات الترجمة والنهضة العلمية في عهده كما افتتحها سلفهالمأمون، ولعلّ قضاءه على ثورة بابك الخرمي التي أسست دولة شاسعة في أذربيجان وجوارها منذ عهد المأمون أبرز أعماله؛ إذ إن بابك الخرمي قد مزج بين الإسلام والمجوسية وأسس ديناً هجيناً وعمد إلى إصلاحات اقتصادية واجتماعية جذرية ما ساهم في بقاءه عصيًا على الدولة العباسية عشرين عامًا، إلى أن استطاع القائد التركي أفشين القضاء عليه، ومن الثورات الأخرى ثورة الزط جنوب العراق وإجلاء المعتصم إياهم إلى الأناضول.

وكانت والدة المعتصم تركية، لذلك فقد أحاط نفسه بالحرس التركي كما فعل أخاه المأمون مع الفرس، وكان قوام الحرس التركي بداية عهد المعتصم أربعة آلاف رجل، غير أنه استقدم المزيد من قبائلهم عامًا فعامًا ما آثار قلاقل واضطرابات في بغداد اضطر معها الخليفة لنقل عاصمته إلى سامراء، وإثر وفاته عام842 م بويع ابنه الواثق بالله واستمر في سياسة والده القائمة على استيراد القبائل التركية ومنحهم الوظاف العالية في الدولة وجعلهم قوام الجيش فعليًا، وكان الواثق قد خلع على القائد التركي أشناس لقب «السلطان» ما مهد لضعف الدولة وزوال سيطرة الخلفاء عليها، وإثر وفاته عام847 م بويع أخاه أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بالخلافة، والذي يحدد أغلب المؤرخين تاريخ خلافته بدءًا لانحطاط الدولة العباسية.

العصر العباسي الثاني: عصر الحرس التركي

الانهيار (847 – 862)

لم يستطع العباسيون الحفاظ على وحدة الدولة كما فعل أسلافهم الأمويين، فاستقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس منذ قيام الدولة، وفي خلافة موسى الهادي استطاع إدريس بن عبد الله بن الحسن الفرار من مذبحة لحقت بأسرته وأنصارها في المدينة المنورة إثر مطابة والده بالخلافة، واتجه إلى المغرب حيث أسس الدولة الإدريسية المستقلة وعاصمتها مراكش، وفي عهد المأمون تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقية التي تشمل ليبيا وتونس وشمال الجزائر، وبقي حكم هذه الولاية محصورًا في ذريته حتى ظهورالدولة الفاطمية، ولم يحفظ بنو الأغلب للخلفاء العباسيين سوى الخطبة وسك اسم الخليفة على النقد، وبذلك فإن الدولة العباسية منذ عهود قوتها لم تحفظ وحدة أراضيها الإدارية، وهو الأمر الذي سيكرس رسميًا وفي كل جهات الدولة خلال عصور التراجع والانحطاط.

أبرز أوجه عصور الانحطاط، سوى استقلال الولاة والسلاطين في شؤون ولا يتهم بل وتأسيسهم دول مستقلة تماماً في بعضها، كان تدخل الجيش في تعيين الخلفاء، توفي أول السلاطين الأتراك أشناس عام844 م وخلفه وصيف التركي، وعندما توفي الواثق عام847 م ما كانت مبايعة المتوكل على الله لتتم لولا رغبة السلطان وصيف، في وقت كانت الأسرة العباسية والمقربين منها، تميل لمبايعة محمد بن الواثق بالخلافة .

حاول المتوكل على الله الثورة على واقعه، فقتل عددًا من قواد الجيش كابن الزيات وإيناخ، ونقل عاصمة الدولة إلى دمشق عام858 م إلا أنه اضطر العودة إلى سامراء بعد شهرين فقط بضغط الأتراك، وقام أيضاً بتحويل المذهب الرسمي من المذهب المعتزلي إلى المذهب السني الشافعي، ما مثّل نقلة كبيرة لدى الدولة العباسية التي طرأت عليها عدة مراحل من التطورات الدينية، إذ بدأت مع تقارب مع الشيعة وسرعان ما انقلبت عليهم، واعتمدت الاعتزال كعقيدة الدولة منذ عهد المأمون، وكان المتوكل على الله قد أمر عام850 م بهدم ضريح الحسين بن علي في كربلاء وضريح علي بن أبي طالب في النجف ومنع الناس من زيارتهما، كما أمر بهدم جميع الكنائس في العراق ومناطق أخرى وكذلك الكنس اليهودية مع وضع شارات معينة على لباس المسيحيين واليهود ومنعهم من ركوب الخيل، وعلى الرغم من دعواته المتلاحقة للعمل بالشريعة الإسلامية إلا أن ما أقدم عليه يتنافى مع قواعدها، حيث كفل نظام أهل الذمة الإسلامي حقوقاً وكرامة أوسع لليهود والمسيحيين.

أخيرًا اتفق بعض الجند الأتراك مع ابنه المنتصر بالله على قتله في مجلس شرابه يوم 10 ديسمبر سنة861م، الموافق فيه 3 شوّال سنة247 هـ غير أن خلافة المنتصر بالله لم تطل إذ سرعان ما قضى عليه الأتراك بالسم في مايو862 م، وبويع أبو العباس

أحمد المستعين بالله ابن المعتصم بالله بالخلافة، لأن رجال السلطان لم يرد أن يبايع أحد أولاد المتوكل خليفة.

عهد الفتن والحروب الداخلية (862 – 1055)

شهدت خلافة المستعين بالله قيام الدولة الطاهرية في خراسان، كما استقلت طبرستان تحت حكم الحسن بن زيد الملقب بـ«الداعي إلى الحق»، وحصرت وظيفة السلطان بعائلة بغا التركي، ما مهد لظهور الفتن بين الأتراك أنفسهم، فحاصر المتمردون قصر الخليفة في سامراء فهرب إلى بغداد، عندها بايع الجند الثوّار المعتز بالله خليفة، فأرسل جيشًا بخمسين ألف مقاتل إلى بغداد، التي قام أهلها بخلع المستعين ومبايعة المعتز، حقنًا للدماء، بل أن المستعين نفسه بايع المعتز، إلا أن الخليفة الجديد قتل سلفه .

وفي خلافة المعتز بالله قامت الدولة الطولونية في مصر، والتي لم تترك للخليفة سوى الخطبة والسكة، واستولى يعقوب الصفار على بلاد فارس، ما دفع المؤرخ محمد فريد بك للقول بأن أملاك الخلافة العباسية لا تزيد عن ربع ما كانت قبلاً لدولة بني أمية، ورغم مسالمة المعتز للأتراك وتعيين من شاؤوا في مناصب الدولة العليا، إلا أنهم قد خلعوه عام870 م لتردي الوضع الاقتصادي ونضوب خزينة الدولة، وبايعوا المهتدي بالله بن الواثق بالخلافة، وقد مات المعتز في سجنه من العطش والجوع.

حاول الخليفة الجديد كسر شوكة الأتراك، فقتل قائدهم بايكال بعد أشهر من توليه الخلافة، فقتله الأتراك ولم يمض على خلافته عام واحد بعد؛ وبويع المعتمد على الله بن المتوكل على الله خليفة، وفي عهده ثار الزنوج في البصرة وواسط وعاثوا فسادًا في بغداد نفسها، احتجاجًا على سوء الأوضاع الاقتصادية والمعاملة الاجتماعية الدونية، كما أكمل الطولونيون استقلالهم بمصر مانعين السيادة الاسمية للخليفة المتمثلة بذكر اسمه في الخطبة، وقد استطاع الطولونيون السيطرة على أغلب بلاد

الشام فلم يبق للعباسيين سوى العراق، ويعود لخلافة المعتمد وفاة الإمامين بخاري ومسلم الذين اشتهرا بجمع الأحاديث النبوية، وظهور طائفة الإسماعيلية.

توفي المعتمد على الله عام892 م، وبويع المعتضد بالله خليفة، وكانت خلافته وخلافة ابنه المكتفي بالله تحسنًا في الأوضاع الاقتصادية والسياسية على السواء، كما استعاد العباسيون مصر وهزموا الإسماعيلية في عدة مواقع، وظهرت الدولة السامانية التي استعادت طبرستان وسيطرت على بلاد فارس وخراسان مع حفظ السلطة الاسمية للخليفة، كما أعيدت عاصمة الدولة إلى بغداد.

وإثر وفاة المكتفي في أغسطس908 م، بويع المقتدر بالله خليفة، إلا أنه خلع مرتين: الأولى لدى بداية عهده وبويع عبد الله بن المعتز إلا أنه قتل في اليوم التالي خلال الفتن بين أنصاره وأنصار المقتدي، فكانت خلافته يومًا واحدًا ولم يعتبره جميع المؤرخين خليفة، والثانية عام929 م حيث خلعه الجند ورجال الدولة بسبب سيطرة النساء والخدم على الدولة إلا أنه عاد بعد ثلاثة أيام، واستمر في الخلافة حتى قتل عام932 م خلال معركة بينه وبين مؤنس التركي أحد قواد الجيش، وأصبح أخاه القاهر بالله خليفة، إلا أن مؤنس نفسه خلعه بعد عامين وسمل عيناه وسجنه، وفي خلافته ظهرت الدولة البويهية في بلاد فارسوخراسان، كما استقلت تونس والجزائر وليبيا نهائيًا مع ظهور الدولة الفاطمية التي قضت على حكم الدولة الأغلبية، وبنو رستم وبنو مدرار، والذين وإن استقلوا فعليًا عن الدولة العباسية إلا أنهم حفظوا سيادتها الاسمية.

وفي خلافة الراضي بالله، ظهرت الدولة الإخشيدية في مصر وسيطرت على أجزاء واسعة من بلاد الشام وأصبح نفوذ أمير الأمراء من القوة بحيث أنه عندما

مات الراضي بالله عام940 م لم تتم مبايعة الخليفة مباشرة خلافًا للعرف القائم منذ عهد أبو بكر، بل انتظر أسبوعاً لحين عودة بجكم أمير الأمراء من واسط ومبايعته المتقي لله .

السنوات اللاحقة أصبحت صراعًا على منصب أمير الأمراء، فتوالى بعد بجكم، ابن البريدي الذي خلعه الشعب في بغداد لظلمه، ثم كورتكين فابن رابق، الذي شرب وا الخليفة إلى الموصل احتماءً لدى الحمدانيين من بطش ابن بريدي العائد إلى بغداد؛ ولم يلبث ناصر الدولة بن حمدان أن قتل ابن رابق وتولى إمارة الأمراء بنفسه وأعاد الخليفة إلى بغداد، تلاه تورون الذي سجن الخليفة وسمل عينيه وبايع المستكفي بالله عام944 م، إلا أنه خلع عام946 م، وقد توالى في خلافته القصيرة ثلاثة في منصب أمير الأمراء، هم تورون وابن شيرزاد ومعز الدولة بن بويه مؤسسًا الدولة البويهية، وقد خلع معز الدولة الخليفة وعيّن المطيع لله خليفة؛ وقد شهدت خلافته امتداد نفوذ الفاطميين من تونس إلى مصر وبلاد الشام، بحيث أصبح العالم الإسلامي مقسمًا على ثلاثة خلفاء في آن واحد، في قرطبة والقاهرةوبغداد، أضعفهم سلطة خليفة بغداد.

تكن خلافة المطيع لله الذي بويع عام946 م مختلفة عما سبقه من عهود، إذ استمرت الحروب بين البويهين والحمدانيين والجند الأتراك، وأغار البيزنطينيون على حدود الدولة واستعادوا أجزاءً من الأناضول وكيليكيا كانوا قد فقدوها سابقًا، وثار الأتراك بقيادة سبكتكين عام974 م على الدولة البويهية وخلعوا الخليفة وبايعوا ابنه الطائع لله، وكانت خلافته تفتقر إلى الاستقرار السياسي مع تتالي الحروب والفتن بين بني البويه من ناحية والأتراك من ناحية ثانية حتى خلعه عام991 م، وبويع إثره القادر بالله خليفة وقد مكث بالحكم أربع عقود، شهدت قيام الدولة الغزنوية وانهيار الخلافة الأموية في الأندلس، واستمرار الحروب بين البويهيين والأتراك، ثم سادت فترة من الهدوء بعد أن قبض بهاء الدولة البويهي على الحكم،

وكذلك في عهد خليفته سلطان الدولة وأخاه شرف الدولة والذي بوفاته، ضعفت الدولة البويهية وعظم أمر الأتراك، ووصلت ذورتها في أواخر خلافة القادر، حين قام أرسلان بن عبد الله البساسيري بالخطبة للخيفة الفاطمي في بغداد، فاستنجد الخليفة العباسي بطغرل بك قائد السلاجقة، فدخل بغداد عام1055 م، وثبت الخليفة العباسي، وابتدأ عصر آل سلجوق في بغداد.

أدت تلك المرحلة أيضًا خصوصًا خلال القرن العاشر هجرة قبائل كردية من جوار بحر قزوين للاستقرار في العراق وشمال بلاد الشام؛ وازدهار هجرة القبائل أدى إلى تعاسة الوضع الاقتصادي والاجتماعي فضلاً عن تكاثر الحروب الداخلية والخارجية، إحدى أمثلة ذلك الدولة العقيلية والدولة المروانية اللتين ورثتا الدولة الحمدانية بعد انهيارها عام979، وغلب الطابع العربي على الأولى بينما الطابع الكردي على الثانية، وقد اقتتلا طويلاً للسيطرة على الجزيرة السورية، كما قادت الدولة العقيلية حروبًا عدة ضد الدولة البويهية في بغداد، أما الحروب الخارجية، فتتمثل بغارات الإمبراطورية البيزنطية على حلب وأنطاكية واحتلالهما قسطًا من الزمن، بنتيجة تشقق الوضع الداخلي[1].

العصر العباسي الثالث: عصر آل سلجوق

السلطنة السلجوقية في أوجها (1055 – 1092)

وافق أكثر النظريات انتشارًا، فإن السلاجقة هم جمهرة من القبائل التركية الرحل المحاربة، كانت تستقر في الصين وانتقلت منها إلى بخارى حيث اعتنقت الإسلام في عهد مؤسسها سلجوق، ثم استطاعت تحت زعامة طغرل بك السيطرة التدريجية على أملاك الدولة الغزنوية ثم الدخول إلى بغداد بناءً على طلب الخليفة، الذي عين طغرل بك سلطانًا وخطب باسمه في15 ديسمبر سنة1055م، الموافق فيه 22 رمضان سنة447 هـ، ولقبه «بملك المشرق

والمغرب» وزوجه ابنته، وإثر وفاته عام1063م، كان طغرل بك قد حقق استقرارًا سياسيًا واقتصاديًا في الأوضاع، وقد خلفه ألب أرسلان الذي امتد حكمه حتى القدس واستطاع عقب انتصاره في معركة ملاذكرد تأسيس دولة سلجوقية في الأناضول هي الأولى من نوعها؛ غير أنه قتل في إحدى معاركه عام1064 م وتلاه ابنه جلال الدولة ملك شاه، الذي شهدت سلطنته وفاة الخليفةالقائم بأمر الله بعد خلافة استمرت خمسة وأربعين عامًا تعكس الاستقرار وتحسن الأوضاع المعيشية، وبويع المقتدي بأمر الله بالخلافة، وقد اهتم ملك شاه بالعلوم والفنون وشيّد في بغداد مرصدًا فلكيًا ومسجدًا كبيرًا دعي (جامع السلطان)، وقد برز في عهده أيضًا عمر الخيام وثار القرامطة في البصرة عدة مرات، وبوفاته عام1092 م أخذت الدولة السلجوقية بفقدان قوتها، إذ تفرقت إلى عدة عدة دول مستقلة في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس وغيرها، بل تحولت الساحة إلى دسائس وتحالفات بين الملوك السلاجقة ضد بعضهم البعض بهدف توسيع إمارتهم، لا شكّ أن تكلفة هذه الحروب الداخلية المستمرة، لم تؤثر فقط على الاستقرار الاجتماعي في البلاد، بل على الوضع الاقتصادي أيضًا بسبب كلفتها الباهظة، ما سهّل تحقيق انتصار الحملة الصليبية الأولى عام1098 م، وكان المستظهر بالله حينها يشغل منصب الخليفة منذ عام1094 م.

حروب السلاجقة وغروب دولهم (1092 – 1136)

استطاعت الحملة الصليبية الأولى تأسيس أربعة ممالك لاتينية في المشرق، هي إمارة الرها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، التي كانت تحت سلطة الخلافة الفاطمية مجددًا منذ عام1096م، لم يستطع السلاجقة ردع الصليبيين عن ساحل بلاد الشام، بيد أنهم صدّوا تقدمهم نحو أنقرة وقلب الأناضول كما أوقفوا تقدمهم تجاه حلب والعراق عمومًا، أما العراق وخلافته فكانا منشغلان بالحروب الداخلية والثورات التي يقودها القرامطة فلم يتم إعناء مقاومة الصليبيين أو ردعهم أية أهمية تذكر، وقد نقل أنه في أعقاب سقوط القدس عام1099 م زار وفد من أهالي المدينة الناجين الخليفة المستظهر بالله فاعتذر منهم مبديًا عواطفه، ثم عاد وأرسل عام1111 م جيشًا صغير الحجم بقيادة مودود بعد مضايقة الصليبيين لحلب.

أواخر عهد المستظهر استقرت الأوضاع للسلطان محمد السلجوقي غير أن وفاته عام1118 م فجّرت الوضع مجددًا بين وريثه محمود السلجوقي وأخاه داود وبعض أعمامه؛ وإثر وفاة الخليفة المستظهر في أغسطس1118 م أصبح المسترشد بالله خليفة، وفي خلافته ظهر عماد الدين زنكي والي الموصل والذي وسع أملاكه ضامًا حلب وحمص، وتلاه ابنه نور الدين زنكي الذي ضم دمشق ومصر، خلال نمو الدولة الزنكية كانت حروب السلاجقة الداخلية لا تزال مستمرة فانتصر مسعود السلجوقي على ابن أخيه محمود، وقتل الخليفة المسترشد عام1135 م أثناء محاربة مسعود مدافعًا عن محمود، وأصبح الراشد بالله خليفة من بعده، غير أن السلطان مسعود السلجوقي سرعان ما خلعه، فهرب الخليفة إلى أصفهان حيث قتل عام1136م وأصبح المقتفي لأمر الله خليفة من بعده .

الخلفاء يستعيدون السيطرة على بغداد (1136 – 1242)

تطاع المقتفي لأمر الله أن يستقل بحكم بغداد وجوارها عن السلاجقة المستقلين بمحاربة بعضهم بعض، ودعم الأسرة الزنكية التي بلغت شأنًا عالياً في محاربة الصليبيين واستطاعت استعادة الرها منهم؛ وعندما توفي عام 1170م بويع ابنه المستنجد بالله بالخلافة، فاستمر بسياسة والده الرامية إلى الحفاظ على استقلال بغداد وجوارها، وأرسى إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة، وكان في خلافته أن خطب للعباسيين في مصر على يدالدولة الزنكية بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد لدين الله، وبذلك توحدت الخلافة الإسلامية مجددًا؛ كما شهدت خلافته قيام السلطنة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي سيطر على بلاد الشام والحجاز واليمن ومصر وليبيا، واستطاع صلاح الدين في عهد الخليفة المستضيء بأمر الله استعادة القدس وعدد آخر من المدن التي كانت واقعة تحت سيطرة الصليبيين عام1187 م في أعقاب معركة حطين، وتصدى للحملة الصليبية الثالثة، [1]وتلى المستضيء ابنه الناصر لدين الله، والذي استطاع كما فعل والده وجده، الحفاظ على الجزء الأكبر من العراق مستقلاً تحت إدارته الفعلية لا إدارة الوزراء أو الجيش، وقد دعا عدد من المؤرخين فترة هؤلاء الخلفاء الذين استقلو بالعراقاسم «فترة استعادة هيبة الخلافة»، وقد توفي الناصر لدين الله، والذي اشتهر بالحكمة والحنكة، بعد خلافة طويلة دامت خمسةً وأربعين عامًا في أكتوبر سنة1225 م.

في الواقع، فإن وضع العراق خلال عهد الناصر لدين الله، كان أفضل بكثير عن سائر أمصار الدولة العباسية؛ فبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي عام1193 م ودفنه في دمشق، اقتسم أولاده السبعة عشر سلطنته المترامية الأطراف، وكما فعل السلاجقة من قبلهم، تحارب الأمراء الأيوبيون وشكلوا أحلافًا ضد بعضهم البعض، واستوردوا قبائل تركية وشركسية دعيت لاحقًا باسم المماليك؛ أما أحوال أقصى المشرق الإسلامي، كبخارى وكابُل وجوارهما، فكانت سيئة هي الأخرى،

بسبب تعرضهما للغزو والتخريب من قبل المغول بقيادة جنكيز خان، على أن ما وصل من أخبار ذلك العصر في العراق وسواه، لا تفيد بأوضاع ثقافية جيدة أو دعم للعلوم والفنون من قبل الخلفاء وحاشيتهم، كما كان الحال في عصر الدولة الذهبي.

تلى الناصر ابنه الظاهر بأمر الله، لكنه توفي بعد عام واحد فقط، وصارت البيعة لابنه المستنصر بالله عام 1226م وقد أسس الجامعة المستنصرية، ونقل المؤرخون أنه أسس دورًا لضيافة الفقراء وإعتاق الرقيق، وفي خلافته سيطر المغول على بلاد فارس محاذين بذلك العراق.

خلافة المستعصم بالله ونهاية الدولة (1242 – 125)

هولاكو يسجن الخليفة ويمنع عنه الطعام والشراب حتى موته في 20 فبراير سنة1258 م، وقد ترك هولاكو للخليفة صحون وأكواب الذهب التي كان يأكل بها فارغة أمامه في السجن.

توفي المستنصر في ديسمبر من سنة1242م، وتلاه ابنه المستعصم بالله آخر العباسيين في بغداد؛ والذي شهدت خلافته نهاية محطات مهمة في تاريخ الخلافة العباسية؛ منها فشل الحملة الصليبية السابعةوالثامنة وهما آخر الحملات الصليبية مما عجل في نهاية تلك الحقبة، وعمومًا فإنه باستثناء الحملة الصليبية الأولى والثالثة والرابعة التي توجهت إلى القسطنطينية لم تحقق أي حملة صليبية نصراً هامًا وطويل الأمد في المناطق التي استولت عليها، وفي أعقاب الحملة الصليبية الثامنة، كانت أملاك الصليبيين الأساسية في المشرق تقتصر على أنطاكية وطرابلس وعكا كجزر متناثرة وغير متصلة جغرافيًا، كذلك فقد شهدت خلافته نهاية السلطنة الأيوبية عام 1250م بعد وفاة الملك الصالح أيوب واستلام شجرة الدر السلطنة مكانه ثمانين يومًا ليقوم جند زوجها بخلعها والسيطرة على الحكم بانقلاب سلمي، انتخب إثره عز الدين أيبك سلطانًا .

مخطوطة تصور الحصار المغولي لبغداد عام1258 ، قبل اقتحامها في 10 فبراير سنة1258 م، ويظهر في الصورة نهر دجلة.

أما الحدث الثالث، فتمثل بسقوط بغدادحاضرة الخلافة على يد المغول بقيادة هولاكو خان التتري، حيث سار هولاكو على رأس جيش ضخم بأمر من إمبراطور المغول منكو خان الذي أمر ان يخرج معه كل ذكر قادر على حمل السلاح في الإمبراطورية، ثم انضم الجيش قبائل أرمنية وجورجية وتركية وفارسية، ويرى المؤرخ آلان دمورجيه أن الجيش الصليبي المرابط في أنطاكية وطرابلس كان أيضًا من المشاركين في الهجوم.

طالب هولاكو الخليفة المستعصم بالله بالاستسلام، ولكن الخليفة رفض محذرًا المغول من العقاب الألهي الذي سيحلّ بهم في حال هاجموا الخلافة؛ يشير الكثير من المؤرخين بأن أحد أسباب نجاح الهجوم المغولي هو حالة الجيش العباسي الضعيفة وتسريح عدد كبير من جنده لتقليص النفقات خلال تولي ابن العلقمي شؤون الوزارة، فضلاً عن ضعف استحكامات المدينة وعدم تقوية أسوارها؛ يقول ديفيد نيكول بأن الخليفة بالإضافة لفشله بتجهيز آلية الدفاع عن المدينة بشكل جيد، فقد أساء كثيرًا لهولاكو بتهديده إياه، إضافة إلى وثوقه المبالغ فيه لوزيره ابن العلقمي، ما ساهم على تدمير المدينة والخلافة، مع أن مونكو خان أمر أخاه هولاكو بالمحافظة على الخلافة إن وافق الخليفة الخضوع لسلطة المغول .

قبل التوجه إلى بغداد، دمر هولاكو قبائل اللور ومن ثم حصّل استسلام الإسماعيليين والمعروفين أيضًا باسمالحشاشين بعد أن حاصر حاضرتهم قلعة ألموت في شمال إيران على شواطئ بحر قزوين، ورغم ذلك فقد قتل هولاكو الكثير منهم باستثناء نصير الدين الطوسي وأتباعه والذين لحقوا بجيش هولاكو المتوجه لمحاصرة بغداد منذ عام1256 م، قسم هولاكو جيشه إلى قسمين، وضرب حصارًا

حول بغداد بدءًا من يوم 29يناير سنة1258 م؛ دمر المغول السدود وقنوات الري مما ساهم في تدمير الزراعة وإفاضة المياه داخل المدينة، ثم إن قصف القالع والمناجيق سهلت سقوط استحكامات العباسيين الواحدة تلو الأخرى حتى أحاط المغول بالمدينة من كل جانب يوم 5 فبراير 1258م/ 30 محرم 656هـ؛ حاول المستعصم أن يفاوض المحاصرين لكن هولاكو رفض، واقتحم بغداد يوم 10 فبراير 1258م/ 4 صفر 656هـ مرتكبين مذابحًا بحق أبنائها، وبحسب بعض المصادر بلغ عدد القتلى من الجند والمدنيين مليوني شخص بل حتى من حاول من الأهالي الفرار عمد المغول إلى قتله، ويذكر أن هولاكو أمر بنقل مقر المخيم بسبب روائح الموت المنبعثة؛ كما بدؤوا عمليات سلب ونهب ثم إحراق، فتلفت المكتبات وما تحويها وقيل أن مياه نهر دجلة تحولت إلى اللون الأسود لكثرة ما رمي فيها من أوراق محترقة، وكذلك حال المساجد والقصور والجامعات، أما الخليفة فقد أمر هولاكو بحبسه ثم منع عنه الطعام والشراب حتى مات في 20 فبراير 1258م، لتزول بذلك الخلافة العباسية في بغداد .

العصر العباسي الرابع: السلطنة المملوكية

الخلافة العباسية في القاهرة (1261 – 1517)

المماليك في العربية هم من سبوا دون أبائهم أو أماتهم، وكان المصدر الرئيسي لاستيرادهم هو الأسر في الحروب أو الشراء في أسواق النخاسة؛ وكانت فكرة تجنيد العبيد قد بدأت منذ عهدالمأمون وأصبحت في عهود ضعف الدولة العباسية القوام الوحيد للجيش والمنبع الأساسي للسلطة؛ أما مماليك مصر فقد تمّ استقدامهم على يد السلاطين الأيوبيين وهم في الغالب شراكسة بيض، يتم تعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وفنون القتال منذ الصغر، تولى المماليك حكم مصر عام 1250 بعد انقراض السلطنة الأيوبية، ولم يعتمدوا في كثير الأحيان، نظام الحكم الوراثي بل نظام التوافق من ناحية والانقلابات بين زعماء الكتائب من ناحية ثانية،

وقد توالى واحدًا وأربعين سلطانًا مملوكيًا في ستة وأربعين ولاية، إذ إن عدداً من السلاطين قد خلعوا ثم عادوا إلى عروشهم؛ وقد قضى ثمانية وعشرين سلطانًا منهم اغتيالاً على يد المماليك أنفسهم، ما يعكس التنافس نحو السلطة وفقدان الاستقرار السياسي في طبقتهم، خصوصًا إثر فقدان الشرق موقعه كصلة وصل بين آسيا وأوروبا في أعقاب اكتشاف رأس الرجاء الصالح وعصر الاكتشافات والفتوح الأوروبية للعالم الجديد.

خلفاء قريش من راشدين وأمويين وعباسيين.

رغم ذلك، فقد كان للمماليك دور بارز في حماية المشرق خلال بداية عهدهم؛ فبعد أن اجتاح هولاكو بغداد وأسقط خلافتها، اتجه بجيوشه نحو بلاد الشام فاحتلّ نصيبين ثم الرها فحلب ناشرًا من الويلات ما حلّ ببغداد خلال اجتياحه لها، خلال هذه الأثناء خلع سيف الدين قطز السلطان نور الدين علي بن أيبك وقلّد نفسه شؤون السلطنة، ثم حشد الجيش وخرج به من مصر نحو بلاد الشام، حيث كان هولاكو بعد أن دمر حلب قد أحرق دمشق، وقد التقى الجيشان في معركة عين جالوت في الجليل عام 1261 كانت الغلبة في هذه المعركة الفاصلة للمماليك، فأمنت مصر شرّ المغول ووطدالمماليك أقدامهم فيها ثم استطاعوا السيطرة على بلاد الشام والحجازواليمن، مؤسسين بذلك سلطنة واسعة المساحة

توفي قطز على طريق العودة إلى مصر وأصبح الظاهر بيبرسسلطانًا من بعده؛ كان بيبرس ناجحًا في معاركه مع الصليبيين ففتحيافا وأنطاكية والقلاع المحيطة بها والتي بقيت عصيّة على الفتح حتى سنة .1268

كان قد مضى ثلاث سنوات والعالم الإسلامي دون خليفة، وكانت تلك أطول فترة شغور منذ تأسيس الخلافة في القرن السابع؛ على الرغم من أن السلطان الأيوبي في دمشق قد بايع أبا العباس أحمد خليفة ليضفي الشرعية على سلطنته

ويجابه المماليك ذوي القوة المتصاعدة فيمصر، وعندما سيطر قطز على دمشق في أعقاب معركة عين جالوت أراد خليفتها التوجه إلى القاهرة لكنه عدل عن رأيه واتجه إلى حلبالتي كانت لا تزال تحت حكم الأيوبيين، حيث بايعه أميرها ولقبه الحاكم بأمر الله، غير أن شهرة هذا الخليفة كانت محدودة فلم يخطب له خارج إمارة حلب على عكس سائر الخلفاء حتى عندما لم تكن لهم أي سلطة، فالخطبة في صلاة الجمعة تعتبر هامة للخليفة، ولذلك فقد عمد أغلب الباحثين إلى إسقاط خليفة حلب من قائمة الخلفاء، واعتبار هذه محاولة إحياء الخلافة، غير أن المحاولة الناجحة كانت على يد الظاهر بيبرس عام1262، فبعد أن أفاده وزراءه وصول الأمير أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله، عقد بيبرس حفلاً حضره رجال الدولة والشرع أثبت خلاله صحة نسب الأمير ثم تمت مبايعته بالخلافة رسميًا ولقب المستنصر بالله، وأمر بأن يضرب اسمه على النقد ويذكر في خطبة الجمعة .

طلب بيبرس من الخليفة أن يكتب له تفويضًا مطلق الصلاحية في إدارة الدولة وتسيير شؤونها، ومنحه الخليفة هذا التفويض الذي لم يترك له أية صلاحية، واقتصار دوره كرمز للدولة ومصدر شرعيتها، نصّ التفويض أيضًا على أن تعمل الدولة على استعادة بغداد وإعادة كرسي الخلافة إليها، وهو ما تمّ فعلاً عندما خرج الخليفة بنفسه على رأس جيش نحو العراق، إلا أنه قتل في إحدى المعارك مع المغول قبل بلوغه بغداد بعد خلافة قصيرة دامت بضع شهور فحسب؛ ويرى عدد من المؤرخين أن الخليفة الجديد لم يكن راضيًا عن نزوله لبيبرس بالسلطة، وأنه كان يطمح من خلال قيادته الجيش إلى الاطلاع بدور سياسي مستقبلاً، أما في القاهرة فقد بويع الحاكم بأمر الله الثاني بالخلافة ومكث بها ثلاثة عقود.

عمومًا فإن الدولة العباسية بمعنى الدولة قد سقطت مع سقوط بغداد عام 1258، أما الخلافة العباسية فقد استمرت حتى 1517 كرمز للدولة ودورها الديني في كنف الدولة المملوكية؛ ولم تسقط الخلافة العباسية إلا بعد سقوط الدولة المملوكية،

ففي أعقاب معركة مرج دابق التي انتصر بها السلطان سليم الأول العثماني على المماليك، توجه بجيشه نحو الجنوب، ففتح أغلب مدن بلاد الشام سلمًا ومنها انعطف نحو مصر حيث هزم آخر المماليك الأشرف طومان باي بعد معركة الريدانية قرب القاهرة، وقد اصطحب معه لدى رجوعه من القاهرة آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث، والذي تنازل له عن الخلافة وسلّمه رموزها أي بردة النبي محمد وسيف عمر بن الخطاب؛ وبذلك لم تؤول الخلافة من إلى العثمانيين فحسب بل انتهى الفرع الأول من فروع الخلافة كما صنف المؤرخون وهو «الفرع العربي» أو بشكل أكثر دقة «فرع قريش«، إذ إن جميع الخلفاء السابقين سواء أكانوا من راشدين أو أمويين أو عباسيين ينتمون إلى قبيلة قريش وهي قبيلة النبي محمد، وافتتح الفرع الثاني وهو» فرع آل عثمان.«

دول العباسيين بعد زوال خلافتهم (1517 – 1967)

الأمير محمد رضا العباسي، عاشر الحكام العباسيين للإمارة البستك بين عامي 1927 و1944.

نشأت عدد من الدول التي حكمتها السلالة العباسية، بحكم موقعها ورمزيتها في العالم الإسلامي بعد زوال الدولة العباسية وفي بعض الحالات قامت الإمارات العباسية قبل زوال خلافتها وإن كان بشكل مستقل عنها، كما لم يطلب أحد من هؤلاء الأمراء الحق بالخلافة بعد زوال الخلافة العباسية نهائيًا عام 1517 أو بعد إلغاء الخلافة عام1922، وعموماً فإنه لا يزال إلى اليوم، يعيش في مختلف بقاع العالم الإسلامي عدد كبير من الأسر التي تعود بأصلها للأسرة العباسية، ومنها بشكل أساسي في المملكة العربية السعودية واليمن وتركيا وإيران وبلاد الشام ومصر والسودان والهند وباكستان وأفغانستان وأوزباكستان، وعلى الرغم من انقراض آخر دولهم عام 1967 إلا أنه قد برز عدد من العباسيين في مواقع مؤثرة، كالرئيس

السوداني عمر حسن البشير والشيخ أبو قصي ماجد العباس مؤذنالمسجد الحرام في مكة وغيرهما.

- **إمارة بهدينان:** أقدم الإمارات العباسية المستقلة تأسيساً، ويعود قيامها إلى عام 1367 في كردستان العراق على يد الملك بهاء الدين العباسي أحد أحفاد الخليفة المستعصم بالله، وكانت مدينة العمادية الواقعة في محافظة دهوكحاليًا عاصمتها وقد تمددت في أوجها لتشمل أجزاءً من محافظتي أربيل ونينوى، عاشت هذه الإمارة زمنًا طويلاً، استطاعت فيه الحفاظ على استقلالها رغم كونها تقع على حدود إمبراطوريتين عظيمتين ومتحاربتين بشكل دائم هما الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الصفوية، وعلى الرغم من ذلك فلم تكن نهايتها على يد إحدى هاتين الإمبراطورتين بل على يد إمارة كردية منافسة وقريبة ومنها هي إمارة سوران عام1834، وسرعان ما قضى العثمانيون على هذه الإمارة أيضًا وأتبعوها لولاية الموصل العثمانية، هربت الأسرة الحاكمة أحفاد المستعصم بالله إلى حلب وانتقل قسم منهم إلى جيزان واليمن، وهو مشهورون إلى اليوم بكنية آل عاصم."

عمر حسن البشير، رئيس جمهورية السودان منذ عام1989، ويعود أصل عائلته لسلالة الجعليين التي تنتسب مباشرة إلى العباس بن عبد المطلب.

- **إمارة الجعليين:** قامت في شمال السودان المعاصر وينتسبون مباشرة إلى العباس بن عبد المطلب مباشرة، دون أن يكونوا من ذرية أحد الخلفاء العباسيين في القاهرة أو بغداد، بعد اندثار المماليك هرب قسم من العائلة المالكة إلى السودان حيث أعلنوا استقلالهم عام 1588 على يد سعيد أبو دبوس؛ وقد اتخذ الجعليون من مدينة شندي عاصمة لهم، توالى على حكم الإمارة سبعة عشر

أمير عباسي إلى أن قضى عليها والي مصر محمد علي باشاخلال فتحه السودان عام 1823، موحداً بذلك وادي النيل.

- **مملكة بهاولبور**، قامت في بلاد السند عام 1702 على يد الأمير محمد المبارك خان الأول، ويعود استقرار قبائل عباسية في الهند إلى بداية العهد العباسي وهم من المنتسبين مباشرة للعباس بن عبد المطلب دون المرور بالخلفاء؛ تميزت مملكتهم بالرفاه الاقتصادي والاهتمام بالعلوم والآداب خصوصًا العلوم الشرعية، لم يتم القضاء بواسطة الحرب على هذه الإمارة، بل إنه وفي أعقاب استقلال الهند عام 1947 وتقسيمها إلى دولتين هما الهند وباكستان اختار آخر الأمراء العباسيين في بهاولبور الانضمام طوعًا إلى باكستان في 5 أكتوبر.1947
- **إمارة بستك العباسية**، تأسست عام 1673 على يد الأمير عبد القادر بن الحسن أحد أحفاد هارون الرشيد، شملت منطقة الأهواز وضفاف الخليج العربي على الجانب الإيرانيمن الخليج، توالى على حكمها أحد عشر أميرًا حتى قضى عليها شاه إيران محمد رضا بهلوي عام1967، فكانت بذلك آخر دولة حكمت من قبل السلالة العباسية، وقد انتقلت الأسرة الحاكمة إلى المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والبحرين.

الخليفة هارون الرشيد كما رسم في كتاب ألف ليلة وليلة:

نظام الحكم في الدولة العباسية يستمد شرعيته من الإسلام ويتمثل ذلك بشخص الخليفة الذي هو وفق المعتقدات الدينية الإسلامية خليفة النبي محمد مباشرة ويحكم من خلال الشريعة التي أرساها، ينصّ النظام الإسلامي على أن يختار الخليفة من قبل وجهاء الدولة والمجتمع بطريقة تشبه الانتخاب وذلك مدى الحياة، غير أن هذه الطريقة لم تطبق أبدًا منذ العهد الأموي، حيث أخذ الخلفاء بتعيين ولي للعهد، بل إن بعضهم عمدوا إلى تسمية أكثر من ولي للعهد في وقت واحد ما ساهم في نشوب الصراع المسلّح بين ولاة العهد، كما حصل بين الأمين والمأمون .

هناك من يشير إلى كون الخلافة منصب ديني لا دنيوي أو جامع بين الطرفين، انطلاقًا من هناك كان الخلفاء العثمانيون ينادون بصيغة "خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين"، أي أن الخليفة هو رأس الهرم والإمام الأول دينيًا ويمكن ألا يجمع في منصبه هذا صفة الحكم، غير أن عددًا آخر من الباحثين يرفضون هذه الفكرة، لكون النبي محمد قد جمع في وقت واحد بين الزعامة والسياسية، وعلى الرغم من النظريتين المتناقضتين فإن الخلفاء العباسيون قد طبقوا كلاهما، إذ قد جمعوا بين الزعامة الدينية والسياسية خلال عهودهم الذهبية، ثم عادوا في عصور الانحطاط ليشكلوا رمز الدولة فحسب بما يشبه الجمهوريات البرلمانية في العصر الراهن، ورغم كون أغلب خلفاء آل العباس سواء في بغداد أو القاهرة لم يتمتعوا بالسلطة، إلا أن عددًا منهم حاول القبض على زمامها كما فعل المتوكل على الله أو كتب بعضهم طوعًا أو كرهًا تنازلاً للسلطان عن صلاحيات الملك كما فعل المستنصر بالله الثاني ما يدل أن النظرية الثانية كانت الأكثر انتشارًا في العصر العباسي، قبل أن تكرّس النظرية الأولى خلال العهد العثماني.

أما الخليفة عندما كان ممسكًا بقبضة الحكم، فقد كان مطلق الصلاحية باستثناء الحدود والضوابط التي وضعتها الشريعة الإسلامية، وإن كان هناك تفاوت واضح في نسب الالتزام بهذه الحدود، حسب كل خليفة.

السلاطين والولاة

صورة معلقة على ضريح صلاح الدين الأيوبي في دمشق تظهر السلطان، الذي يعتبر من أبرز السلاطين المستقلين عن سلطة بغداد.

أول لقب حازه الرجل الثاني في الدولة العباسية هو "وزير"، كانت مهمة الوزير خلال عهد القوة العباسية مساعدة الخليفة في إدارة شؤون البلاد والإشراف على تنفيذ ما يقرره الخليفة فقط، لاحقًا، وبنتيجة تولي قادة الجيش الأتراك الوزارة

مال ولاء الجيش من شخص الخليفة إلى شخص قائدهم الوزير، وبالتالي مال ميزان قوة التأثير من الخليفة إلى وزيره الذي أصبح لقبه السلطان، وبات في بعض الأحيان يحصر مهام السلطنة بذريته فقط؛ لم يكتف السلاطين بذلك بل احتكروا السلطة فعليًا وقاموا لا الخلفاء، بتسيير شؤون البلاد والدولة، بل إن كثيرًا من الخلفاء قضوا قتلاً أو اغتيالاً على أيدي سلاطينهم، كما حصل مع المتوكل على الله والمسترشد بالله والمعتز بالله والمقتدر بالله وغيرهم.

حصار إمارة طرابلس على يد المماليك عام.1289

لم يكن منصب السلطان واحدًا فقط خلال عهود ضعف الدولة، بل إن ولاة الولايات العباسية، قد تحولوا إلى سلاطين على ولاياتهم يحكمون فيها ويورثون حكمها لذريتهم دون أن يتركوا للخليفة أو سلطة بغداد بشكل عام، غير الخطبة في صلاة الجمعة وسك اسم الخليفة على النقد؛ وهكذا لم يكن هناك سلطان واحد بل مجموعة سلاطين مستقلين بشؤونهم الداخلية والخارجية تحت سيادة الخليفة الاسمية، بما يشبهالكونفدرالية في الوقت الحاضر، مع الإشارة إلى تحارب هؤلاء السلاطين وهذه الدول بين بعضها البعض في كثير من الأحيان، بل وتوسعها على حساب بعضها البعض حتى تستولي على بغداد نفسها كما حصل مع الدولة البويهية والدولة السلجوقية.

الجيش

المدقة أحد الأسلحة التي كانت مستعملة في العصر العباسي في دكّ أسوار القلاع والحصون.

الجيش العباسي كان جيشًا دائمًا مستقرًا، يقيم أغلب جنده في بغداد إلى جانب الخليفة مع وجود جيوش منفصلة في الولايات، ومن ثم للدول التي نشأت في

كنف الدولة العباسية، كان الجيش خلال عهد القوة يأتمر بأمر الخليفة ثم بات خلال عهود الضعف يتحرك بأمر الولاة والسلاطين، لم يكن هناك عسكرية إجبارية في الدولة العباسية، غير أن كل ذكر قادر على حمل السلاح يجب عليه الانضمام للجيش عند إعلان الجهاد بما يشبه النفير العام في حالات الحرب؛ والجيش العباسي هو بالمقام الأول جيش عقائدي يقوم على المفاهيم والشرائع الإسلامية والتي أبرزها نشر الإسلام وحماية الخلافة.

كان ينفق على الجيش من خزينة الدولة مباشرة، ولما زاد عدد الجند إلى درجة أثرت على الأسعار والاستقرار المعيشي في بغداد اضطر الخليفة نقل عاصمة الدولة إلى سامراء مسكنًا كتائب جيشه فيها، وفي عهود الضعف اللاحقة لعب الجيش الدور البارز في إدارة دفة الحكم وشكل قادة الجيش جزءًا أساسيًا من الطبقة الحاكمة، بل إن مهمة الجهاد والدفاع عن حدود الدولة تركت لجيوش سلاطين الولايات أغلب الأحيان، في حين اهتمّ جيش الخلافة في بغداد بالحروب الداخلية وتعيين الخلفاء والسلاطين وعزلهم، على أن جيش بغداد قد تبع دومًا لإمرة السلطان مع وجود فصيل مستقل يدعى «حرس الخلافة» ويلقب قائده بـ«مؤتمن الخلافة» يتبع القصر مباشرة، وعمومًا فإن جيوش الولايات كانت أكبر وأقوى من جيش بغداد وحققت إنجازات أعمق كجيشي الدولة الزنكية والدولة الأيوبية .

أما أسلحة الجيش فقد كانت بالنسبة للجندي تقليدية ممثلة بالسيوف والدروع والهروات، وتمتع الجيش بأسلحة أخرى متطورة بمقاييس عصرها كالمنجنيق والمدقة والدبابة القديمة،غير أنه في عصور انحطاط المماليك كان الجيش من ناحية الأسلحة متخلفًا ولم يدخله البارود والسلاح الناري مطلقًا ما سهل سيطرة العثمانيين على البلاد بين عامي 1516 و1517.

فكـرة الإنكشـارية الـتي ترعرعـت وازدهـرت لاحقًـا خـلال عهـد الدولـة العثمانية وظلت جيشها الرسمي حتى عهد السلطان محمود الثـاني، إنمـا تأسسـت في كنف الدولة العباسية، ومنذ فترة مبكرة خلال خلافة المأمون؛ بيد أن أضخم تطبيق لها كان خلال أواخر أيام الدولة الأيوبية، تقوم فكرة الإنكشارية على شراء عبيد صـغار في السن أو أسرهـم خلال الحروب ومنحهم في معسكرات خاصة منذ نعومة أظفارهم تربية عسكرية وتدريبًا على حمل السلاح، وتلقينهم العقيدة الإسلامية وحمايـة الخليفـة أو السلطان، وقد دعي هؤلاء في العصـر الأيـوبي بالمماليـك، واسـتطاعوا الانقـلاب على الأيوبيين أنفسهم وتأسـيس سـلطتهم الخاصـة؛ أمـا مـن ناحيـة المعـارك فعـوّل السلاطين عليهم في تحقيق النصر، سواءً في الدولة العباسية حـين قضـوا علـى إمـارة طرابلس وإمارة أنطاكية التـابعتين للصـليبيين وصـدّوا هجمـات المغـول وقـد اشـتهر عن المماليك القوّة في الحـرب، أو في الدولـة العثمانيـة حـين فـتح السـلاطين أغلـب أمصارها بواسطتهم، غير أن طلباتهم المتكررة دفعت الدولـة للـتخلص مـنهم خـلال سلطنة محمود الثاني في القرن التاسع عشر.

الإسلام

إحدى مآذن الجامع الأزهر، أسسه الفاطميون كمدرسة للطائفة الإسماعيليـة وحوله صلاح الدين الأيوبي إلى مدرسةللسنة بعد توليه مصر عام1171، ويعتبر مـن أهم المراجع الدينية حتى اليوم.

بسملة مزخرفة بشكل إجاصة ترقى لمنتصف القـرن الرابـع عشـر، أي زمـن الخلافة العباسية في القاهرة.

يعتبر الدين الإسـلامي أحـد المقومـات الرئيسـية الـتي قامـت عليهـا الدولـة العباسية، وقد شهد هذا الدين في كنفها تطورًا كبيرًا كـان لـه الأثـر السـلبي في بعـض الأحيان وأثر إيجابي في أحيان أخرى، فإن انتشار الإسلام بين الشعوب غـير المسـلمة

وفهم هذه الأخيرة للإسلام بطريقتها الخاصة المتأثرة بفلسفاتها ومعتقداتها القديمة، فضلاً عن الاجتهادات الخاصة لبعض الفقهاء، أدى إلى نشوء طوائف ومذاهب عديدة داخل المؤسسة الإسلامية نفسها، بعضها اندثر والبعض الآخر لا يزال حتى اليوم.

من الطوائف الإسلامية التي نشأت خلال العهد العباسي المعتزلة والمرجئة والإباضية وغيرهم، كما نشأت عن الطائفة الشيعية عدة طوائف نتيجة اختلافات فقهية أو اختلاف حول وراثة منصب الإمام الشيعي فنشأت بذلك الطائفة الإسماعيلية والعلوية والدرزية، أيضًا فإن بدايات الصوفية نشأت في العصر العباسي وترعرعت فيه مدارسها وتقنياتها المختلفة وصيغت أدبياتها، ولم تكن العلاقة جيدة بين مختلف الطوائف، رغم أن الباحثين يسوقون قيامها إلى الغنى الثقافي والتنوع الحضاري، إذ قامت العديد من الفتن والاقتتالات الطائفية بين مختلف الطوائف وبشكل متواتر طوال تاريخ الدولة ما أثر على وحدتها وولاء مواطنيها.

من أبرز تأثيرات العصر العباسي أيضًا، ظهور وتطور المذاهب والمدارس الفقهية التي حصرت بأربع مدارس كبرى هي الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية، وكانت هذه المدارس شكلاً من أشكال التنوّع في تفسير العقيدة، وغالبًا ما كان الخلفاء يحيطون أنفسهم بقضاة من المذاهب الأربعة كذلك الحال في الجامعات الكبرى المعنية بالشريعة كالجامعة المستنصرية، وتميّز العهد العباسي أيضًا بالاهتمام بجمع الحديث النبوي وغربلته بقصد التحقق من مدى دقته وصلته بالنبي محمد، وإن أشهر جامعي الحديث قد برزوا خلال العصر العباسى كالبخاري ومسلموالترمذي وأحمد وغيرهم، مما لا يزال فقهاء الإسلام يعتمدون عليهم إلى اليوم، ما يدلّ على التأثير العميق للعصر العباسي في العلوم الشرعية والفقهية، ونشأت عدة مدراس تختصّ بعلوم الحديث أشهر هذه المدارس مدرسة المدينة المنورة ومدرسة أهل الرأي في العراق، وظهر علم ((قراءات القرآن)) في العصر العباسي، منعًا لاختلاف القراءات بحكم تعدد اللهجات، واختير في سبيل ذلك سبعة قرّاء اشتهروا بعلمهم وفضلهم، بل إن

العباسيين حتى في الأزمنة التي كفوا فيها عن رعاية العلوم والفنون لم يكفوا قط عن رعاية المدارس الفقهية وتمويلها، وانطلاقًا من هنا فإن الغزو المغولي الذي دمر المدن الكبرى وأتلف محتويات المساجد والمكتبات في بغداد وحلب ودمشق ترك المسلمين في حال تصفها المستشرقة كارين آرمسترونغ باليتم، ففقهاء العصر المملوكي لم يكونوا مهتمين بتطوير الفتاوي والاجتهادات الفقهية بقدر ما كانوا مهتمين بإعادة تجميع ما قد ضاع وفقد منها.

رجل دين درزي، إحدى الطوائف التي نشأت في كنف الدولة العباسية.

على مستوى الطائفة الشيعية، فإن العصر العباسي يعتبر حاسمًا في تكوين معالم هذه الطائفة كما تبدو اليوم، إذ إن الدعوة العباسية وإن قامت على تقارب مع الشيعة إلا أنها سرعان ما انقلبت عليهم، ورغم أن العباسيين قد حفظوا الإمامة الشيعية قائمة كما تم الاتفاق بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان إلا أنّ أغلب الأئمة الشيعة إما اغتيلوا أو سمموا من قبل الخلفاء، وعلى الرغم من أن الإمام السادس جعفر الصادق قد حرّم التدخل في شؤون الدولة على الشيعة إلا أن العلاقة قد ظلت متوترة، الإمام الثاني عشر محمد المهدي اختفى خلال خلافة المتوكل على الله بظروف غامضة، ويعتقد الشيعة حتى اليوم أن الإمام هو في حالة غيبة بسبب استشراء الظلم والفساد في المجتمع وأنه سيعود قبل موعد يوم القيامة ليقيم الحكم الإسلامي العادل، في الحقيقة إن عقيدة غيبة الإمام التي ظهرت في العصر العباسي ستشكل إحدى الركائز الأساسية للطائفة الشيعية ومعتقداتها.

الجدالات الدينية الإسلامية الفلسفية كانت إحدى سمات العصر العباسي خصوصًا في عهود القوة، أبرز هذه الجدالات الدينية الجدل الذي حصل حول أزلية القرآن أو خلقه، إذ قالت المعتزلة والإباضية بخلق القرآن ودعمهم الخليفة المأمون، في حين قالت الأشاعرة والسنة بأزلية القرآن، الجدل الدائر لم يحسم بعد، إذ إن بعض

الفرق لا تزال تقول بخلق القرآن استنادًا إلى عدد من آيات القرآن ذاته منها :(قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) في حين أن أغلب المسلمين يرفضون ذلك استنادًا إلى كون القرآن بوصفه كلام الله جزءًا لا يتجزأ عنه، وإن جعل القرآن مخلوقًا يؤثر على حال الألوهية غير القابلة للتبديل، لطالما قارن المؤرخون وعلماء الدين المقارن بين هذا الجدال والجدال المسيحي في القرن الرابع حول خلق المسيح أو أزليته، وقد عقد مجمع نيقية عام 325 للفصل به وانتهى للقول بأزلية المسيح تمامًا كالقول بأزلية القرآن، بوصف كليهما في دينهما ((كلمة الله)) الجدال الثاني كان منبعه تضارب التفسير لآية :(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) حيث ذهب البعض للقول بالتفسير الرمزي للآية وتمسك البعض بوجود عرش الله، وأغلب المسلمين من سنة وشيعة اليوم يقرون بالتفسير الرمزي أو التأويل لهذه الآية دونما تفسيرها حرفيًا، هناك قضايا أخرى كانت محط جدال في العصر العباسي كالجدال حول رؤية الله في يوم القيامة أو نفيه والجدل المتعلق حول جنس الملائكة والجدل المتعلق بالجبر والاختيار، وغيرهم من القضايا.

ومع كون الإسلام هو دين الدولة، غير أنه لا يمكن تحديد مذهب من مذاهبه أو طوائفه دينًا رسميًا، فخلال خمسة قرون من عمر الخلافة في بغداد، كان دين الدولة يتأثر بطائفة الخليفة، فالمأمون والمعتصم والواثق أعلنوا الاعتزال عقيدة الدولة، وقام المتوكل بتعيين الشافعية مذهبًا رسميًا، أما المستعصم بالله فكان يميل نحو الشيعة وكذلك الخلفاء الذين تعاقبوا خلال الدولة البويهية، على عكس الخلفاء الذين تعاقبوا خلال الدولة السلجوقية ومالوا نحو السنة.

خلال عصر القوة والازدهار العباسي كانت العلاقة بين الدولة ومواطنيها غير المسلمين تصنف على أنها في أحسن الأوضاع خصوصًا خلال خلافتي المنصور والرشيد، وقد جاء في «المنتجب العاني» لمؤلفه أسعد علي أن الخلفاء كانوا يحتلفون بالأعياد المسيحية كعيد الميلاد وأحد الشعانين حتى في قصر الخليفة، فيضع الخليفة وحاشيته أكللة من زيتون ويرتدون الملابس الفاخرة، وقد بنيت في بغداد كاتدرائيتان

مع تشييد المدينة، ولعلّ أبرز الدلائل والشواهد عن التعايش الديني والعيش المشترك أشعار أبي زيد الطائي والأخطل التغلبي كذلك ما رواه ابن فضل العمري بكتابه «مسالك الأبصار» وما جاء في كتاب «مسالك الممالك» من وصف للحياة بين المسلمين والمسيحيين في البلاد التي زارها، وقد نقل في كتابه ذاته أنه الرها العباسية وجوارها كان هناك ثلاثمائة دير، كذلك فإن كتابات المؤرخين السريان كالتلمحري وميخائيل الكبير وغيرهما تدلّ عل ذلك، ومراسلات طيموتاوس بطرير كالنساطرة لذي جمعته صداقة مع أبي جعفر المنصور حتى لقبه «أبي النصارى»، ويذكر آيضًا عددًا من الخلفاء والأمراء والولاة كانوا يقيمون خلال تنقلاتهم في الأديرة وقد سجلت أديرة الرصافة ودير زكا ودير القائم قرب البوكمال زيارات لخلفاء عباسيين، كما أنّ العباسيين لم يجبروا القبائل المسيحية العربية كتغلب وغمر وطيءوبني شيبان وقبيلة إياد على الإسلام، وإنما الأسلمة جاءت في القرون اللاحقة التي شهدت اضطهاد الأقليات خصوصًا القرن العاشر.

أما اليهود فعوملوا كالمسيحيين، ارتقى بعضهم مناصب مرموقة في الدولة، وأصبح حاخام بغداد رأسًا للطائفة اليهودية في العالم بسبب التسامح والرعاية، وبنى الخليفة المعتضد لليهود مدرسة تلمودية في بغداد، وفي عهدالخليفة المستنجد عام 1170قدر عدد اليهود في بغداد وحدها بأربعين ألفًا، اشتهروا خلالها بالنشاطات الاقتصادية من تجارة وصيرفة على وجه الخصوص .

كذلك حال المندائيون الذين اعتبروا في الفقه الإسلامي من أهل الكتاب، وانتشروا في الأحواز وجنوب العراق وكانت مدينتي واسط وميسان عواصم لهم، وقد نقل وجود أربعمئة مشكينا في ميسان أوائل العصر العباسي، واشتهر منهم عدد من القضاة ورجال العلم والأدب.

لم يقتصر الأمر على ذلك بل إن حران وجوارها كانت مركزًا وثنيًا كبيرًا تعبد فيها الكواكب والأفلاك، وقد تسامح الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون مع وثنية أهل حران إلى عهد المأمون، إذ إن المأمون مرّ بحران عام830 فاغتاظ من الوثنية وطلب من أهلها التحول إلى الإسلام أو إحدى الديانات التي يعترف الإسلام بها، فدخل الحرانيونبالصابئة غير أنهم ظلوا وثنيين ومن هنا يمكن التمييز بين طائفتي صابئة، الصابئة المندائيون في جنوب العراقوالصابئة الحرانيون الوثنيون، ويمكن القول أن الحرانيين لم يقوموا سوى بتغيير شكلي، ظلت حران على هذه الحال إلى أن دمرها تيمورلنك في القرن الرابع عشر ويذكر أبو الفداء أنها قد تحولت إلى كومة خراب وانقرض دين معتنقيها بعد غزوه هذا، وعلى الرغم من هذا، فيجب الإشارة إلى أن أتباع الأديان غير الإسلامية حتى خلال هذه المرحلة، لم تكن مساواتهم بسائر الرعايا من المسلمين كاملة، فيما يخصّ الزواج أو الميراث أو إنشاء دور العبادة في بعض المراحل.

القسم الأكبر من هذا التعايش تبخر خلال عصور الانحطاط، فهدمت الكنائس ومنع أبناء هذه الأديان من ركوب الخيل ومزاولة بعض الأنشطة التجارية والاقتصادية أو الإقامة في دور مرتفعة، كما أنهم قد عوملوا كرعايا من الدرجة الثانية وأخذ السلاطين والولاة يستبدون بهم وكان البدو يقتحمون الكنائس والأديرة لسلبها على ما يذكر المؤرخ ابن بطريق والمسعودي وغيرهما، كانت إحدى نتائج ذلك، هجرة المسيحيين الذين رفضوا اعتناق الإسلام من المدن نحو الجبال، وهكذا أخذ الموارنة بالنزوح من وادي العاصيباتجاه جبال لبنان العصيّة، وكذلك سجلت حركات هجرة مسيحية نحو طور عابدين وماردين وغيرها من الأماكن المنعزلة عمومًا لا يمكن أن يفهم أن الاضطهادات كانت مستمرة، إذ كانت تخف وتيرتها بين الفنية والأخرى؛ وقد شملت جميع الأقليات الدينية وفي بعض الأحيان حتى الإسلامية

منها، يذكر أنه عندما دخل هولاكو بغداد أمر بعدم التعرض للمسيحيين لكون زوجته مسيحية ومن أتباع كنيسة المشرق الآشورية، وأمر ببناء كاتدرائية في بغداد.

يعتبر الشعر في العصر العباسي ثالث حلقات الشعر العربي القديم وأكملها، الحلقة الأولى كانت الشعر الجاهلي والثانية كانت صدر الإسلام والعهد الأموي، لتكون الحلقة الثالثة العصر العباسي، حيث بلغ الشعر مبلغًا عاليًا بدعم الخلفاء والأمراء وتحسن أحوال المعيشة، وتخرّج في هذا العصر أبلغ شعراء العربية وأفصحهم ومنهم لا تزال أشعاره تتداول حتى اليوم، ولم يكن تطور الشعر في العصر العباسي تطورًا في مادته أيضًا بل في علومه أيضًا، إذ قد جمع الخليل بن أحمد الفراهيدي أوزان الشعر في خمسة عشر بحرًا ثم أضاف إليها الأخفش بحرًا واحدًا فظهر بذلك علم العروض بجهود العباسيين، وإن أبرز ما يميز الشعر العباسي تنوّع المواضيع التي طرحها، والتي شملت جميع أطياف المجتمع ومواضيعه، بل إن هذه المواضيع يمكن أن تشكل مرجعًا في دراسة الأحوال الاجتماعية والسياسية خلال مراحل الدولة العباسية المختلفة؛ فمن مدح الخلفاء خلال عهود القوة والذين قاموا بتقديم الدعم المالي للشعراء، إلى التذمر من ضنك العيش وفقر الحال واستشراء الفساد خلال عهود الضعف، كان الشعر دومًا أبرز الميادين التي تعكس حياة المجتمع، نظرًا لكونه العماد الرئيس للثقافة في العصر العباسي.

أحد أبرز التيارات الشعرية، كان تيار الغزل الماجن، ومن شعراء هذا التيار أبو نواس في قصائده المعروفة بالخمريات، وبشار بن برد الذي ولد أواخر العهد الأموي في مدينة البصرة جنوب العراق، ونقل أنه كان مخالطًا للعلماء والشعراء واشتهر بالتردد على الحانات ما ظهر في أدبه شعرًا ماجنًا حتى قتل بتهمة الزندقة ومن أشعاره في وصف إحدى المغنيات البغداديات :أما النوع الثاني من الشعر الديني، فهو التيار الذي غلب عليه الزهد والتأمل الفلسفي في الحياة والله، ولعلّ أبو العتاهية المولود في الأنبار عام 750 أبرز شعراء هذا التيار، بل إن البعض من الباحثين

يعتبره مؤسسًا لتيار الزهد الشعري كما يعتبرونه قد ارتقى بالشعر الزاهد ليبلغ الفلسفة والحكمة؛ وعندما توفي عام 825 كان قد ترك دووادين عدة في الشعر الزاهد، رغم أنه لم يلتزم في جميع قصائده بقواعد الشعر كالعروض .ووما قاله أبو العتاهية في الزهد:

وقد بلغ الشعر الزاهد لدى بعض الشعراء كأبو العتاهية نفسه مبلغًا أنكر من خلاله جدوى الدين واكتفى بالتسليم بالله؛ أما النوع الثالث من الشعر الديني، فهو التيار الصوفي، وقد تعدد رواده ليس فقط في الدولة العباسية وإنما في الأندلس أيضًا، من الشعراء الصوفيين ابن الفارض المولود في مصر عام 1180 وابن سينا الطبيب والفيلسوف والشاعر المولود في بلاد فارس عام980 ، وأبو حامد الغزالي المولود عام 1059 والذي عاصر الاقتتال الطائفي بين المعتزلة والأشاعرة، ومن الشعراء من أسس نمطاً خاصاً من الشعر الصوفي يدعى الشطح، كان من رواده أبو يزيد البسطامي.

بعيداً عن الشعر الديني، فقد استمر الشعراء العباسيين بالافتخار بأنفسهم والاعتداد بما صنعوا أو الافتخار بقبائلهم، قال الشاعر المتنبي أحد أبرز شعراء العصر العباسي مفتخراً بموقعه في المجتمع الذي أخذ الفساد فيه بالانتشار وقام صفي الدين الحلي بالسير على عادة العرب القدماء بالافتخار بقبائلهم وقوتهم في ساحات الوغى،وإلى جانب قصائد المدح، فقد كان للهجاء نصيبًا في الشعر العباسي، وأغلب الشعراء قد كتبوا في هذا النمط الشعري ومنهم دعبل الخزاعي من مواليد البصرة عام 769في هجاءه والي الرحبة مالك بن طوق، وإلى جانب المدح والهجاء كان للرثاء دور في الشعر العباسي وأبرز من نظم قصائد الهجاء الشريف الرضي وأبو تمام، ولم يغب الشعر الوصفي الذي درج عليه العرب القدماء عن ساحة الشعر العباسي، بل إن أغلب الشعراء استهلّوا قصائدهم بوصف الطبيعة أو غيرها من المواضيع قبل الولوج في صلب الموضوع الخاص بقصيدتهم، ولعلّ صفي الدين الحلي وأبي تمام من

أبرز شعراء الوصف في ذلك العصر، ومن التيارات الشعرية الأخرى التي انتشرت كان شعر الغزل الذي احتلّ النصيب البارز إذ تتعدد القصائد التي تصف الحبيب وتتغزل بشيمه وأوصافه، والتيار الاجتماعي وأبرز شعرائه ابن فارس وأبو العلاء المعري، فضلاً عن محاولة تأريخ الأحداث وحل المساجلات الدينية من خلال الشعر.

وإن كان الشعر العباسي هو بالدرجة الأولى شعر عربي، غير أنه قد برز العديد من الشعراء الذين شادوا بلغات أخرى خصوصًا الفارسية والتركية ولاقوا دعم الأمراء والسلاطين في مناطقهم، من أمثال هؤلاء جلال الدين الرومي المولود عام 1207 والذي كتب بالفارسية وأسس الطريقة المولوية وفي ديوانه المثنوي خمس وعشرون ألف بيت شعر؛ وهناك منصور أبو القاسم الفردوسي المولود عام 940 مؤلف ملحمة الشاهنامه، ومن الشعراء الذين كتبوا بالتركية يونس الإمري.

الأدب

كان الأدب أحد المجالات الثقافية البارزة في العصر العباسي، وقد تطورت العلوم الأدبية بشكل كبير فظهر فن السجع وفن المقامات، وهي عبارة عن قصص خيالية لبطل أوحد عادة ما تكون ذات مغازي أو تهدف للمطالبة بإصلاحات معينة؛ وكان أول من صاغها بديع الزمان الهمذاني، وقد غلب عليها التكلف الأدبي، وأحد أشكالها المقطع الآتي في وصف ظلم أحد القضاء للهمذاني" :وأقسم لو أنّ اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيّات السود، لكانت سلامته أحسن من سلامته إذا وقع في غيابات هذا القاضي وأقاربه"، كما انتشر فن الروايات والقصص ذات العبر ككتاب كليلة ودمنة لابن المقفع والذي مرر من خلاله نقدًا لاذعًا لولاة الأمر على ألسنة حوار جرى في مملكة الحيوان، رغم أن النصّ الأصلي قادم من الأدب الفارسي غير أنّ ابن المقفع قد زاد عليه ومن خلال ترجمته لعب دورًا بارزًا في المجتمع العباسي ومنه تحول إلى أدب عالمي، ولابن المقفع كتابات أخرى أدبية تعكس الحالة الثقافية

السائدة كمؤلفه «الأدب الصغير»، في حين نحا الجاحظ في مؤلفه البخلاء إلى سرد قصص قصيرة وفكاهية حول نوادر البخلاء، وقد نال كتابه نجاحًا عارمًا في أوساط المجتمع العباسي.

علي بابا داخل الكهف السري، أحد قصص الأدب العباسي؛ بريشة ماكسفيرد باريش عام 1909.

مثال على تطور الكتابة العربية بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر (1) : البسملة كتبت دون نقط أو شكل، (2) نظام أبي الأسود الدؤليويَعتمد على تمثيل الحركات بنقاط حمراء، وتُستعمل النقطتان للتنوين، (3) تطور النظام بتنقيط الحروف، (4) نظام الخليل بن أحمد الفراهيدي المستعمل إلى اليوم، وهو وضع رموز مختلفة للحركات فيما تبقى النقاط لتمييز الحروف.

خصائص الأدب العباسي، تتميز بفصاحة اللغة المستعملة من ناحية، وتنوع الأساليب الأدبية، فخلال المراحل الأولى من عهد الدولة كان الأدب يستعمل جملاً قصيرة وذات معاني واضحة مبتعدًا عن التكلّف الأدبي أو فنون الخطابة من زخرفة لفظية أو ترادف وتضاد وسجع وسواه، ومع ازدهار الدولة وظهور العدد الوفير من الأدباء والشعراء والقصاصة، أخذ تجميل النصوص والعناية بمفرادتها يصبح أمرًا شائعًا بل تحوّل في واقع الأمر، إلى منافسة بين الأدباء وسجالات في بعض الأحيان، كالسجال الذي نشأ أواخر القرن العاشر بين بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي، وأحيانًا كانت السجالات تتخذ مواضيع معينة كالنقاش حول أفضلية الديك أو الطاووس أو منافع الكلب ومساوئه، أو إبداء الرأي في السجالات الدينية القائمة والصراعات بين المذاهب والمدارس المختلفة، حتى شبه البعض تلك المرحلة بالنقاشات السفسطائية، ومال عدد من النقاد السالفين والمعاصرين، إلى اعتبار التكلّف الأدبي رغم جماليته، نوعًا من أنواع الضعف حيث يغلب الشكل على المعنى، وتُحدّ

الجمل بالقيود اللفظية والزخارف البديعية، وقد تراجع الأدب العباسي بدرجة كبيرة، خلال العصر المملوكي وزمن الخلافة العباسية في القاهرة.

وإلى جانب الأدب المكتوب، انتشر الأدب المحكي ومنه قصص ألف ليلة وليلة التي يندرج تحت إطارها جميع القصص الخيالية التي دونت بالعربية ومنها سندباد وعلي بابا وعلاء الدين والمصباح السحري وغيرها من القصص التي كانت تروى في جلسات السَمَر بشكل شفهي وتتناقل على ألسنة الحكواتية حتى تمّ تدوينها في القرن العاشر لمحاولة ضبط النص، ورغم أنتشارها في أوساط العامة غير أن نصوصها كانت مزخرفة بمجملات العبارات ومطعمة بالأشعار المحلية، ويمكن أن يدرج تحت هذا التنصيف الأدبي أيضاً قصص الزير سالم وعنترة بن شداد، وهي على الرغم من كونها قصص تاريخية حقيقية إلا أنه قد تم توسيعها وزخرفتها لتناسب الذوق العام، وعندما ترجمت إلى اللغات الأوروبية عام 1704 قصصألف ليلة وليلة للمرة الأولى لاقت نجاحًا منقطع النظير وقد شرحها وعلّق عليها أكثر من كاتب واستمرت دور النشر في أوروبا بإعادة طباعتها حتى1838، ما دفع الناقدة رنا قباني لاعتبار قصص ألف ليلة وليلة وأدبها ثورة القرن الأدبي في أوروبا، بل وقد أثرت هذه القصص على الكتاب الأوروبيين نفسهم فظهر على سبيل المثال التشابه بين رواية كليوماد فيفرنسا وقصة «الحصان المسحور» العربية، ورواية بيير دو بروفانس المطابقة لقصة «قمر الزمان» المندرجة ضمن أدب ألف ليلة وليلة أيضًا، ويرى عدد من النقاد أن مجنون ليلى التي تندرج ضمن الأدب العباسي وتعكس علاقة الغرام بين قيس وليلى، قد اعتمد عليها ويليام شكسبيرفي مسرحيته" روميو وجولييت"، فعلى الرغم من أن المسعودي لم يجد لهذه القصص أي أهمية سوى التسلية الهابطة وذلك في كتابه «مروج الذهب»، وكذلك ابن حاتم حين أشار إلى انتفاء قيمتها الأدبية، إلا أن الأدب العباسي قد بلغ ذروة نجاحه عن طريقها، سواءًا في الشرق أو في الغرب.

وتشير رنا قباني أن سبب نقد مثقفي العباسيين كالمسعودي وابن حاتم لهذا التيار الأدبي، يعود لانتشاره في أوساط العامة ولتركيزه على اهتماماتهم؛ فيغلب قصصه تناول جمال النساء ومكرهنّ وخبثهن، والإشارة إلى البذخ والثروات الطائلة، فهو أدبٌ موجه أساسًا لجمهور ذكوري وفقير، إلى جانب هذا النوع من الأدب انتشر في العصر العباسي أدب الرحلات، وأقبل الناس على هذا النوع الأدبي لما تضمنه من معلومات عن أقطار الدولة البعيدة أو حتى تلك تقع في الصين أو الهند، لمعرفة طرق حياتهم ومن كتاب أدب الرحلات الإدريسي الذي كتب عن جنوب شرق آسيا في القرن الثاني عشر، ولم يكن أدب الرحلات دومًا أدبًا علميًا دقيقًا فأدخلت عليه الأساطير والمبالغات التي استسيغت في المجتمع كأسطورة بلاد الواق واق والتي ذكر عنها ابن خرداذبة في القرن التاسعأنها كثيرة الذهب حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب.

نحو اللغة

مقال تفصيلي: نحو عربي

شهد العصر العباسي تطوراً هاماً في بنية اللغة العربية، إن أغلب الباحثين يعيدون نشأة النحو العربي إلى أبو الأسود الدؤلي والذي كان أيضًا أول من وضع النقاط على الحروف في الأبجدية العربية، غير أن التطور الهام للغة إنما تمّ خلال المراحل اللاحقة للدؤلي، خصوصًا في العصر العباسي، حيث اشتهر فيه أبرز النحاة كعيسى بن العمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه الملقب "إمام العربية"، ويونس بن حبيب والكسائي مؤسس مدرسة الكوفة في النحو، والأصمعي والزمخشري وسواهم، وخلال هذا العصر، أعيد ترتيب الأبجدية بالشكل المتعارف عليه اليوم، بعد أن كانت مرتبة وفق الترتيب التقليدي للغات السامية، كما ظهر التشكيل بالشكل المتعارف عليه اليوم، وذلك على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي،

سوى ذلك، فإن اختلاط العرب بالشعوب الغير عربية والتفاعل الحضاري بين هذه الشعوب، أدى إلى دخول العديد من المصطلحات الغير عربية إلى هذه اللغة ومنها كلمة بيمارستان الفارسية الأصل والتي تعني المستشفى، وكلمة "عمق" العربية المنحوتة من فعل "عمقو" في السريانية، بل إن ازدهار العلوم وتطور الآداب دفع إلى ظهور مصطلحات جديدة كالجوهر والحد والجبر والعنصر والترياق وسوها ما دفع البحتري للقول: ((أراكم تتكلمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس في كلامنا))،وهو ما دفع أيضًا إلى ظهور المعاجم والقواميس الخاصة باللغة العربية، مستندة إلى القرآن والشعر الجاهلي بشكل رئيسي، وكان الخليل بن أحمد أول من جمع قاموسًا سماه «العين»، على أن القواميس اللاحقة قد نالت شهرة أكبر ولا تزال مستعملة حتى اليوم، كلسان العرب لمؤلفه ابن منظور والقاموس المحيط للفيروزآبادي .

وقد أدى هذا الاختلاط أيضاً وبشكل تدريجي، إلى نشوء اللهجات المحلية في العربية خصوصًا خلال عهد الدولة المتأخر؛ ويعود سبب نشوء اللهجات واختلافها إلى اللغات التي كانت سائدة قبلاً، فتأثرت اللهجات الشامية والعراقية بالسريانية واللهجة المصرية بالقبطية أما لهجات المغرب العربي فقد تأثرت باللغتين الأمازيغية والبربرية.

العمارة

مقال تفصيلي:عمارة إسلامية

مئذنة مسجد المتوكل على الله في عاصمته سامراء، أحد أشكال العمارة العباسية.

اهتم العباسيون خلال عهود قوتهم بالناحية العمرانية عناية واضحة، فأنشؤوا عدداً من المدن الجديدة برمتها، ولعلّ أشهرها عاصمة الدولة بغداد ومن

المدن الأخرى التي شيدها العباسيون سامراء والمتوكلية والرحبة في الجزيرة السورية وغيرها، كما قام العباسيون بإنشاء شبكة واسعة من الطرق والجسور خصوصًا في العراق حاضرة الخلافة، وشيدوا المدارس والجامعات والمستشفيات والحمامات العامة في المدن الكبرى وقد ذكر المؤرخ ابن جبير أن في مدينة دمشق وحدها أكثر من مائة حمام، إضافة إلى التكايا التي تستضيف الفقراء والفنادق المخصصة باستقبال الغرباء عن المدينة؛ كما قام العباسيون بتزويد الطرق العامة سواءً في المدن أو خارجها بصنابير المياه بحيث يستطيع عابر السبيل أن يرتوي من الطريق مباشرة.

تأثر فن العمارة العباسية بالعمارة العراقية القديمة خصوصاً الأشورية وكذلك العمارة الفارسية، ولعل تصميم بغدادبشكل دائري له أربع أبواب هو أحد أبرز أوجه التأثر بالعمارة الآشورية إذ إن المدن التي بناها المسلمون سابقًا إما مربعة كالقاهرة أو مستطيلة كالفسطاط، ومن العراق انتقل هذا النمط المعماري عن طريق الولاة والسلاطين إلى مصر وبلاد الشام، في حين يشكل استعمال الآجر والطين لبناء القصور بدلاً من الحجارة أبرز تأثرات العمارة العباسية بالعمارة الفارسية خصوصًا خلال العهد الساساني.

تمازجت مع العمارة فنون الزخرفة التي وصفها عدد من النقاد بأنها لغة الفن الإسلامي؛ وقد كانت زخرفة المساجد والقصور والقباب الميدان الأساسي لها، بأشكال هندسية أو نباتية عرفتها أوروبا بالاسم الفرنسي «Arabesque» وتعرف اليوم بالزخرفة العربية، وقد انتشر هذا المصطلح في العالم العربي حديثًا للإشارة إلى الزخرفة العباسية، على أن جذر الكلمة لغويًا يأتي بمعنى «التوريق»، كما انتشر في العصر العباسي بنوع خاص الفن التجريدي رغم أن نشأته كتيار فني تعود للعصور الحديثة، إلا أنّ العباسيين وخلال زخرفاتهم عملوا إلى عزل عنصر الزخرفة كالورقة أو الزهرة عن محيطها، أي عمد الفنان العباسي بتجرديها عن محيطها الطبيعي الذي

يعطي إحساسًا بالذبول والفناء مانحًا إياها شعورًا بالدوام والبقاء، وإلى جانب الزخرفة النباتية، درجت زخرفة الأحرف العربية وازدهرت حتى أصبحت علماً قائماً ممثلاً بعلوم الخط العربي، رغم أن نشأته تعود لما قبل الإسلام، ومن أشهر أنواع الخطوط الخط الكوفي وخط الرقعة، وكذلك وعلى الرغم من عدم استساغة علماء الدين المسلمين لتصوير الإنسان أو الحيوان، إلا أن الخلفاء العباسيين قد اعتنوا بالأمر كما تدل جدران القصور المكتشفة في شرق الأردن وسامراء، ويصنف النقاد الزخرفة العباسية بكونها زخرفة «كارهة للفراغ»، إذ يقوم الفنانون برسم الزخارف من الحجم الكبير والمتوسط والصغير بحيث تملأ جميع الفراغات بزخارف ولو كانت متناهية في الصغر، كما اشتهر العباسيون الفسيفساء القادمة من الحضارة البيزنطية.

العود أحد الآلات الموسيقية الرئيسية في ((التخت الشرقي لابن خلدون)): ما زال فن الغناء يتدرج عند العرب حتى كمُل أيام بني العباس «ويقول عدد من النقاد :إن الموسيقى العربية في العصر العباسي بلغت ذروة مجدها من ناحيتي الأداء الغنائي وانتشار العلوم والبحوث والدراسات الموسيقية، واستمرت بغداد حتى منتصف القرن التاسع الميلادي مركزاً حيوياً تنبعث منه إشعاعات النهضة الموسيقية العربية وقد اقترن تطور الموسيقى بحالة الرخاء الاقتصادي في الدولة خلال عهود قوتها من ناحية، وبدعم الخلفاء غير المنقطع لها منذ مؤسس الدولة أبو العباس السفاح الذي أحب غناء سلمك الفارسي، مرورًا بالخليفة المأمون الذي كان يروقه بنوع خاص الغناء الإغريقي اليوناني وهو من أمر بترجمة الأصول النظرية للموسيقى إلى العربية فشكل بذلك أساس العلوم الموسيقية النظرية؛ وموسى الهادي الذي كان ابنه عبد الله مغنيًا ويجيد العزف على العود، وهارون الرشيد الذي أنفق ثروة في منح الجوائز للمغنين والملحنين، وكان الخليفة الواثق بالله حسب شهادة المؤرخ حماد بن إسحق الموصلي: بأنه أعلم الخلفاء بهذا الفن، وأنه كان مغنيًا بارعًا وعازفًا ماهرًا على العود، وقد لقي

الفن من التشجيع والكرم في بلاطه ما يجعل المرء يظن أنه تحول إلى معهد للموسيقى، بدلا من كونه مجلسًا لأمير المؤمنين.

وقد تمازجت الموسيقى العربية واختلطت، بأنواع الموسيقى السريانية والفارسية وشكلت معها مزيجًا متماسكًا حتى القرن العاشر، حين دخلت وبنتيجة وفود قبائل السلاجقة والأكراد الآلات النفخية، وأخذت تحلّ مكان الآلات الموسيقية الوترية التي كانت العماد الرئيسي للموسيقى العربية، ما دفع عدد من المؤرخين لإبداء استيائهم من هذا التغير، وقد دوّن لنا المؤرخون عددًا من أبرز الفنانين والملحنين الذين تألقوا خلال العصر العباسي في مجالس خلفاء العصر العباسي الأول، وهم: حكم الوادي، وإبراهيم الموصلي، وإبن جامع، ويحيى المكي، زلزل، ويزيد حوراء، وفليح بن أبي العوراء، وعبد الله بن دحمان، والزبير بن دحمان، وإسحاق الموصلي، وبرهوم، ومحمد الرف، وزرياب وقمر البغدادية، إلى جانب آخرين، والفن العباسي سابق للفن الأندلسي الممثل في الموشحات الأندلسية وسواها، بل إن المؤرخين والنقاد يجعلون من الفن الأندلسي متأثرًا بالفن العباسي وكذلك الفن الموسيقي المغربي.

وبنتيجة هذا الاهتمام بالموسيقى ومجالس الطرب، نشأت العلوم الموسيقية فقام الكندي في كتابه «رسالة في خبر تأليف الألحان» باستعمال الحروف والعلامات في تدوين الألحان منشئًا بذلك النوطات، و«كتاب الموسيقى الكبير» للعالم والفيلسوف الفارابي، و((كتاب الأغاني)) للأديب أبي الفرج الأصفهاني وقد أهداه لسيف الدولة الحمداني، وكتاب ((الأدوار)) لصفي الدين الحلي والذي يقول الناقد كروسلي هولاند أنه كان الأساس لجميع ما تبعه من مؤلفات تتناول الجوانب العلمية في الموسيقى أو التحلين، وكذلك تطرق ابن سينا الطبيب المعروف في كتابه «الشفاء» لدور الموسيقى في العلاج وأنواع الموسيقى الملائمة لها.

على أنه قد اقترنت مجالس الطرب عادةً بخلاعة جنسية تقوم بها إماء الخليفة أو السلطان، وكذلك بشرب الخمور، وكلا الأمرين مما لا تبيحهما الشريعة الإسلامية؛ هذا ما دفع عددًا من الفقهاء وعلماء الدين إلى تحريم الموسيقى والغناء، وذهب الباحث رضا العطار بأن أغلب الفقهاء العباسيين حرّموا الموسيقى والغناء وكان أشدهم بذلك أنس بن مالك المتذهب بالمذهب الشافعي حتى اعتبر أن الإنسان لو ترنّم لنفسه في خلوته فذلك خطيئة، ويشير العطار أن أبو حامد الغزالي كان الوحيد ممن أشار صراحة إلى عدم تحريم الشريعة الإسلامية للغناء.

العلوم

العلوم العامة

طالع أيضا: قائمة العلماء المسلمين

العالم القديم كما رسمه الإدريسي، كان الشمال في ذلك العصر يرسم أسفل الصورة؛ لاحظ التشابه في الحدود العامة بين الخارطة التي تعود للقرن الثاني عشر والخرائط الحالية.

لم يكن لدى العرب في شبه الجزيرة العربية علومًا متنوعة، ولم يركز الأمويون اهتماماتهم على مجالات متنوعة في العلوم، لذلك فإن تأسيس العلم العربي فعليًا يعود للعصر العباسي، معتمدًا في البداية على ترجمة أعمال الفلاسفة والعلماء اليونان كأرسطو وأفلاطون، وذلك بدعم من الطبقة الحاكمة، وفي المرحلة الثانية أصبح العلماء العباسيون يضيفون ويبتكرون في العلوم النظرية والتقنية على حد سواء، خلال تلك المرحلة، كان الجهل والأمية متفشيان في أوروبا بشكل مريع، ولولا جهود الخلفاء وحاشيتهم لكان العلم الإغريقي القديم قد اندثر تماماً، يقول في هذا الصدد المؤرخ الفرنسي لومبادر في كتابه «الإسلام في فجر عظمته» الصادر عام 1973 أنه

بينما نست أوروبا العلوم، ظل العرب في جامعاتهم يدرسون إقليدس وفيزياء العناصر ومخروطيات أبولونيوس وأرخميدس وبطليموس، ما أدى إلى تحول العربية إلى لغة العلوم العالمية، فأنتج العباسوين علماءً في الفلك وعلوم الطبيعة والفيزياء والطب ورياضيين يصفهم المؤرخ نفسه بأنهم ((من الطراز الأول))، وقد شاطره ذلك الرأي المؤرخ الفرنسي رونان حيث صرّح: إنّ العلم حقًا أحد مؤسسات الحضارة الإسلامية، ولم يقم محسنون بتشجيعه فقط، بل إن الخلفاء قاموا بتأسيسه وتنميته، وتجدر الإشارة أن أمويو الأندلس قد قاموا أيضًا بتشجيع العلوم، وعن طريق قرطبة، أكثر مما هو عن طريق بغداد انتقلت هذه العلوم نحو أوروبا، باستثناء مرحلة الحروب الصليبيةوالسفارات المتبادلة قبلها، وساهمت هذه العلوم لدى انتقالها في بناء الحضارة الإنسانية الحديثة، ويقول ألكسندر كويريه في هذا الصدد: إن العرب في بغداد وقرطبة كانوا معلمي الغرب ومربيه، لأنه لم يترجم العرب أعمال اليونان الفلسفية والعلمية إلى العربية وفقط، بل أضافوا إليها مؤلفات برمتها، ولأنه لم يكن هاك في الغرب شخص يمكنه أن يفهم كتبًا لها صعوبة فيزياء أو ما ورائيات أرسطو أو مؤلف بطليموس ((المجسطي))، فاللاتينيون بمعزل عن عون الفارابي وابن سينا وابن رشد بشروحهم وتعليقاتهم على هذه المؤلفات، لم يكن ليصلوا يومًا إلى فهم تلك الكتب.

غير أن لومبادر وكويريه، وكذلك جورج مينوا قد أشاروا إلى انهيار شبه تام للعلوم في الدولة العباسية منذ القرن العاشر، ذلك لا يعود فقط لتدهور الاستقرار السياسي وتراجع حال المعيشة، بل لبروز تيارات دينية متشددة استطاعت السيطرة على القصر وأثرت على العلوم بشكل سلبي، وإحدى هذه التيارات كما اتفق المؤرخون الثلاثة المدرسة الحنبلية التي ركزّت على سلبية التعاطي مع أي علم أو كتاب غير القرآن والسنة، ونحا بعض علمائها لاعتبار فلسفة ذلك الزمان زندقة، وجاء في إحدى أدبيات الحنابلة :لا تفرط في دراسة الكواكب، إلا لمساعدتك على

تحديد ساعات الصلاة، لا أكثر من هذا، ويضيف كويريه أن الفكر العقلي الجدلي الذي كان أحد أبرز مميزات الحضارة قد تراجع مع السلاجقة واختفى مع الاجتياح المغولي وبالتالي كفّ العرب عن البحث والتحديد واكتفوا بالنقد والتقليد.

ومن أبرز المنجزات العلمية في العصر العباسي، رسم أول خارطة للعالم بأسره على يد الإدريسي المولود في سنة 1100 وقد ظلّ كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، كتاب الجغرافيا الأول في الشرق والغرب، ومن العلماء العباسيين البارزين أيضاً، ابن الهيثم المولود عام 965 والذي ألف مائتي كتاب فبالطب والفلسفة والرياضيات والفيزياء ولعلّ كتبه حول الأشعة وانكسارها وانعكاسها أبرز ميادين كتابته، وقد حاز مؤلفه «المناظر» الذي درس به الأشعة شهرة عالمية، ويعود له أيضاً عدد من الابتكارات كصقل العدسات المحدبة والمقعرة، وأيضاً عبد الله البتاني الذي ولد في الرقة وعاش بها عام850، واشتهر بعلم الرياضيات حيث أكمل تنسيق الزوايات خصوصاً الجيب وجيب التمام والظل، وناقش نظريات بطليموس حول الكواكب وزاد عليها في كتابه «تعديل الكواكب» وكتابه «زيج البتاني«، هناك أيضًا ابن سينا المولود في بخارى عام 981 وله مؤلفات في مواضيع شتى أجلّها «القانون في الطب» وهو موسوعة تحتوي خلاصة ما توصل إليه الإنسان في هذا المجال، وقد ظل متداولاً ومتدارسًا في مختلف أصقاع العالم حتى القرن السادس عشر، وفي مجال الصيدلة برز ابن البيطار الذي ولد في الأندلس عام 1197 وطاف أوروبا واستقر في دمشق إلى أن توفي عام1248 ، وساهمت رحلاته في معرفته أنواع النباتات وتركيب عقاقير طبية منها، وقد ألف ابن البيطار عددًا من الكتب أبرزها «الجامع في المفردات الطبية»، ويعتبر من رواد طريقة الاستنباط العلمية، إلى جانب جابر بن حيان العالم الكيميائي الذي نال دعم هارون الرشيد وأسس وتلامذته منهج التجربة في العلوم.

وهناك أيضاً الكندي وهو من أبرز الفلاسفة، والرازي الذي كان له مؤلفات طبية أبرزها «الحاوي» ومؤلفات فلكية ناقش خلالها كروية الأرض وعدم تمركزها في قلب العالم؛ كما أشتهر علم التأريخ وفق الروايات المتناقلة ومن المؤرخين ابن كثير والمقريزي، وانبثق منه علم أنساب العرب وتدوين سير أعلامهم ومن الكتب الهامة في هذا الصدد كتاب «وفيات الأعيان» لابن خالكان، ومن العلوم التي نشأت أيضًا في كنف العباسيين، علم الجبر، وكذلك فقد ابتكر الخوارزمي أول لوغاريتم في العالم، ولم يقتصر الأمر على المسلمين، إذ برز العديد من العلماء غير المسلمين كثيوفيل بن توما الذي شغل منصب كبير علماء الفلك لدى الخليفة، وقيس الماروني المؤرخ الذي وضع مؤلفًا أرخ به تاريخ البشرية منذ خلق آدم وحتى خلافة المعتضد، وجرجس بن بختيشوع المولود عام 771 وجبريل بن بختيشوع تلميذه المولود عام 809 وهم أبناء أسرة مسيحية من الأطباء والعلماء وحنين بن إسحاق وابن اخته حبيش بن الأعسم، وعبد المسيح الكندي من القرن التاسع ويوحنا بن ماسويه والذي كان وأبيه قبله، مدير مشفى دمشق خلال خلافة هارون الرشيد، وغيرهم، وفي الواقع، فإنه من الصعب حصر جميع علماء العباسيين ومؤلفاتهم لكثرتها وتنوعها.

الترجمة.

اهتمّ العباسيون بترجمة الكتب والمخطوطات القديمة إلى العربية، فشكل ذلك بداية الثورة الفكرية والحضارية في العصر العباسي، كان العرب يجهلون اللغة اليونانية التي دونت بها أغلب المؤلفات العلمية القديمة أمثال أرسطو وأفلاطون وغيرهما، ومع اهتمام الخلفاء خصوصًا أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد وابنه المأمون بالعلوم، عهدوا بعملية الترجمة إلى السريان وبشكل أقل للفرس، وقد كانت الترجمات تتم على مرحلتين، من اليونانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية، [1]كذلك فقد نقل العرب، الأدب السرياني بكامله إلى لغتهم وقد اعترف

المؤلّفون العرب القدماء، كابن أبي أصيبعة، والقفطي، وابن النـديم والبيهقـي، وابـن جلجل وغيرهم، بقصّة غزو العرب لـلأدب السـريانيّ والمؤلّفـات الـتي ترجمـت عـن السريانيّة إلى العربيّة في أرجاء الدولة العباسيّة والأندلس :

أزدهرت الترجمة على أيدي السريان في الفترة الواقعة بن عـاميّ900-750 ، فقد عكفوا على ترجمة أمّهات الكتب السريانيّة واليونانيّة والفارسيّة إلى العربيّة، وكان على رأس أولئك المترجين في بيت الحكمة حنين بـن إسـحاق "الطبيـب النسـطوريّ، فقد ترجم إلى اللغة السريانيّة مائة رسالة مـن رسـائل جـالينوس، وإلى العربيّـة تسـعاً وثلاثـين رسـالة أخـرى، وتـرجم أيضـاً كتـب المقـولات الطبيعيّـة والأخـلاق الكـبرى لأرسـطو، وكتـاب الجمهوريّـة، وكتـاب القـوانين والسياسـة لأفلاطـون، فكان المأمون يعطيه ذهباً زنة ما ينقله من الكتب، وقام ابنه اسحق في أعمـال الترجمـة أيضاً فنقل إلى العربيّة مـن كتـب أرسـطو الميتافيزيقيـا والـنفس وفي توالـد الحيوانـات وفسادها، كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسي وهو كتاب كـان لـه أثـر كـبير في الفلسفة الإسلاميّة، وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من اللغـات اليونانيّـة والسريانيّة إلى العربيّة، وقـد أقـام المـأمون يوحنـا بـن البطريـق الترجمـان أمينـاً علـى ترجمة الكتب الفلسـفيّة مـن اليونانيّـة والسـريانيّة إلى العربيّـة، وتـولّى كتـب أرسـطو وأبقراط.

ولم يكن الخلفاء وحدهم يهتمّـون بالترجمـة والنقـل إلى العربيّـة بـل نافسـهم الوزراء والأمراء والأغنيـاء، وأخـذوا ينفقـون الأمـوال الطائلـة عليهـا، فيقـول ابـن الطقطقي: إن البرامكة شجعوا تعريب صحف الأعاجم حتى قيل أن البرامكة كانـت تعطي المعرّب زنة الكتاب المعرّب ذهباً، وبالغ الفتح بن خاقان في إنفاق الأموال على الترجمة والتأليف، وكان عبد الملك بن الزيات لا يقل عنه سخاء في هذا المجال.

بسبب هذا النشاط، ينحو عدد من الباحثين لاعتبار النشاط السرياني وما رافقها من حركات ترجمات، عنصر أساسي من عناصر خلق الحضارة العربية، وساهم ذلك، في الوقت نفسه بإحلال العربية كلغة تخاطب بين السريان بدلاً من السريانية، وذلك في العراق على وجه الخصوص، غير أن هذه العملية لن تنتهي قبل القرن الثالث عشر.

الاقتصاد

برج مراقبة في منقطة غونسو في الصين، لمراقبة القوافل التجارية التي تعتبر طريق الحرير وحمايتها، وهو واقع في الجزء الصيني من الطريق.

النظام الاقتصادي في الدولة العباسية، كأي نظام قبل الثورة الصناعية هو نظام إقطاعي وقوامه الزراعة، وقد كانت الأراضي الخصبة مقسمة إلى أربع قطاعات: أراضي الدولة التي تعود أرباحها مباشرة للخليفة أو السلطان أو كبار قواد الجيش، وأراضي الأوقاف التي كانت تشكل ممولاً أساسيًا للمساجد والمدارس الفقهية، وأراضي الإقطاعيات الخاصة حيث تكون مملوكة لمتنفذي المدن ووجهائها، مع وجود نوع رابع قليل الانتشار تمثّل في الملكية الخاصة للأفراد .

كان الفلاحون يعملون كعبيد أو أقنان لدى ملاك الأراضي ويستقرون في قرى صغيرة تبنى بالقرب منها، ويقتاتون من حصتهم من غلال الأرض؛ وإذا ما احتاجوا شيئاً كانوا يشترونه من الباعة المتوجلين أو أسواق المدن القريبة، فالحياة القروية كانت مستقرة ومزدهرة وكان يعيقها انعدام الأمن خصوصًا خلال عهود ضعف الدولة، إذ تعرضت الإقطاعيات للغزو والتخريب سواءً من دول مجاورة أو من قطاع الطرق، وقد حاولت الدولة خلال عهد القوة السيطرة على الوضع من خلال توجيهات موسى الهادي وهارون الرشيد؛ وخلال فترات انعدام الأمن أخذ سكان القرى بالنزوح نحو المدن ما أثر على الاستقرار الاقتصادي .

سجاد شرقي: كانت حياكة السجاد من المهن والصناعات الرائجة في العصر العباسي.

سوق قصب السكر: عرف العباسيون صناعة السكر منه، وخلال الحملات الصليبية انتقلت الصناعة إلى أوروبا.

أما الصناعة، فكانت بجزء منها تعتمد على الزراعة، كصناعة السكر المستخرج من قصب السكر خصوصاً فيمصر والأحواز، أو صناعة المواد الغذائية من مشتقات الحليب وتسويقها في المدن، أما الصناعات الغير معتمدة على الزراعة، فكان هناك الصناعات الحربية كالسيوف أو نسج الحرير والصوف والكتان وأنواع الأقمشة الأخرى وازدهرت بنوع خاص حياكة السجاد في إيران وبلاد الشام وصناعة الزجاج وزخرفته وإنتاجه بأشكال فنية،وصناعة الورق التي انتقلت من الصين إلى بغداد عن طريق سمرقند على يد يحيى البرمكي وفي خلافةهارون الرشيد، والفخاريات والنحاسيات المختلفة، فضلاً عن صناعة السفن.

ويمكن التمييز بين نوعين من المدن، المدن الكبرى كحلب والقاهرة والمدن الأصغر حجمًا وأقل أهمية كطرابلس؛ أما كبرى المدن فكانت بغداد وقد وصل عدد سكانها في القرن التاسع إلى مليون نسمة، لتكون أكبر مدينة في العالم، وكان في المدن الصغرى السوق مختلطًا لجميع أنواع السلع، أما في المدن الكبرى فكان هناك عدة أسواق: كسوق الوراقين وسوق النجارين وسوق الخضار وسواها، ويشرف على كل سوق مجموعة من العمال يشرفون على نظافة السوق، والتأكد من عدم غش التجار بالموازين ويشرفون على الآداب العامة، مع تخصيص أماكن لبيع الخمور وغيرها من منكرات الشريعة الإسلامية، كما نظم عمال الصناعة أنفسهم فيما دعي «الطوائف الصناعية» وهي أشبه بالنقابات في عصرنا الحالي، ومهامها الحفاظ على حقوق العاملين في المهنة، وتشرف على تعليم الراغبين بامتهانها أصول المهنة،]ومع تراجع

وضع الدولة الاقتصادي ازداد الفقر والفاقة ولم تستطع التكايا المخصصة لرعاية الفقراء من أداء واجباتها كما كانت في السابق، وتشير الأدبيات العباسية بعد القرن التاسع إلى انتشار الفساد والرشوة حتى في سلك القضاء، من أسباب الانهيار الاقتصادي تكلفة الحروب المتواصلة سواءً بين السلاجقة أنفسهم أو مع الصليبيين، وسوى ذلك فقد ضرب القحط والجفاف العراق وبلاد الشام فترة طويلة وزلزلت المنطقة عدة مرات بهزات أرضية، ومحصلة القول فإن ضعف الدولة العباسية كان في أحد شقوقه اقتصاديًا.

مساحة الدولة المترامية الأطراف، وتمركزها في قلب العالم القديم، جعل من أراضيها معبراً تجارياً وممراً لقوافل البضائع بين الشرق الأقصى وأوروبا، ولعلّ طريق الحرير الذي يعود لفترة قبل الميلاد أشهرها وقد اشتهر بتجارة التوابل والعطور، والطريق الجنوبي نحو إفريقيا حيث كان التجار يسوقون بضائعهم مقابل الحصول على الذهب التي اشتهرت به تلك الأصقاع خصوصًا مملكة غانا وقبائل السودان الوثنية، كما نشطت خلال هذا الطريق تجارة الرقيق، وقد ارتبطت الدولة العباسية بعلاقات جيدة مع الممالك المتعاقبة في أثيوبيا حاليًا وأشهرها مملكة النوبة، والتي سمحت للعباسيين التنقيب عن الذهب والزمرد في أراضيها، كما كان هناك طريق تجاري بحري يربط البصرة جنوب العراق بالساحل الإيراني ومنه نحو الهند والصين وكانت الرحلة به تستغرق ستة أشهر، كانت الدولة تفرض أتاوات على القوافل، ما أمّن لها قطعاً نقديًا ثابتًا للخزينة، غير أنه في زمن الخلافة العباسية في القاهرة، اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح، وتحولت مع الاكتشاف الجديد طرق التجارة صوب نصف الكرة الجنوبي، ما عنى آنذاك فقدان الدولة موقعها كمتحكم بالطرق التجارية، ما أدى إلى زيادة الوضع الاقتصادي خلال العهد المملوكي تدهورًا، وعمومًا فإن العهد المملوكي لم يتميز قط بازدهار اقتصادي، ويضرب المؤرخون مثالاً على ذلك بأن سكان مصر وبلاد الشام قد انخفض إلى الثلث عما كان الوضع عليه قبل

استلام المماليك للسلطة، يعود ذلك بشكل رئيسي للفساد المالي واحتكار الثروة والصراعات بين المماليك أنفسهم، علماً أن المماليك قد تمتعوا باستقرار سياسي بعد هزيمة المغول عام 1261 وجلاء الصليبيين عام.1291

العملة الرسمية هي الدينار، وهو مطبوع من معدني الذهب والفضة، وكان ولاة الأمر يعمدون إلى خلطه بالقليل من النحاس أو البرونز بهدف طباعة كميات أكبر من النقد؛ ونظام الضرائب مما أسس وفق الشريعة الإسلامية من خراج وعشور وزكاة، وفي بعض الأحيان كان السلاطين أو الخلفاء يفرضون ضرائب استثنائية لم تنص عليها الشريعة، ما تسبب باعتراض الفقهاء ومنها المكوس؛ وعمومًا فإن الضرائب الإسلامية كانت في الغالب تجبى سنويًا أما المكوس فتجبى شهرياً، أما إنفاق أموال الدولة فكان وفق رؤية السلاطين أو الخلفاء، فعلى الرغم من أن الشريعة قد نظمت طرق الجباية غير أنها لم تنظم طرق الإنفاق، ما ساهم بارتباط طرق الإنفاق بشخصية الحاكم وحاشيته؛ إذا كان مصلحاً ملتزماً أنفق المال في خدمة الدولة وتحسين مرافقها أو أهمل الأمر كلياً أو جزئياً، وقد نقل عن نفقات قصور الخلافة بأنها كانت تشكل ثلث واردات الدولة في بعض العهود.

إحدى مصادر الدخل كانت الغزوات، فقد اعتاد العباسيون في عهود القوة تسيير غزوة كل صيف نحو التخوم والثقور، ودعيت هذه الغزوات بالصوائف؛ والهدف منها لم يكن توسيع رقعة الدولة بقدر ما كان كسب غنائم وكميات نقد جديدة سواءً عن طرق الصلح بفرض الجزية أو عن طريق الاستيلاء على مقدرات الأماكن المقصودة ونهبها، يمكن ملاحظة ذلك، بأن مساحة الدولة لم تتسع حتى في عهود القوة، كما هو الحال في الدولتين الراشدية والأموية من قبلها والعثمانية من بعدها.

المجتمـع

المجتمع العباسي كان مقسماً من ناحيتين، الأولى الناحية الدينية حيث يوجد عامة المسلمون ومن ثم الموالي وهم العبيد المعتقين المسلمين، ومن ثم أهل الكتاب وهم عموم رعايا الأديان التي اعترفت بها الشريعة الإسلامية، وأخيرًا الرقيق وهم العبيد والجواري الذين كانوا يباعوا ويشتروا أو يأسروا في عهد الدولة العباسية، أما الناحية الثانية التي صُنف المجتمع خلالها هي الطبقة الاجتماعية على رأسها طبقة الحكام والتي تشمل الخلفاء والأمراء والسلاطين والولاة والوزراء وقادة الجيش، وقد تميزت هذه الحقبة بالثراء والبذخ وتذوق الفنون، أما الطبقة الثانية هي طبقة علماء الدين والفقهاء، الذين كانوا يشكلون أساس النظام القضائي والفقهي والتعليمي بشكل كبير خلال عهود ضعف الدولة، أما الطبقة الثالثة فهي طبقة التجار، وهم بدورهم يقسمون إلى تجار كبار، وغالباً ما كانت تجارتهم تقوم على الرقيق أو الجوهرات وغيرهما، ولهؤلاء علاقة وثيقة مع طبقة الحكام؛ والتجار الصغار ويندرج في إطارهم الحرفيين والصناع وأرباب المهن، والذين كانوا العصب الرئيس لحياة المدن، إلى جانب الطبقة الرابعة والتي تشمل الفلاحين الأقنان والعبيد، ويضيف بعض الباحثين طبقة أخرى ممثلة بجند الجيش، إذ كانت مهمة الجندية أشبه بمهمة دائمة آنذاك .

كأي مجتمع أهلي، كانت العائلة تعتبر الركيزة الأساس للمجتمع العباسي، يرأس الأسرة كبيرها، ومن حوله زوجاته وأولاده وفي بعض الأحيان أحفاده، إذ إن الأولاد غالبًا ما يتزوجون في منازل آبائهم، ويعملون في مهن آبائهم ما أدى إلى تخصص العائلات بمهنٍ معينة، أما المرأة في العصر العباسي، يمكن تمييز دورها في حقبتين، الحقبة الأولى نرى آثارًا عديدة لها في الحياة العامة فاشتهرت عدد من المغنيات والشاعرات والأديبات بل والسياسيات كخيزران وزبيدة زوجتا هارون الرشيد واللتين ساق لهما الباحث محمد خريس دوراً أساسياً في ((جعل عصر الرشيد

أزهى عصور العهد العباسي))،ويرى عدد من الباحثين أن انتشار الخلاعة في قصور الخلفاء وأثرياء المجتمع، قد أثر سلبًا على وضع المرأة الاجتماعي خلال تلك الفترة، وفي المرحلة الثانية انكفأت المرأة من جديد نحو المنزل، وأما على صعيد القصر، فقد برزت عدة نساء أيضًا كزوجة المقتدي (شمس النهار)، على ما روى ابن الأثير، وكذلك زوجة طغرل بك والتي ((كانت سديدة الرأي فوّضها زوجها أمره في كثير من الأمور فكانت على أحسن تدبير)).

الالتزام بالشريعة ومنكراتها، كان متفاوتاً بدوره، فالمجتمع العباسي أساساً، مجتمع متدين غير أن الحانات ومجالس السمر العامة ومناطق بيع المشروبات الكحولية كان موجوداً خصوصاً في المدن الكبرى، حيث هناك اختلاط بين مسلمين وغير مسلمين، ممن تبيح شرائعهم الخمر وغيره، يقول الباحث والمفكر المصري قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة أن عادة النقاب قد ظهرت وانتشرت في العصر العباسي، تأثرًا من المسلمين بزرداشتيي فارس، وأنه انحصر انتشارها بين نساء المدن والطبقات العليا وليس بين الفلاحات في الريف؛ كذلك فقد ندد أمين بعزل النساء في الحرملك معتبرًا أنها عادة عباسية أيضاً، آراء أمين ومن تبعه في هذا الرأي تعتبر محمل نقد من الباحثين المسلمين الآخرين الذي يؤكدون أن النقاب قد ظهر منذ عهد النبي محمد، وله ركائز في القرآن والحديث.

كان العلم متاحاً في المساجد والمدارس خلال عهود القوة واحتضنت بغداد عدداً من أشهر جامعات العالم وأقواها، غير أنه خلال عهود الضعف فإن قلة من الناس فقط كانوا يرسلون أولادهم إلى المساجد لتلقن العلوم، وغالباً ما كان يكتفي بأكبر أبناء الأسرة؛ ولم يكن العلم في المساجد وهو ما يطلق عليه عامة اسم «كتاتيب» يكفي سوى لتحفيظ القرآن وانطلاقًا منه تعلّم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب.

الفصل الثامن

هارون الرشيد ...
والعصر الذهبي
للدولة العباسية

هارون الرشيد .... والعصر الذهبي للدولة العباسية

(تولى الخلافة 14 من ربيع الأول 170هـ)



لم يحظَ خليفة بعد الخلفاء الراشدين بالشهرة الواسعة وذيوع الذكر، مثلما حظي الخليفة العباسي هارون الرشيد، غير أن تلك الشهرة امتزج في نسجها الحقيقة مع الخيال، واختلطت الوقائع مع الأساطير، حتى كادت تختفي صورة الرشيد، وتضيع قسماتها وملامحها، وتظهر صورة أخرى له أقرب إلى اللهو واللعب والعبث والمجون، وأصبح من الواجب نفض الروايات الموضوعة، والأخبار المدسوسة حتى نستبين شخصية الرشيد كما هي في الواقع، لا كما تصورها الأوهام والأساطير.

ما قبل الخلافة

نشأ الرشيد في بيت ملك، وأُعد ليتولى المناصب القيادية في الخلافة، وعهد به أبوه الخليفة "المهدي بن جعفر المنصور" إلى من يقوم على أمره تهذيبًا وتعليمًا وتثقيفًا، وحسبك أن يكون من بين أساتذة الأمير الصغير "الكسائي"، والمفضل الضبي، وهما مَن هما علمًا ولغة وأدبًا، حتى إذا اشتد عوده واستقام أمره، ألقى به أبوه في ميادين الجهاد، وجعل حوله القادة الأكفاء، يتأسى بهم، ويتعلم من تجاربهم وخبراتهم، فخرج في عام (165 هـ= 781م) على رأس حملة عسكرية ضد الروم، وعاد محملاً

بأكاليل النصر، فكوفئ على ذلك بأن اختاره أبوه وليًا ثانيًا للعهد بعد أخيه موسى الهادي.

وكانت الفترة التي سبقت خلافته يحوطه في أثنائها عدد من الشخصيات السياسية والعسكرية، من أمثال يحيى بن خالد البرمكي، والربيع بن يونس، ويزيد بن مزيد الشيباني والحسن بن قحطبة الطائي، ويزيد بن أسيد السلمي، وهذه الكوكبة من الأعلام كانت أركان دولته حين آلت إليه الخلافة، ونهضوا معه بدولته حتى بلغت ما بلغت من التألق والازدهار.

تولّيه الخلافة

تمت البيعة للرشيد بالخلافة في (14 من شهر ربيع الأول 170هـ= 14 من سبتمبر 786م)، بعد وفاة أخيه موسى الهادي، وبدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ الدولة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمَّ الرخاء ربوع الدولة.

وكانت الدولة العباسية حين آلت خلافتها إليه مترامية الأطراف تمتد من وسط أسيا حتى المحيط الأطلنطي، مختلفة البيئات، متعددة العادات والتقاليد، معرضة لظهور الفتن والثورات، تحتاج إلى قيادة حكيمة وحازمة بفرض سلطانها الأمن والسلام، وتنهض سياستها بالبلاد، وكان الرشيد أهلاً لهذه المهمة الصعبة في وقت كانت فيه وسائل الاتصال شاقة، ومتابعة الأمور مجهدة، وساعده على إنجاز مهمته أنه أحاط نفسه بكبار القادة والرجال من ذوي القدرة والكفاءة، ويزداد إعجابك بالرشيد حين تعلم أنه أمسك بزمام هذه الدولة العظيمة وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره، فأخذ بيدها إلى ما أبهر الناس من مجدها وقوتها وازدهار حضارتها.

استقرار الدولة

ولم تكن الفترة التي قضاها الرشيد في خلافة الدولة العباسية هادئة ناعمة، وإنما كانت مليئة بجلائل الأعمال في داخل الدولة وخارجها، ولم يكن الرشيد بالمنصرف إلى اللهو واللعب المنشغل عن دولته العظيمة إلى المتع والملذات، وإنما كان "يحج سنة ويغزو كذلك سنة".

واستهل الرشيد عهده بأن قلد "يحيى بن خالد البرمكي" الوزارة، وكان من أكفأ الرجال وأمهرهم، وفوّض إليه أمور دولته، فنهض بأعباء الدولة، وضاعف من ماليتها، وبلغت أموال الخراج الذروة، وكان أعلى ما عرفته الدولة الإسلامية من خراج، وقدره بعض المؤرخين بنحو 400 مليون درهم، وكان يدخل خزينة الدولة بعد أن تقضي جميع الأقاليم الإسلامية حاجتها.

وكانت هذه الأموال تحصل بطريقة شرعية، لا ظلم فيها ولا اعتداء على الحقوق، بعد أن وضع القاضي "أبو يوسف" نظامًا شاملاً للخراج باعتباره واحدًا من أهم موارد الدولة، يتفق مع مبادئ الشرع الحنيف، وذلك في كتابه الخراج.

وكان الرشيد حين تولى الخلافة يرغب في تخفيف بعض الأعباء المالية عن الرعية، وإقامة العدل، ورد المظالم، فوضع له "أبو يوسف" هذا الكتاب استجابة لرغبته، وكان لهذا الفائض المالي أثره في انتعاش الحياة الاقتصادية، وزيادة العمران، وازدهار العلوم، والفنون، وتمتع الناس بالرخاء والرفاهية.

وأُنفقت هذه الأموال في النهوض بالدولة، وتنافس كبار رجال الدولة في إقامة المشروعات كحفر الترع والأنهار، وبناء الحياض، وتشييد المساجد، وإقامة القصور، وتعبيد الطرق، وكان لبغداد نصيب وافر من العناية والاهتمام من قبل الخليفة الرشيد وكبار رجال دولته، حتى بلغت في عهده قمة مجدها وتألقها؛ فاتسع

عمرانها، وزاد عدد سكانها حتى بلغ نحو مليون نسمة، وبُنيت فيها القصور الفخمة، والأبنية الرائعة التي امتدت على جانبي دجلة، وأصبحت بغداد من اتساعها كأنها مدن متلاصقة، وصارت أكبر مركز للتجارة في الشرق، حيث كانت تأتيها البضائع من كل مكان.

وغدت بغداد قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقراء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأس والمناقشة، وثراء الجدل والحوار، كما جذبت المدينة الأطباء والمهندسين وسائر الصناع.

وكان الرشيد وكبار رجال دولته يقفون وراء هذه النهضة، يصلون أهل العلم والدين بالصلات الواسعة، ويبذلون لهم الأموال تشجيعًا لهم، وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه والعلم، ويتواضع لهم حتى إنه كان يصب الماء في مجالسه على أيديهم بعد الأكل.

وأنشأ الرشيد "بيت الحكمة" وزودها بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض كالهند وفارس والأناضول واليونان، وعهد إلى "يوحنا بن ماسوية" بالإشراف عليها، وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين.

هارون الرشيد مجاهداً

كانت شهرة هارون الرشيد قبل الخلافة تعود إلى حروبه وجهاده مع الروم، فلما ولي الخلافة استمرت الحروب بينهما، وأصبحت تقوم كل عام تقريبًا، حتى إنه اتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها: غاز وحاج.

وقام الرشيد بتنظيم الثغور المطلة على بلاد الروم على نحو لم يعرف من قبل، وعمرها بالجند وزاد في تحصيناتها، وعزل الجزيرة وقنسرين عن الثغور، وجعلها منطقة واحدة، وجعل عاصمتها أنطاكية، وأطلق عليها العواصم، لتكون الخط الثاني للثغور الملاصقة للروم، ولأهميتها كان لا يولي عليها إلا كبار القادة أو أقرب الأقربين إليه، مثل "عبد الملك بن صالح" ابن عم أبي جعفر المنصور أو ابنه "المعتصم".

وعمّر الرشيد بعض مدن الثغور، وأحاط كثيرًا منها بالقلاع والحصون والأسوار والأبواب الحديدية، مثل: قلطية، وسميساط، ومرعش، وكان الروم قد هدموها وأحرقوها فأعاد الرشيد بناءها، وأقام بها حامية كبيرة، وأنشأ الرشيد مدينة جديدة عرفت باسم "الهارونية" على الثغور.

وأعاد الرشيد إلى الأسطول الإسلامي نشاطه وحيويته، ليواصل ويدعم جهاده مع الروم ويسيطر على الملاحة في البحر المتوسط، وأقام دارًا لصناعة السفن، وفكّر في ربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وعاد المسلمون إلى غزو سواحل بحر الشام ومصر، ففتحوا بعض الجزر واتخذوها قاعدة لهم، مثلما كان الحال من قبل، فأعادوا فتح "رودس" سنة (175هـ= 791م)، وأغاروا على أقريطش "كريت" وقبرص سنة (190هـ= 806م).

واضطرت دولة الروم أمام ضربات الرشيد المتلاحقة إلى طلب الهدنة والمصالحة، فعقدت "إيريني" ملكة الروم صلحًا مع الرشيد، مقابل دفع الجزية السنوية له في سنة (181هـ= 797م)، وظلت المعاهدة سارية حتى نقضها إمبراطور الروم، الذي خلف إيريني في سنة (186هـ = 802م)، وكتب إلى هارون: "من نقفور ملك الروم إلى ملك العرب، أما بعد فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الأخ، فحملت إليك من أموالها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك، وإلا فالحرب بيننا وبينك".

فلما قرأ هارون هذه الرسالة ثارت ثائرته، وغضب غضبًا شديدًا، وكتب على ظهر رسالة الإمبراطور: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام".

وخرج هارون بنفسه في (187 هـ= 803م)، حتى وصل "هرقلة" وهي مدينة بالقرب من القسطنطينية، واضطر نقفور إلى الصلح والموادعة، وحمل مال الجزية إلى الخليفة كما كانت تفعل "إيريني" من قبل، ولكنه نقض المعاهدة بعد عودة الرشيد، فعاد الرشيد إلى قتاله في عام (188هـ= 804م) وهزمه هزيمة منكرة، وقتل من جيشه أربعين ألفا، وجُرح نقفور نفسه، وقبل الموادعة، وفي العام التالي (189هـ=805م) حدث الفداء بين المسلمين والروم، ولم يبق مسلم في الأسر، فابتهج الناس لذلك.

غير أن أهم غزوات الرشيد ضد الروم كانت في سنة (190 هـ= 806م)، حين قاد جيشًا ضخماً عدته 135 ألف جندي ضد نقفور الذي هاجم حدود الدولة العباسية، فاستولى المسلمون على حصون كثيرة، كانت قد فقدت من أيام الدولة الأموية، مثل "طوانة" بثغر "المصيصة"، وحاصر "هرقلة" وضربها بالمنجنيق، حتى استسلمت، وعاد نقفور إلى طلب الهدنة، وخاطبه بأمير المؤمنين، ودفع الجزية عن نفسه وقادته وسائر أهل بلده، واتفق على ألا يعمر هرقلة مرة أخرى.

بلاط الرشيد محط أنظار العالم

ذاع صيت الرشيد وطبق الآفاق ذكره، وأرسلت بلاد الهند والصين وأوروبا رسلها إلى بلاطه تخطب وده، وتطلب صداقته، وكانت سفارة "شارلمان" ملك الفرنجة من أشهر تلك السفارات، وجاءت لتوثيق العلاقات بين الدولتين، وذلك في سنة (183هـ= 779م)؛ فأحسن الرشيد استقبال الوفد، وأرسل معهم عند عودتهم هدايا قيمة، كانت تتألف من حيوانات نادرة، منها فيل عظيم، اعتبر في أوروبا من الغرائب، وأقمشة فاخرة وعطور، وشمعدانات، وساعة كبيرة من البرونز المطلي بالذهب

مصنوعة في بغداد، وحينما تدق ساعة الظهيرة، يخرج منها اثنا عشر فارسًا من اثنتي عشرة نافذة تغلق من خلفهم، وقد تملك العجب شارلمان وحاشيته من رؤية هذه الساعة العجيبة، وظنوها من أمور السحر.

الرشيد وأعمال الحج

نظم العباسيون طرق الوصول إلى الحجاز، فبنوا المنازل والقصور على طول الطريق إلى مكة، طلبًا لراحة الحجاج، وعُني الرشيد ببناء السرادقات وفرشها بالأثاث وزودها بأنواع الطعام والشراب، وبارته زوجته "زبيدة" في إقامة الأعمال التي تيسر على الحجيج حياتهم ومعيشتهم، فعملت على إيصال الماء إلى مكة من عين تبعد.

الرشيد وأعمال الحج

نظم العباسيون طرق الوصول إلى الحجاز، فبنوا المنازل والقصور على طول الطريق إلى مكة، طلبًا لراحة الحجاج، وعُني الرشيد ببناء السرادقات وفرشها بالأثاث وزودها بأنواع الطعام والشراب، وبارته زوجته "زبيدة" في إقامة الأعمال التي تيسر على الحجيج حياتهم ومعيشتهم، فعملت على إيصال الماء إلى مكة من عين تبعد عن مكة بنحو ثلاثين ميلاً، وحددت معالم الطريق بالأميال، ليعرف الحجاج المسافات التي قطعوها، وحفرت على طولها الآبار والعيون.

وفاة الرشيد

كان الرشيد على غير ما تصوره بعض كتب الأدب، دينا محافظًا على التكاليف الشرعية، وصفه مؤرخوه أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، ويتصدق من ماله الخاص، ولا يتخلف عن الحج إلا إذا كان مشغولاً بالغزو والجهاد، وكان إذا حج صحبه الفقهاء والمحدثون.

وظل عهده مزاوجة بين جهاد وحج، حتى إذا جاء عام (192 هـ= 808م) فخرج إلى "خرسان" لإخماد بعض الفتن والثورات التي اشتعلت ضد الدولة، فلما بلغ مدينة "طوس" اشتدت به العلة، وتُوفي في (3 من جمادى الآخر 193هـ= 4 من إبريل 809م) بعد أن قضى في الخلافة أكثر من ثلاث وعشرين سنة، عدت العصر الذهبي للدولة العباسية.

الفصل التاسع

أمراء المؤمنين

أمراء المؤمنين

المعتضد بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المعتضد بالله
اسمه الكامل:	المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بـن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	السادس عشر
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	279 -289
فترة الخلافة بالميلادي:	892 -903 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المهتدي بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المهتدي بالله
اسمه الكامل:	المهتدي بالله ابن الواثق بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو إسحاق
ترتيبه في تولي الخلافة:	الرابع عشر
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	255 -256
فترة الخلافة بالميلادي:	869 -870 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله

الاسم المعروف للخليفة:	المقتفي لأمر الله
اسمه الكامل:	المقتفي لأمر الله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو عبد الله
ترتيبه في تولي الخلافة:	الحادي و الثلاثون
تاريخ الميلاد:	489
فترة الخلافة بالهجري:	530 -555
فترة الخلافة بالميلادي:	1136 -1160 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المكتفي بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المكتفي بالله
اسمه الكامل:	المكتفي بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو محمد

ترتيبه في تولي الخلافة:	السابع عشر
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	289 -295
فترة الخلافة بالميلادي:	903 -908 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس

الاسم المعروف للخليفة:	السفاح
اسمه الكامل:	عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	الأول
تاريخ الميلاد:	108
فترة الخلافة بالهجري:	132 -136
فترة الخلافة بالميلادي:	749 -754 م
تاريخ الوفاة:	136

ولد بالحميمة من ناحية البلقاء ونشأ بها وبويع بالكوفة وأمه ريطة الحارثية، حدث عن أخيه إبراهيم بن محمد الإمام وروى عنه عمه عيسى بن علي وكان أصغر من أخيه المنصور.

واستخلف وهو ابن سبع وعشرون سنة، بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة لأربع عشر خلت من ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين و مئة. (2)

وروى المدائني عن جماعة أن الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس قال لنا ثلاثة أوقات: موت يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق بإفريقية فعند ذلك تدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيولهم المغرب فلما قتل يزيد بن أبي مسلم بإفريقية ونقضت البربر بعث محمد الإمام رجلا إلى خراسان وأمره أن يدعو إلى الرضى من آل محمد صلى الله عليه وسلم ولا يسمى أحداً ثم وجه أبا مسلم الخراساني وغيره وكتب إلى النقباء فقبلوا كتبه ثم لم ينشب أن مات محمد فعهد إلى أبنه إبراهيم فبلغ خبره مروان فسجنه ثم قتله فعهد إلى أخيه عبد الله وهو السفاح فاجتمع إليه شيعتهم وبويع بالخلافة بالكوفة في ثالث ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة وصلى بالناس الجمعة وقال في الخطبة الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه ثم ذكر قرابتهم في آيات القرآن.

وكان عيسى بن علي إذا ذكر خروجهم من الحميمة يريدون الكوفة يقول: إن أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة هممهم شديدة قلوبهم، ولما بلغ مروان مبايعة السفاح خرج لقتاله فانكسر.

مات السفاح بالجدري في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وكان قد عهد إلى أخيه أبي جعفر وكان في سنة أربع وثلاثين قد انتقل إلى الأنبار وصيرها دار الخلافة، ومن أخبار السفاح قال الصولي: من كلامه إذا عظمت القدرة قلت الشهوة وقل تبرع إلا معه حق مضاع وقال: إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عد البخل حزماً والحلم ذلا وقال إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة والصبر حسن إلا على ما أوقع الدين وأوهن السلطان والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة، قال الصولي: وكان السفاح أسخى الناس ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقضيه وقال له عبد الله بن حسن مرة سمعت بألف ألف درهم وما رأيتها قط فأمر بها فأحضرت وأمر بحملها معه إلى منزله.

مات في أيامه من الأعلام: زيد بن أسلم وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وربيعة الرأي فقيه أهل المدينة وعبد الملك بن عمير ويحيى بن أبي إسحاق الحضرمي وعبد الحميد الكاتب المشهور قتل ببوصير مع مروان ومنصور ابن المعتمر وهمام بن منبه.

أمير المؤمنين الراشد بالله

الاسم المعروف للخليفة:	الراشد
اسمه الكامل:	الراشد بالله ابن المسترشد بالله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو جعفر المنصور
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثلاثون
تاريخ الميلاد:	502
فترة الخلافة بالهجري:	529 -530
فترة الخلافة بالميلادي:	1135 -1136 م
تاريخ الوفاة:	

خطب له أبوه بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وبويع له بالخلافة عند قتل أبيه في ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان فصيحاً أديباً شاعراً شجاعاً سمحاً جواداً حسن السيرة يؤثر العدل ويكره الشر.

أمير المؤمنين المستنصر بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المستنصر بالله
اسمه الكامل:	المستنصر بالله ابن الظاهر بأمر الله ابن الناصر لدين الله ابن المستضئ بأمر الله ابن المستنجد بالله ابن المقتفي لأمر الله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو جعفر المنصور
ترتيبه في تولي الخلافة:	السادس والثلاثون
تاريخ الميلاد:	588
فترة الخلافة بالهجري:	640 -623
فترة الخلافة بالميلادي:	1242 -1226 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

الاسم المعروف للخليفة:	المنصور
اسمه الكامل:	عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو جعفر
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثاني
تاريخ الميلاد:	101
فترة الخلافة بالهجري:	158-136
فترة الخلافة بالميلادي:	754 -775 م
تاريخ الوفاة:	158

ولد المنصور بالحميمة وأدرك جده ولم يرو عنه وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار وعنه ولده المهدي وبويع بالخلافة بعهد من أخيه وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً جماعاً للمال تاركاً اللهو واللعب كامل العقل جيد المشاركة في العلم والأدب فقيه النفس.

كان المنصور حاجا وقت وفاة السفاح فعقد له البيعة بالأنبار عمه عيسى بن علي في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وهو ابن إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر. (2)

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة كان دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان الأموي إلى الأندلس واستولى عليها وامتدت أيامه وبقيت الأندلس في يد أولاده إلى بعد الأربعمائة وكان عبد الرحمن هذا من أهل العلم والعدل.

وفي سنة أربعين ومائة شرع في بناء مدينة بغداد.

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة كان ظهور الراوندية القائلين بالتناسخ قتلهم المنصور وفيها فتحت طبرستان.

قال الذهبي في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة ومالك الموطأ بالمدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة وصنف ابن إسحاق المغازي وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.

وفي سنة ست وأربعين ومائة كانت غزوة قبرس.

وفي سنة سبع وأربعين ومائة خلع المنصور عمه عيسى بن موسى من ولاية العهد وكان السفاح عهد إليه من بعد المنصور وعهد إلى ولده المهدي.

وفي سنة ثمان وأربعين ومائة توطدت الممالك كلها للمنصور وعظمت هيبته في النفوس ودانت له الأمصار ولم يبق خارجاً عنه سوى جزيرة الأندلس فقط فإنها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي المرواني لكنه لم يتلقب بأمير المؤمنين بل بالأمير فقط وكذلك بنوه.

وفي سنة تسع وأربعين فرغ من بناء بغداد.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائة بني الرصافة وشيدها.

وفي ذي الحجة سنة ثمان وخمسين و مائة توفي المنصور ودفن بين الحجون وبين بئر ميمون.

ومن أخبار المنصور أخرج ابن عساكر بسنده أن أبا جعفر المنصور كان يرحل في طلب العلم قبل الخلافة فبينما هو يدخل منزلا من المنازل قبض عليه صاحب الرصد فقال: زن درهمين قبل أن تدخل قال: خل عني فإني رجل من بني هاشم قال: زن درهمين فقال: خل عني فإني من بني عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: زن درهمين قال: خل عني فإني رجل قارئ لكتاب الله قال: زن درهمين قال: خل عني فإني رجل عالم بالفقه والفرائض قال: زن درهمين فلما أعياه أمره وزن الدرهمين فرجع ولزم جمع المال والتدنق فيه حتى لقب بأبي الدوانيق.

وأخرج عن الربيع بن يونس الحاجب قال: سمعت المنصور يقول الخلفاء أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والملوك أربعة: معاوية وعبد الملك وهشام وأنا.

وأخرج عن مالك بن أنس قال: دخلت على أبي جعفر المنصور فقال من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: أبو بكر وعمر قال: أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين.

وأخرج عن إسماعيل الفهري قال: سمعت المنصور في يوم عرفة على منبر عرفة يقول في خطبته: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه وقد جعلني الله عليه قفلا إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه إذ يقول: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[المائدة: 3] أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل فإنه سميع مجيب.

وأخرجه الصولي وزاد في أوله أن سبب هذه الخطبة أن الناس بخلوه وزاد في آخره: فقال بعض الناس أحال أمير المؤمنين بالمنع على ربه.

وأخرج عن الأصمعي وغيره أن المنصور صعد المنبر فقال: الحمد لله أحمده واستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أذكر من أنت في ذكره فقال: مرحباً مرحباً لقد ذكرت جليلا وخوفت عظيماً وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم والموعظة منا بدت ومن عندنا خرجت وأنت يا قائلها فأحلف بالله ما الله أردت بها وإنما أردت أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر فاهون بها من قائلها واهتبلها من الله ويلك إني قد غفرتها وإياكم معشر الناس وأمثالها وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فعاد إلى خطبته فكأنما يقرؤها من قرطاس.

وأخرج من طرق أن المنصور قال لابنه المهدي: يا أبا عبد الله الخليفة لا يصلحه إلا التقوى والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة والرعية لا يصلحها إلا العدل وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

وقال: لا تبر من أمراً حتى تفكر فيه فإن فكرة العاقل مرآته تريه قبيحه وحسنه.

وقال: أي بني استدم النعمة بالشكر والمقدرة بالعفو والطاعة بالتألف والنصر بالتواضع والرحمة للناس.

وأخرج عن مبارك بن فضالة قال: كنا عند المنصور فدعا برجل ودعا بالسيف فقال المبارك يا أمير المؤمنين سمعت الحسن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة قام مناد من عند الله ينادي ليقم الذين أجرهم على الله فلا يقوم إلا من عفا فقال المنصور خلوا سبيله.

وأخرج عن الأصمعي قال: أتى المنصور برجل يعاقبه فقال يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والتجاوز فضل ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين فعفا عنه.

وأخرج عن محمد بن منصور البغدادي قال: قام بعض الزهاد بين يدي المنصور فقال إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها واذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده فأفحم المنصور وأمر له بمال فقال لو احتجت إلى مالك ما وعظتك.

وأخرج عن عبد السلام بن حرب أن المنصور بعث إلى عمرو بن عبيد فجاءه فأمر له بمال فأبى أن يقبله فقال المنصور: والله لتقبلنه فقال: والله لا أقبله فقال له المهدي: قد حلف أمير المؤمنين فقال أمير المؤمنين أقوى على كفارة اليمين من عمك فقال له المنصور: سل حاجتك؟ قال: أسألك أن لا تدعوني حتى آتيك ولا تعطيني حتى أسألك فقال: علمت أني جعلت هذا ولي عهدي فقال: يأتيه الأمر يوم يأتيه وأنت مشغول.

وأخرج عن عبد الله بن صالح قال: كتب المنصور إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها إلى القائد فكتب إليه سوار: إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر فلست أخرجها من يده إلا ببينة فكتب إليه المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد فكتب إليه سوار والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد التاجر إلا بحق فلما جاءه الكتاب قال ملأتها والله عدلا وصار قضاتي تردني إلى الحق.

وأخرج من وجه آخر أن المنصور وشيء إليه بسوار فاستقدمه فعطس المنصور فلم يشمته سوار فقال ما يمنعك من التشميت؟ قال: لأنك لم تحمد الله فقال:

قد حمدت الله في نفسي قال شمتك في نفسي قال: ارجع إلى عملك فإنك إذ لم تحابيني لم تحاب غيري.

وأخرج عن نمير المدني قال: قدم المنصور المدينة ومحمد بن عمران الطلحي على قضائه وأنا كاتبه فاستعدى الجمالون على المنصور في شيء فأمرني أن أكتب إليه بالحضور وإنصافهم فاستعفيت فلم يعفني فكتبت الكتاب ثم ختمته وقال والله لا يمضي به غيرك فمضيت به إلى الربيع فدخل عليه ثم خرج فقال للناس: إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد دعيت إلى مجلس الحكم فلا يقومن معي أحد ثم جاء هو والربيع فلم يقم له القاضي بل حل رداءه واحتبى به ثم دعا بالخصوم فادعوا فقضى لهم على الخليفة فلما فرغ قال له المنصور جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار.

وأخرج عن محمد بن حفص العجلي قال: ولد لأبي دلامة ابنة فغدا على المنصور فأخبره وأنشد:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم إلى السماء فأنتم أكرم الناس

ثم أخرج أبو دلامة خريطة فقال المنصور ما هذه قال: اجعل فيها ما تأمر لي به فقال أملؤها له دراهم فوسعت ألفي درهم.

وأخرج عن محمد بن سلام الجمحي قال: قيل للمنصور: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله قال: بقيت خصلة أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث يقول المستملي من ذكرت رحمك الله قال فغدا عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر فقال لستم بهم إنما هم الدنسة ثيابهم المشققة أرجلهم الطويلة شعورهم برد الآفاق ونقله الحديث.

وأخرج عن يونس بن حبيب قال: كتب زياد بن عبد الله الحارثي إلى المنصور يسأله الزيادة في عطائه وأرزاقه وأبلغ في كتابه فوقع المنصور في القصة إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعنا في رجل أبطرتاه وأمير المؤمنين يشفق عليك من ذلك فاكتف بالبلاغة.

وأخرج عن محمد بن سلام قال: رأت جارية المنصور قميصه مرقوعاً فقالت: خليفة وقميصه مرقوع فقال ويحك أما سمعت قول ابن هرمة:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه   خلق وجيب قميصه مرقوع

وقال العسكري في الأوائل: كان المنصور في ولد العباس كعبد الملك في بني أمية في بخله رأى بعضهم عليه قميصاً مرقوعاً فقال: سبحان من ابتلى أبا جعفر بالفقر في ملكه وحدا به سلم الحادي فطرب حتى كاد يسقط من الراحلة فأجازه بنصف درهم فقال لقد حدوت بهشام فأجازني بعشرة آلاف فقال ما كان له أن يعطيك ذلك من بيت المال يا ربيع وكل به من يقبضها منه فما زالوا به حتى تركه على أن يحدو به ذهاباً وإياباً بغير شيء.

ومن شعر المنصور وشعره قليل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن تترددا
ولا تمهل الأعداء يوماً بقدرة   وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

وأخرج الصولي عن يعقوب بن جعفر قال: مما يؤثر من ذكاء المنصور أنه دخل المدينة فقال للربيع: أطلب لي رجلا يعرفني دور الناس فجاءه رجل فجعل يعرفه الدور إلا أنه لا يبتدئ به حتى يسأله المنصور فلما فارقه أمر له بألف درهم فطالب الرجل الربيع بها فقال: ما قال لي شيئاً وسيركب فذكره فركب مرة أخرى

فجعل يعرفه ولا يرى موضعاً للكلام فلما أراد أن يفارقه قال الرجل مبتدئاً وهذه يا أمير المؤمنين دار عاتكة التي يقول فيها الأخوص:

يا بيت عاتكة الذي أتعـزل حذر العدى بك الفؤاد موكل

فأنكر المنصور ابتداءه فأمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فضحك وقال ويلك يا ربيع أعطه ألف درهم.

وأخرج الصولي عن يعقوب بن جعفر قال: قال المنصور لقثم بن العباس ابن عبد الله بن العباس وكان عامله على اليمامة والبحرين: ما القثم؟ ومن أي شيء أخذ فقال لا أدري فقال اسمك اسم هاشمي لا تعرفه أنت والله جاهل قال: فإن رأي أمير المؤمنين أن يفيدنيه قال: القثم الذي ينزل بعد الأكل ويقثم الأشياء: يأخذها ويثلمها.

قال الصولي: كان المنصور أعلم الناس بالحديث والأنساب مشهوراً بطلبه قال ابن عساكر في تاريخ دمشق حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي حدثنا أبو محمد الجوهري حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن الشخير حدثنا أحمد بن إسحاق أبو بكر الملحمي حدثنا أبو عقيل أنس بن سلم الأنطرطوشي حدثني محمد بن إبراهيم السلمي عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن المنصور عن أبيه عن جده عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان يتختم في يمينه" وقال الصولي: حدثنا محمد بن زكريا اللؤلؤي حدثنا جهم بن السباق الرياحي حدثني بشر بن المفضل سمعت الرشيد يقول: سمعت المهدي يقول سمعت المنصور يقول حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تأخر عنها هلك" وقال الصولي: حدثنا محمد بن موسى حدثنا سليمان

بن أبي شيخ حدثنا أبو سفيان الحميري سمعت المهدي يقول حدثني أبي عن أبيه عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرنا أميراً وفرضنا له فرضاً فما أصاب من شيء فهو غلول. وقال الصولي: حدثنا جبلة بن محمد حدثنا أبي عن يحيى بن حمزة الحضرمي عن أبيه قال ولأني المهدي القضاء فقال: اصلب في الحكم فإن أبي حدثني عن أبيه عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً يقدر أن ينصره فلم يفعل. وقال الصولي: حدثنا محمد بن العباس ابن الفرج حدثني أبي عن الأصمعي حدثني جعفر بن سليمان عن المنصور عن أبيه عن جده عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي. وقال الصولي: حدثنا أبو إسحاق محمد بن هارون بن عيسى حدثنا الحسن بن عبيد الله الحصبي حدثنا إبراهيم ابن سعيد حدثني المأمون عن الرشيد عن المهدي عن المنصور عن أبيه عن جده عن ابن عباس قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: لا تسافروا في محاق الشهر ولا إذا كان القمر في العقرب.

مات في أيام المنصور من الأعلام: ابن المقفع وسهيل بن أبي صالح والعلاء ابن عبد الرحمن وخالد بن يزيد المصري الفقيه وداود بن أبي هند وأبو حازم سلمة بن دينار الأعرج وعطاء بن أبي مسلم الخراساني ويونس بن عبيد وسليمان الأحول وموسى بن عقبة صاحب المغازي وعمرو بن عبيد المعتزلي ويحيى بن سعيد الأنصاري والكلبي وأبو إسحاق وجعفر بن محمد الصادق والأعمش شبل بن عباد مقرئ مكة ومحمد بن عجلان المعدني الفقيه ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى وابن جريج وأبو حنيفة وحجاج بن أرطأة وحماد الراوية ورؤبة الشاعر والجريري وسليمان التيمي وعاصم الأحول وابن شبرمة الضبي ومقاتل بن حبان ومقاتل بن سليمان وهاشم بن عروة وأبو عمرو بن العلاء وأشعب الطماع وحمزة بن حبيب الزيات والأوزاعي وخلائق آخرون.

أمير المؤمنين الناصر لدين الله

الاسم المعروف للخليفة:	الناصر لدين الله
اسمه الكامل:	الناصر لدين الله ابن المستضيء بأمر الله ابن المستنجد بالله ابن المقتفي لأمر الله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	الرابع و الثلاثون
تاريخ الميلاد:	553
فترة الخلافة بالهجري:	575 -622
فترة الخلافة بالميلادي:	1180 -1225 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	المأمون
اسمه الكامل:	عبد الله بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	السابع
تاريخ الميلاد:	170
فترة الخلافة بالهجري:	198 -218
فترة الخلافة بالميلادي:	813 -833
تاريخ الوفاة:	218

المأمون: عبد الله أبو العباس بن الرشيد ولد سنة سبعين ومائة في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول وهي الليلة التي مات فيها الهادي واستخلف أبوه.

قرأ العلم في صغره، وسمع الحديث من أبيه وهشيم وعباد بن العوام ويوسف بن عطية وأبي معاوية الضرير وإسماعيل بن علية وحجاج الأعور وطبقتهم، وأدبه اليزيدي وجمع الفقهاء من الآفاق وبرع في الفقه والعربية وأيام الناس ولما كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها.

روى عنه: ولده الفضل ويحيى بن أكثم وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي والأمير عبد الله بن طاهر وأحمد بن الحارث الشيعي ودعبل الخزاعي وغيرهم.

قال أبو معشر المنجم: كان المأمون أماراً بالعدل فقيه النفس يعد من كبار العلماء.

وعن الرشيد قال إني لأعرف في عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعزة الهادي ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع يعني نفسه لنسبته.

كان أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسوددا وسماحة.

استقل المأمون بالأمر بعد قتل أخيه سنة ثمان وتسعين وهو بخرسان واكتنى بأبي جعفر.

قال الصولي: وكانوا يحبون هذه الكنية لأنها كنية المنصور وكان لها في نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كني بها كالمنصور والرشيد.

وفي سنة خمس عشرة سار المأمون إلى غزو الروم ففتح حصن قرة عنوة وحصن ماجدة ثم سار إلى دمشق ثم عاد في سنة ست عشرة إلى الروم وافتتح عدة حصون ثم عاد إلى دمشق ثم توجه إلى مصر ودخولها فهو أول من دخلها من الخلفاء العباسيين ثم عاد في سنة سبع عشرة إلى دمشق والروم.

ومات المأمون يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة بالبدندون من أقصى الروم ونقل إلى طرطوس فدفن بها.

قال الثعالبي: لا يعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبراً من الرشيد والمأمون.

قال: وكذلك خمسة من أولاد العباس تباعدت قبورهم أشد تباعد ولم ير الناس مثلهم فقبر عبد الله بالطائف وعبيد الله بالمدينة والفضل بالشام وقثم بسمرقند ومعبد بإفريقية.

وأخرج عن عبد الله بن محمد التيمي قال أراد الرشيد سفراً فأمر الناس أن يتأهبوا لذلك وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع فمضى الأسبوع ولم يخرج فاجتمعوا إلى المأمون فسألوه أن يستعلم ذلك ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر فكتب إليه المأمون:

يا خير من دبت المطي به ومن تقدى بسرجه فرس
هل غاية في المسير نعرفها أم أمرنا في المسير ملتبس
ما علم هذا إلا إلى ملك من نوره في الظلام نقتبس
إن سرت سار الرشاد متبعاً وإن تقف فالرشاد محتبس

وأخرج عن محمد بن عبد الله قال لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون.

وأخرج عن ابن عيينة قال جمع المأمون العلماء وجلس للناس فجاءت امرأة فقالت يا أمير المؤمنين مات أخي وخلف ستمائة دينار أعطوني ديناراً وقالوا هذا نصيبك قال فحسب المأمون ثم كسر الفريضة ثم قال لها هذا نصيبك فقال له العلماء كيف علمت يا أمير المؤمنين فقال هذا الرجل خلف ابنتين قالت نعم قال فلهن الثلثان أربعمائة وخلف والدة فلها السدس مائة وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون وبالله ألك اثنا عشر أخاً قالت نعم قال أصابهم ديناران ديناران وأصابك دينار.
وأخرج عن محمد بن حفص الأنماطي قال تغدينا مع المأمون في يوم عيد فوضع على مائدته أكثر من ثلاثمائة لون قال فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال هذا نافع لكذا ضار لكذا فمن كان منكم صاحب بلغم فليجتنب هذا ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا ومن غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا ومن قصد قلة الغذاء فليقتصر على هذا فقال له يحيى بن أكثم يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته أو في النجوم كنت هرمس في حسابه أو في الفقه كنت علي

بن أبي طالب رضي الله عنه في علمه أو ذكر السخاء كنت حاتم طيئ في صفته أو صدق الحديث كنت أبا ذر في لهجته أو الكرم فأنت كعب بن أمامة في فعاله أو الوفاء فأنت السموأل بن عاديا في وفائه فسر بهذا الكلام وقال إن الإنسان إنما فضل بعقله ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم.

أخرج عن عمارة بن عقيل قال: قال لي ابن أبي حفصة الشاعر أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت من ذا يكون أفرس منه والله إنا لننشد أول البيت فيسبق إلى آخره من غير أن يكون سمعه قال إني أنشدته بيتا أجدت فيه لم أراه تحرك له وهو هذا:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا　　　بالدين والناس في الدنيا مشاغيل

فقلت له: ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها سبحة فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها وهو المطوق لها ألا قلت كما قال عمك في الوليد:

فلا هو في الدنيا يضيع نصيبه　　　ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

وقال النضر بن شميل دخلت على المأمون بمرو وعلي أطمار فقال لي يا نضر أتدخل على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب فقلت يا أمير المؤمنين إن حر مرو لا يدفع إلا بمثل هذه الأخلاق قال لا ولكنك تتقشف فتجارينا الحديث فقال المأمون حدثني هشيم بن بشير عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم 'إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز' قلت صدق قول أمير المؤمنين عن هشيم حدثني عوف الأعرابي عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال 'إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد بالكسر من عوز' وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً وقال السداد لحن يا نضر قلت

نعم هاهنا وإنما لحن هشيم وكان لحاناً فقال ما الفرق بينهما قلت السداد بالفتح القصد في السبيل والسداد بالكسر البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد قال أفتعرف العرب ذلك قلت نعم هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً ثم قال قبح الله من لا أدب له ثم قال أنشدني يا نضر أخلب بيت للعرب قلت: قول ابن بيض في الحكم بن مروان:

تقول لي العيون هاجعة

أي الوجوه انتجعت قلت لها لأي وجه إلا إلى الحكم

متى يقل حاجباً سرادقه هذا ابن بيض بالباب يبتسم

قد كنت أسلمت فيك مقتبلا هيهات ادخل فأعطني سلمي

أسلمت: أسلفت مقتبلا آخذاً قبيلا أي كفيلا قال أنشدني أنصف بيت قالته العرب قلت قول ابن أبي عروبة المديني:

إني وإن كان ابن عمي عاتبا لمزاحم من خلفه وورائه

ومفيده نصري وإن كان امرأ متزحزحاً في أرضه وسمائه

وأكون والي سره وأصونه حتى يحن إلي وقت أدائه

وإذا الحوادث أجحفت بسوامه قرنت صحيحتنا إلى جربائه

وإذا دعا باسمي ليركب مركبا صعبا قعدت له على سيسائه

وإذا أتى من وجهه بطريقة لم أطلع فيما وراء خبائه

وإذا ارتدى ثوباً جميلا لم أقل يا ليت أن علي حسن ردائه

قال أنشدني أقنع بيت للعرب فأنشدته قول ابن عبدل:

إني امرؤ لـم أزل وذاك مـن ... الـلـه أديباً أعـلـم الأدبـا

أقيم بالدار ما اطمأن بـي الـدا ... ر وإن كنت نازحاً طـربـا

لا أحتوي خـلة الـصديق ولا ... إني امرؤ لـم أزل وذاك مـن ... الـلـه أديباً أعـلـم الأدبـا

أقيم بالدار ما اطمأن بـي الـدا ... ر وإن كنت نازحاً طـربـا

لا أحتوي خـلة الـصديق ولا ... أتبع نفسـي شيئاً إذا ذهـبـا

أطلب ما يطلب الكريم مـن ال ... رزق بنفسي وأجمل الطلـبـا

إني رأيت الفتـى الـكـريم إذا ... رغبته في صنـيعـه رغـبـا

والعبد لا يطلـب الـعـلاء ولا ... يعطيك شـيئاً إلا إذا رهـبـا

مثل الحمار الموقع الـسـوء لا ... يحسن شـيئاً إلا إذا ضـربـا

ولم أجد عروة العـلائق إلا ال ... دين لما اختبرت والحـسـبـا

وقد يرزق الخافض المقيم ومـا ... شد بعيس رحـلا ولا قـتـبـا

ويحرم الرزق ذو المطية والرح ... ل ومن لا يزال مـغـتـربـا

قال: أحسنت يا نضر وأخذ القرطاس فكتب شيئاً لا أدري ما هـو ثـم قـال: كيف تقول افعل من التراب قلت أترب قال ومن الطين قلت طن قال فالكتاب مـاذا قلت مترب مطين قال هذه أحسن من الأولى فكتب لي بخمسين ألف درهـم ثـم أمـر الخادم أن يوصلني إلى الفضل بن سهل فمضيت معه فلما قـرأ الكتـاب قـال يـا نضـر لحنت أمير المؤمنين قلت كلا ولكن هشيم لحانه فتبع أمير المؤمنين لفظه فأمر لـي مـن عنده بثلاثين ألفاً فخرجت إلى منزلي بثمانين ألفاً.

وأخرج الخطيب عن محمد بن زياد الأعرابي قال بعث إلى المأمون فصرت إليه وهو في بستان يمشي مع يحيى بن أكثم فرأيتهما مـوليين فجلسـت فلمـا أقـبلا قمـت

فسلمت عليه بالخلافة فسمعته يقول ليحيى يا أبا محمد ما أحسن أدبه رآنا موليين فجلس ثم رآنا مقبلين فقام ثم رد علي السلام فقال أخبرني عن قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق   نمشي على النمارق

مشي قطا الهمارق

من طارق هذا فنظرت في نسبها فلم أجده فقلت يا أمير المؤمنين ما أعرفه في نسبها فقال إنما أرادت النجم وانتسبت إليه لحسنها من قول الله تعالى "والسماء والطارق" (الطارق: 1) فقلت فأيده أمير المؤمنين فقال أنا بؤبؤ هذا الأمر وابن بؤبؤه ثم رمى إلي بعنبرة كان يقلبها في يده بعتها بخمسة آلاف درهم.

وأخرج عن أبي عبادة قال: كان المأمون أحد ملوك الأرض وكان يجب له هذا الاسم على الحقيقة.

وأخرج عن ابن أبي دؤاد قال دخل رجل من الخوارج على المأمون فقال له المأمون ما حملك على خلافنا قال آية في كتاب الله قال وما هي قال قوله تعالى "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" المائدة: 44 قال ألك علم بأنها منزلة قال نعم قال وما دليلك قال إجماع الأمة قال فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل فارض بإجماعهم في التأويل قال صدقت السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وأخرج عن إبراهيم بن سعيد الجوهري قال وقف رجل بين يدي المأمون قد جنى جناية فقال له والله لأقتلنك فقال يا أمير المؤمنين تأن علي فإن الرفق نصف العفو قال وكيف وقد حلفت لأقتلنك فقال لأن تلقى الله حانثاً خير من أن تلقاه قاتلا فخلى سبيله.

وأخرج الخطيب عن أبي الصلت عبد السلام بن صالح قال بت عند المأمون ليلة فنام القيم الذي كان يصلح السراج فقام المأمون وأصلحه وسمعته يقول ربما أكون في المتوضأ فيشتمني الخدام ويفترون علي ولا يدرون أنه أسمع فأعفو عنهم وأخرج الصولي عن عبد الله بن البواب قال كان المأمون يحلم حتى يغيظنا وجلس مرة يستاك على دجلة من وراء ستر ونحن قيام بين يديه فمر ملاح وهو يقول أتظنون أن هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه قال فوالله ما زاد على أن تبسم وقال لنا ما الحيلة عندكم حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل.

وأخرج الخطيب عن يحيى بن أكثم قال ما رأيت أكرم من المأمون بت عنده ليلة فأخذه سعال فرأيته يسد فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه.

وكان يقول أول العدل أن يعدل الرجل في بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ إلى الطبقة السفلى، وأخرج ابن عساكر عن يحيى بن خالد البرمكي قال: قال لي المأمون يا يحيى اغتنم قضاء حوائج الناس فإن الفلك أدور والدهر أجور من أن يترك لأحد حالا أو يبقى لأحد نعمة.

وأخرج عن عبد الله بن محمد الزهري قال: قال المأمون غلبة الحجة احب إلي من غلبة القدرة لأن غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزيلها شيء. واخرج عن العتبي قال سمعت المأمون يقول من لم يحمدك على حسن النية لم يشكر على جميل الفعل.

وأخرج عن أبي العالية قال سمعت المأمون يقول ما أقبح اللجاجة بالسلطان وأقبح من ذلك الضجر من القضاة قبل التفهم وأقبح منه سخافة الفقهاء بالدين وأقبح منه البخل بالأغنياء والمزاح بالشيوخ والكسل بالشباب والجبن بالمقاتل.

وأخرج عن علي بن عبد الرحيم المروزي قال قال المأمون أظلم الناس لنفسه من يتقرب إلى من يبعده ويتواضع لمن لا يكرمه ويقبل مدح من لا يعرفه.

وأخرج عن مخارق قال أنشدت المأمون قول أبي العتاهية:

وإني لمحتاج إلى ظل صاحب　　　يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال لي أعد فأعدت سبع مرات فقال لي يا مخارق خذ مني الخلافة وأعطني هذا الصاحب، وأخرج عن هدبة بن خالد قال حضرت غداء المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض فنظر إلي المأمون فقال أما شبعت؟ قلت بلى ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "من أكل ما تحت مائدة أمن من الفقر" فأمر لي بألف دينار.

وأخرج عن الحسن بن عبدوس الصفار قال لما تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل أهدى الناس إلى الحسن فأهدى له رجل فقير مزودين في أحدهما ملح وفي الآخر أشنان وكتب إليه جعلت فداك خفة البضاعة قصرت ببعد الهمة وكرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا ذكر لي فيها فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته وبالمختوم به لطيبه ونظافته فأخذ الحسن المزودين ودخل بهما على المأمون فاستحسن ذلك وأمر بهما ففرغا وملئا دنانير.

وأخرج الصولي عن محمد بن القاسم قال: سمعت المأمون يقول أنا والله ألذ العفو حتى أخاف أن لا أوجر عليه ولو علم الناس مقدار محبتي للعفو لتقربوا إلي بالذنوب.

وأخرج ابن عساكر عن يحيى بن أكثم قال كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فجاء رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده فوقف على طرف

البساط وقال السلام عليكم فرد عليه المأمون فقال أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه جلسته باجتماع الأمة أم بالمغالبة والقهر قال لا بهذا ولا بهذا بل كان يتولى أمر المسلمين من عقد لي ولأخي فلما صار الأمر إلي علمت أني محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في المشرق والمغرب على الرضا بي رأيت أني متى خليت الأمر اضطرب حبل الإسلام ومرج أمرهم وتنازعوا وبطل الجهاد والحج وانقطعت السبل فقمت حياطة للمسلمين إلى أن يجمعوا على رجل يرضون به فأسلم إليه الأمر فمتى اتفقوا على رجل خرجت له من الأمر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وذهب. وأخرج عن محمد بن المنذر الكندي قال حج الرشيد فدخل الكوفة فطلب المحدثين فلم يتخلف إلا عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس فبعث إليهما الأمين والمأمون فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث فقال المأمون يا عم أتأذني لي أن أعيدها من حفظي قال نعم افعل فأعادها فعجب من حفظه.

وقال بعضهم استخرج المأمون كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرس هكذا ذكره الذهبي مختصراً.

وقال الفاكهي أول من كسا الكعبة الديباج الأبيض المأمون واستمر ذلك بعده إلى أيام الخليفة الناصر إلا أن محمود بن سبكتين كساها في خلال هذه المدة ديباجاً أصفر.

ومن كلام المأمون لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال وقال أعيت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر وإذا أدبر أن يقبل وقال أحسن المجالس ما نظر فيه إلى الناس وقال الناس ثلاثة فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض ومنهم كالداء مكروه على كل حال.

وقال ما أعياني جواب أحد مثل ما أعياني جواب رجل من أهل الكوفة قدمه أهلها فشكا عاملهم فقلت كذبت بل هو رجل عادل فقال صدق أمير المؤمنين

وكذبت أنا قد خصصتنا به في هذه البلدة دون باقي البلاد خذه واستعمله على بلد آخر يشملهم من عدله وإنصافه مثل الذي شملنا فقلت قم في غير حفظ الله عزلته عنكم.

ومن شعر المأمون:

لساني كتوم لأسراركم ودمعي نموم لسري مذيع
فلولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

وأخرج الصولي عن محمد بن عمرو قال دخل أصرم بن حميد على المأمون وعنده المعتصم فقال يا أصرم صفني وأخي ولا تفضل واحداً منا على صاحبه فأنشد بعد قليل:

رأيت سفينة تجرى ببحر إلى بحرين دونهما البحور
إلى ملكين ضوؤهما جميعاً سواء حار دونهما البصير
كلا الملكين يشبه ذاك هذا وذا هذا وذاك وذا أمير
فإن يك ذا وذاك هذا فلي في ذا وذاك معاً سرور
رواق المجد ممدود على ذا وهذا وجهه بدر منير

ذكر أحاديث من رواية المأمون: قال البهيقي سمعت الإمام أبا عبد الله الحاكم قال سمعت أبا أحمد الصيرفي وسمعت جعفر بن أبي عثمان الطيالسي يقول صليت العصر في الرصافة خلف المأمون في المقصورة يوم عرفة فلما سلم كبر الناس فرأيت المأمون خلف الدرابزين وهو يقول لا يا غوغاء لا يا غوغاء غدا سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم فلما كان يوم الأضحى حضرت إلى الصلاة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة

وأصيلا حدثنا هشيم بن بشير وحدثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم قدمه ومن ذبح بعد أن يصلي فقد أصاب السنة" الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا اللهم أصلحني واستصلحني وأصلح على يدي قال الحاكم هذا حديث لم نكتبه إلا عن أبي أحمد وهو عندنا ثقة مأمون ولم يزل في القلب منه شيء حتى ذاكرت به أبا الحسن الدارقطني فقال هذه الرواية عندنا صحيحة عن جعفر فقلت هل من متابع فيه لشيخنا أبي أحمد فقال نعم ثم قال حدثني الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات حدثني أبو الحسين محمد بن عبد الرحمن الروز باذي حدثنا محمد بن عبد الملك التاريخي قال الدارقطني وما فيهم إلا ثقة مأمون حدثنا جعفر الطيالسي حدثنا يحيى بن معين قال سمعت المأمون فذكر الخطبة والحديث. وقال الصولي: حدثنا جعفر الطيالسي حدثنا يحيى بن معين قال خطبنا المأمون ببغداد يوم الجمعة ووافق يوم عرفة فلما سلم كبر الناس فأنكر التكبير ثم وثب حتى أخذ بخشب المقصورة وقال يا غوغاء ما هذه التكبير في غير أيامه حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زال يلبي حتى رمى جمرة العقبة والتكبير في غد ظهراً عند انقضاء التلبية إن شاء الله تعالى.

وقال الصولي: حدثنا أبو القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال كنا عند المأمون فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الخلق عيال الله فأحب عباد الله إلى الله عز وجل أنفعهم لعياله" فصاح المأمون وقال اسكت أنا أعلم بالحديث منك حدثنيه يوسف بن عطية الصفار عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "الخلق عيال الله فأحب عباد الله أنفعهم لعياله" أخرجه من هذا الطريق ابن عساكر وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده غيره من طرق عن يوسف بن عطية.

وقال الصولي حدثنا المسيح بن حاتم العكلي حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال سمعت المأمون يخطب فذكر في خطبته الحياء فوصفه ومدحه ثم قال حدثنا هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكرة وعمران بن حصين قالا قال رسول صلى الله عليه وسلم "الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والبذاءة من الجفاء والجفاء في النار" أخرجه ابن عساكر من طريق يحيى بن أكثم عن المأمون.

وقال الحاكم حدثنا الحسين بن تميم حدثنا الحسين بن فهم حدثنا يحيى بن أكثم القاضي قال: قال لي المأمون يوماً يا يحيى إني أريد أن أحدث فقلت ومن أولى بهذا من أمير المؤمنين فقال ضعوا لي منبراً فصعد وحدث فأول حديث حدثنا به عن هشيم عن أبي الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار" ثم حدث بنحو من ثلاثين حديثاً ثم نزل فقال لي يا يحيى كيف رأيت مجلسنا قلت أجل مجلس يا أمير المؤمنين تفقه الخاصة والعامة فقال لا وحياتك ما رأيت لكم حلاوة وإنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر.

وقال الخطيب حدثنا أبو الحسن علي بن القاسم الشاهد حدثنا أبو علي الحسن بن محمد بن عثمان حدثنا الحسين بن عبيد الله الأبزاري حدثنا إبراهيم ابن سعيد الجوهري قال لما فتح المأمون مصر قال له قائل الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي كفاك أمر عدوك وأدان لك العراقين والشامات ومصر وأنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ويحك إلا أنه بقيت لي خلة وهو أن أجلس في مجلس ويستملي يحيى فيقول لي من ذكرت رضى الله عنك فأقول حدثنا الحمادان حماد بن سلمة وحماد بن زيد قالا حدثنا ثابت البناني عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من عال ابنتين أو ثلاثاً أو أختين أو ثلاثاً حتى يمتن أو يموت عنهن كان معي كهاتين في الجنة" وأشار بالمسبحة والوسطى.

قال الخطيب في هذا الخبر غلط فاحش ويشبه أن يكون المأمون رواه عن رجل عن الحمادين وذلك أن مولد المأمون سنة سبعين ومات حماد بن سلمة في سنة سبع وستين قبل مولده بثلاث سنين وأما حماد بن زيد فمات في تسع وسبعين.

وقال الحاكم حدثنا بن يعقوب بن إسماعيل الحافظ حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي حدثنا محمد بن سهل بن عسكر قال وقف المأمون يوماً للأذان ونحن وقوف بين يديه إذ تقدم إليه رجل غريب بيده محبرة فقال يا أمير المؤمنين صاحب حديث منقطع به فقال له المأمون إيش تحفظ في باب كذا فلم يذكر فيه شيئاً فما زال المأمون يقول حدثنا هشيم وحدثنا الحجاج وحدثنا فلان حتى ذكر الباب ثم سأله عن باب ثان فلم يذكر فيه شيئاً فذكره المأمون ثم نظر إلى أصحابه فقال يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول أنا من أصحاب الحديث أعطوه ثلاثة دراهم.

وقال ابن عساكر: حدثنا محمد بن إبراهيم الغزي حدثنا أبو بكر محمد بن إسماعيل بن السري التفليسي وحدثنا أبو عبد الرحمن السلمي أخبرني عبيد الله ابن محمد الزاهد العكبري حدثنا عبد الله بن محمد بن مسيح حدثنا محمد بن المغلس حدثنا محمد بن السري القنطري حدثنا علي بن عبد الله قال قال يحيى بن أكثم بت ليلة عند المأمون فانتبهت في جوف الليل وأنا عطشان فتقلبت فقال يا يحيى ما شأنك قلت عطشان فوثب من مرقده فجاءني بكوز من ماء فقلت يا أمير المؤمنين ألا دعوت بخادم ألا دعوت بغلام قال لا حدثني أبي عن أبيه عن جده عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سيد القوم خادمهم".

وقال الخطيب حدثنا الحسن بن عثمان الواعظ حدثنا جعفر بن محمد بن الحاكم الواسطي حدثني أحمد بن الحسن الكسائي حدثنا سليمان بن الفضل النهرواني حدثني يحيى بن أكثم فذكر نحوه إلا أنه قال حدثني الرشيد حدثني المهدي حدثني المنصور عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس حدثني حرير ابن عبد الله سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول "سيد القوم خادمهم"، وقال ابن عساكر حدثنا أبو الحسن على ابن أحمد حدثنا القاضي أبو المظفر هناد بن إبراهيم النسفي حدثنا محمد بن أحمد ابن محمد بن سليمان الغنجار حدثنا أبو أحمد علي بن محمد بن عبد الله المروزي حدثنا أبو العباس عيسى بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن الكاتب حدثني محمد بن قدامة بن إسماعيل صاحب النضر بن شميل حدثنا أبو حذيفة البخاري قال: سمعت المأمون أمير المؤمنين يحدث عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مولى القوم منهم" قال محمد بن قدامة فبلغ المأمون أن أبا حذيفة حدث بهذا عنه فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وفي أيام المأمون أحصيت أولاد العباس فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى وذلك في سنة مائتين.

وفي أيامه مات من الأعلام: سفيان بن عيينة والإمام الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان ويونس بن بكير راوي المغازي وأبو مطيع البلخي صاحب أبي حنيفة رحمه الله ومعروف الكرخي الزاهد وإسحاق بن بشر صاحب كتاب المبتدأ وإسحاق بن الفرات قاضي مصر من أجله أصحاب مالك وأبو عمرو الشيباني اللغوي وأشهب صاحب مالك والحسن بن زياد اللؤلؤي صاحب أبى حنيفة وحماد بن أسامة الحافظ وروح بن عبادة وزيد بن الحباب وأبو داود الطيالسي والغازي ابن قيس من أصحاب مالك وأبو سليمان الداراني الزاهد المشهور وعلي الرضى ابن موسى الكاظم والفراء إمام العربية وقتيبة بن مهران صاحب الإمالة وقطرب النحوي والواقدي وأبو عبيدة معمر بن المثنى والنضر بن شميل والسيدة نفيسة وهشام أحد النحاة الكوفيين واليزيدي ويزيد بن هارون ويعقوب بن إسحاق الحضرمي قارئ البصرة وعبد الرزاق وأبو العتاهية الشاعر وأسد السنة وأبو عاصم النبيل والفريابي وعبد الملك بن الماجشون وعبد الله بن الحكم وأبو زيد الأنصاري صاحب العربية والأصمعي، وغيرهم.

أمير المؤمنين محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	المعتصم
اسمه الكامل:	محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو اسحاق
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثامن
تاريخ الميلاد:	179
فترة الخلافة بالهجري:	218 -227
فترة الخلافة بالميلادي:	833 -842 م
تاريخ الوفاة:	227

روى عن أبيه وأخيه المأمون وروى عنه إسحاق الموصلي وحمدون ابن إسماعيل وآخرون، وكان ذا شجاعة وقوة وهمة.

وقال نفطويه والصولي للمعتصم مناقب وكان يقال له المثمن لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس والثامن من ولد العباس وثامن أولاد الرشيد وملك سنة ثمان عشرة وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ومولده سنة ثمان وسبعين وعاش ثمانياً وأربعين سنة وطالعه العقرب وهو ثامن برج وفتح ثمانية فتوح وقتل ثمانية أعداء وخلف ثمانية أولاد ومن الإناث كذلك ومات لثمان بقين من ربيع الأول.

أمير المؤمنين هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	هارون الرشيد
اسمه الكامل:	هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكتية:	أبو جعفر
ترتيبه في تولي الخلافة:	الخامس
تاريخ الميلاد:	148
فترة الخلافة بالهجري:	170 -193
فترة الخلافة بالميلادي:	786 -809 م
تاريخ الوفاة:	193

يعتبر عصر هارون الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة الاسلامية أو قل بالنسبة للتاريخ الاسلامي الوسيط كله، فقد اكتملت للدولة ألوان من العظمة والقوة والجد العلمي، وكانت الدولة مهيبة الجانب، فاحترمتها الدول المجاورة وهابتها. [1]

استخلف هارون الرشيد بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة.

حدث عن أبيه وعن جده ومبارك بن فضالة وروى عنه ابنه المأمون وغيره وكان من أمير الخلفاء واجل ملوك الدنيا، وكان يحج سنة، ويغزو سنة، قال فيه أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففي أرض العدو على طمر وفي ارض الترفه فوق كور

مولده بالري حين كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان، وكان أبيض طويلاً جميلا مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب.

وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات لا يتركها إلا لعلة ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم.

وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص.

قال أبو معاوية الضرير: ما ذكرت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين يدي الرشيد إلا قال صلى الله على سيدي وحدثه بحديثه صلى الله عليه وآله وسلم "وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحي فأقتل" فبكى حتى انتحب.

وكان الرشيد بايع بولاية العهد لابنه محمد في سنة خمس وسبعين و مائة ولقبه الأمين.

مات الرشيد في الغزو بطوس من خراسان ودفن بها في ثالث من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة وله خمس وأربعون سنة وصلى عليه ابنه صالح.

مات في أيامه من الأعلام مالك بن أنس والليث بن سعد وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة والقاسم بن معن ومسلم بن خالد الزنجي ونوح الجامع والحافظ أبو عوانة اليشكري وإبراهيم بن سعد الزهري وأبو إسحاق الفزاري وإبراهيم بن أبي يحيى شيخ الشافعي وأسد الكوفي من كبار أصحاب أبي حنيفة وإسماعيل بن عياش وبشر بن المفضل وجرير ابن عبد الحميد وزياد البكائي وسليم المقرئ صاحب حمزة وسيبويه إمام العربية وضيغم الزاهد وعبد الله العمري الزاهد وعبد الله بن المبارك

وعبد الله بن إدريس الكوفي وعبد العزيز بن أبي حازم والدراوردي والكسائي شيخ القراء والنحاة ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كلاهما في يوم وعلي بن مسهر وغنجار وعيسى بن يونس السبيعي والفضيل ابن عياض وابن السماك الواعظ ومروان بن أبي حفصة الشاعر والمعافي ابن عمران الموصلي ومعتمر بن سليمان والمفضل بن فضالة قاضي مصر وموسى بن ربيعة أبو الحكم المصري أحد الأولياء والنعمان بن عبد السلام الأصبهاني وهشيم ويحيى بن أبي زائدة ويزيد بن زريع ويونس ابن حبيب النحوي ويعقوب بن عبد الرحمن قارئ المدينة وصعصعة ابن سلام عالم الأندلس أحد أصحاب مالك وعبد الرحمن بن القاسم أكبر أصحاب مالك والعباس بن الحنف الشاعر المشهور وأبو بكر ابن عياش المقرئ ويوسف بن الماجشون وخلائق آخرون كبار.

وفي سنة ست وسبعين ومائة فتحت مدينة دبسة على يد الأمير عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح العباسي.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة اعتمر الرشيد في رمضان ودام على إحرامه إلى أن حج ومشى من مكة إلى عرفات.

وفي سنة ثمانين ومائة كانت الزلزلة العظمى وسقط منها رأس منارة الإسكندرية.

وفي سنة إحدى وثمانين ومائة فتح حصن الصفصاف عنوة وهو الفاتح له.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر على أرمينية فأوقعوا بأهل الإسلام وسفكوا وسبوا أزيد من مائة ألف نسمة وجرى على الإسلام أمر عظيم لم يسمع قبله مثله.

وفي سنة سبع وثمانين ومائة أتاه كتاب من ملك الروم نقفور بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة ريني ملكة الروم، فسار الرشيد ليومه فلم يزل حتى نازل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحاً مبيناً فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة فأجيب فلما رجع الرشيد إلى الرقة نقض العهد لإياسه من كرة الرشيد في البرد فلم يجترئ أحد أن يبلغ الرشيد نقضه بل قال عبد الله بن يوسف التيمي:

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غنم أتاك به الإله كبير

وفي سنة تسع وثمانين ومائة فادى الروم حتى لم يبق بممالكهم في الأسر مسلم.

وفي سنة تسعين ومائة فتح هرقل وبث جيوشه بأرض الروم فافتتح شراحيل ابن معن بن زائدة حصن الصقالبة وافتتح يزيد بن مخلد ملقونية وسار حميد ابن معيوف إلى قبرس فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.

كان الرشيد رضي الله عنه يتواضع لأهل الخير فقعد بين يدي مالك، وقبل يدي حسين الجعفي، وصب الماء على يدي ابي معاوية الضرير.

روي أن ابن السماك دخل على الرشيد يوماً فاستسقى فأتى بكوز فلما أخذه قال على رسلك يا أمير المؤمنين لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها قال بنصف ملكي قال اشرب هنأك الله تعالى فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها قال: بجميع ملكي قال إن ملكاً قيمته شربة ماء وبوله لجدير أن لا ينافس فيه فبكى هارون الرشيد بكاءاً شديداً.

ومما رواه الرشيد من الحديث قال الصولي: حدثنا عبد الرحمن بن خلف حدثني جدي الحصين بن سليمان الضبي سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته حدثني مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اتقوا الله ولو بشق تمرة" حدثني محمد بن علي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم "نظفوا أفواهكم فإنها طريق القرآن".

أمير المؤمنين المعتز بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المعتز بالله
اسمه الكامل:	المعتز بالله ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو عبد الله
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثالث عشر
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	252 -255
فترة الخلافة بالميلادي:	866 -869 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المسترشد بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المسترشد بالله
اسمه الكامل:	المسترشد بالله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو منصور
ترتيبه في تولي الخلافة:	التاسع والعشرون
تاريخ الميلاد:	485
فترة الخلافة بالهجري:	512 -529
فترة الخلافة بالميلادي:	1118 -1135 م
تاريخ الوفاة:	

كان المسترشد بالله ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأي وهيبة شديدة ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها وباشر الحروب بنفسه وخرج عدة نوب إلى الحلة والموصل وطريق خراسان إلى أن خرج النوبة الأخيرة وكسر جيشه بقرب همذان وأخذ أسيراً إلى أذربيجان.

وقد سمع الحديث من أبي القاسم بن بيان وعبد الوهاب بن هبة الله السبتي وروى عنه محمد بن عمر بن مكي الأهوازي ووزيره علي بن طراد وإسماعيل بن طاهر الموصلي ذكر ذلك ابن السمعاني وذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية

ناهيك بذلك فقال: هو الذي صنف له أبو بكر الشاشي كتابة العمدة في الفقه وبلقبه اشتهر الكتاب فإنه كان حينئذ يلقب عمدة الدنيا والدين وذكره ابن السبكي في طبقات الشافعية وقال: كان في أول أمره تنسك ولبس الصوف وانفرد في بيت للعبادة وكان مولده في يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة وخطب له أبوه بولاية العهد ونقش اسمه على السكة في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وكان مليح الخط وما كتب أحد من الخلفاء قبله مثله يستدرك على كتابه ويصلح أغاليط في كتبهم وأما شهامته وهيبته وشجاعته وإقدامه فأمر أشهر من الشمس ولم تزل أيامه مكدرة بكثرة التشويش والمخالفين وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك إلى أن خرج الخرجة الأخيرة إلى العراق وانكسر وأخذ ورزق الشهادة.

ومن شعره:

أنا الأشقر المدعو بي في الملاحم ... من يملك الدنيا بغير مزاحم

ستبلغ أرض الروم خيلي وتنتضى ... بأقصى بلاد الصين بيض صوارمي

ومن شعره لما أسر:

ولا عجبا للأسد إن ظفرت بها ... كلاب الأعادي من فصيح وأعجم

فحربة وحشي سقت حمزة الردى ... وموت علي من حسام ابن ملجم

وله لما كسر وأشير عليه بالهزيمة فلم يفعل وثبت حتى أسر:

قالوا تقيم وقد أحا ... ط بك العدو ولا تفر

فأجبتهم المرء ما ... لم يتعظ بالوعظ غر

لا نلت خيراً ما حيي ... ت ولا عداني الدهر شر

إن كنت أعلم أن غيـ ... ـر الله ينفع أو يضر

قال الذهبي: وقد خطب بالناس يوم عيد أضحى فقال: الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء وعلت على الأرض السماء الله أكبر ما همى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب وسر قادماً إياب وذكر خطبة بليغة ثم جلس ثم قام فخطب وقال: اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووفقني وانصرني فلما أنهاها وتهيأ للنزول بدره أبو المظفر الهاشمي فأنشده:

عليك سلام الله يا خير من علا ... على منبر قد حف أعلامه النصر
وأفضل من أم الأنام وعمهم ... بسريته الحسنى وكان له الأمر
وأفضل أهل الأرض شرقاً ومغرباً ... ومن جده من أجله نزل القطر
لقد شنفت أسماعنا منك خطبة ... وموعظة فصل يلين لها الصخر
ملأت بها كل القلوب مهابة ... فقد رجفت من خوف تخويفها مصر
وزدت بها عدنان مجداً مؤثلا ... فأضحى بها بين الأنام لك الفخر
وسدت بني العباس حتى لقد غدا ... يباهي بك السجاد والعالم البحر
فلله عصر أنت فيه إمامنا ... ولله دين أنت فيه لنا الصدر
بقيت على الأيام والملك كلما ... تقادم عصر أنت فيه أتى عصر
وأصبحت بالعيد السعيد مهنأ ... تشرفنا فيه صلاتك والنحر

وقال وزيرة جلال الدين الحسن بن علي بن صدقة يمدحه:

وجدت الورى كالماء طعماً ورقة ... وأن أمير المؤمنين زلالة
وصورت معنى العقل شخصاً مصوراً ... وأن أمير المؤمنين مثاله
ولولا مكان الدين والشرع والتقى ... لقلت من الإعظام جل جلاله

وفي سنة أربع وعشرين من أيامه قتل صاحب مصر الآمر بأحكام الله منصور عن غير عقب وقام بعده ابن عمه الحافظ عبد المجيد بن محمد بن المنتصر.

وممن مات في أيام المسترشد من الأعلام شمس الأئمة أبو الفضل إمام الحنفية وأبو الوفاء بن عقيل الحنبلي وقاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني وابن بليمة المقرئ والطغرائي صاحب لامية العجم وأبو علي الصدفي الحافظ وأبو نصر القشيري وابن القطاع اللغوي ومحيي السنة البغوي وابن الفحام المقرئ والحريري صاحب المقامات والميداني صاحب الأمثال وأبو الوليد بن رشد المالكي والإمام أبو بكر الطرطوشي وأبو الحجاج السرقسطي وابن السيد البطليوسي وأبو علي الفارقي من الشافعية وابن الطراوة النحوي وابن الباذش وظافر الحداد الشاعر وعبد الغفار الفارسي.

أمير المؤمنين أحمد المستعين بالله بن محمد بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	المستعين بالله
اسمه الكامل:	أحمد بن محمد بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثاني عشر
تاريخ الميلاد:	220
فترة الخلافة بالهجري:	248 -252
فترة الخلافة بالميلادي:	862 -866 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين الراضي بالله

الاسم المعروف للخليفة:	الراضي بالله
اسمه الكامل:	الراضي بالله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	العشرون
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	322 -329
فترة الخلافة بالميلادي:	934 -940 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين القادر بأمر الله

الاسم المعروف للخليفة:	القادر بأمر الله
اسمه الكامل:	القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	الخامس والعشرون
تاريخ الميلاد:	

فترة الخلافة بالهجري:	381 -422
فترة الخلافة بالميلادي:	991 -1031 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المتقي لله

الاسم المعروف للخليفة:	المتقي لله
اسمه الكامل:	المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو إسحاق
ترتيبه في تولي الخلافة:	الحادي والعشرون
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	329 -333
فترة الخلافة بالميلادي:	940 -944 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المستظهر بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المستظهر بالله
اسمه الكامل:	المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثامن والعشرون
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	487 -512
فترة الخلافة بالميلادي:	1094 -1118
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المستكفي بالله

الاسم المعروف للخليفة:	المستكفي بالله
اسمه الكامل:	المستكفي بالله ابن المكتفي بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو القاسم

ترتيبه في تولي الخلافة:	الثاني والعشرون
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	333 -334
فترة الخلافة بالميلادي:	944 -946 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المطيع لله

الاسم المعروف للخليفة:	المطيع لله
اسمه الكامل:	المطيع لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو القاسم
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثالث والعشرون
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	334 -363
فترة الخلافة بالميلادي:	946 -974 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله

الاسم المعروف للخليفة:	المقتدي بأمر الله
اسمه الكامل:	المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
الكنية:	أبو القاسم
ترتيبه في تولي الخلافة:	السابع والعشرون
تاريخ الميلاد:	
فترة الخلافة بالهجري:	487 -467
فترة الخلافة بالميلادي:	1075 -1094 م
تاريخ الوفاة:	

أمير المؤمنين المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	المهدي
اسمه الكامل:	محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو عبد الله
ترتيبه في تولي الخلافة:	الثالث
تاريخ الميلاد:	127
فترة الخلافة بالهجري:	158-169
فترة الخلافة بالميلادي:	775-785م
تاريخ الوفاة:	169

كان المهدي جواداً شهما فطنا مليح الشكل محبباً إلى الرعية حسن الاعتقاد تتبع الزنادقة وأفنى منهم خلقاً كثيراً وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين روي الحديث عن أبيه وعن مبارك بن فضالة حدث عنه يحيى بن حمزة وجعفر بن سليمان الضبعي ومحمد بن عبد الله الرقاشي وأبو سفيان سعيد بن يحيى الحميري قال الذهبي وما علمت قيل فيه جرحاً ولا تعديلاً.

ولما شب المهدي أمره أبوه على طبرستان وما والاها وتأدب وجالس العلماء وتميز ثم إن أباه عهد إليه فلما مات بويع بالخلافة ووصل الخبر إليه ببغداد فخطب الناس فقال: إن أمير المؤمنين عبد دعي فأجاب وأمر فأطاع واغرورقت عيناه فقال قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة ولقد فارقت عظيماً وقلدت جسيماً فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وبه أستعين على خلافة المسلمين أيها الناس أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية وتحمدوا العاقبة واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم وطوى الإصر عنكم وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدما ذلك والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال نفطويه: لما حصلت الخزائن في يد المهدي أخذ في رد المظالم فأخرج أكثر الذخائر ففرقها وبر أهله ومواليه.

وقال غيره: أول من هنأ المهدي بالخلافة وعزاه بأبيه أبو دلامة فقال:

عيناي واحدة ترى مسرورة ... بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسوؤها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موت الخليفة محرماً ... ويسرها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى ... شعراً أسرحه وآخر ينتف
هلك الخليفة يا لدين محمد ... وأتاكم من بعد من يخلف

أهدى لهذا الله فضل خـلافة ولذاك جنات النعيم تزخـرف

وفي سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدي بولاية العهد لموسى الهادي ثـم مـن بعده لهارون الرشيد ولديه.

وفي سنة ستين ومائة فتحت أربد من الهند عنوة وفيها حج المهدي فأنهى إليه حجبة الكعبة أنهم يخافون هدمها لكثرة ما عليها من الأستار فأمر بها فجردت واقتصر على كسوة المهدي وحمل إلى المهدي الثلج إلى مكة قال الذهبي لم يتهيأ ذلك لملك قط.

وفي سنة إحدى وستين ومائة أمر المهدي بعمارة طريق مكة وبنى بها قصوراً وعمل البرك وأمر بترك المقاصير التي في جوامع الإسلام وقصر المنابر وصيرها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة ثلاث وستين وما بعدها كثرت الفتوح بالروم.

وفي سنة ست وستين ومائة تحول المهدي إلى قصره المسمى بعيساباذ وأمر فأقيم له البريد من المدينة النبوية ومن اليمن ومكة إلى الحضرة بغالاً وإبلا قال الذهبي: وهو أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق.

وفيها وفيما بعدها جد المهدي في تتبع الزنادقة وإبادتهم والبحث عنهم في الآفاق والقتل على التهمة.

وفي سنة سبع وستين ومائة أمر بالزيادة الكبرى في المسجد الحرام وأدخل في ذلك دوراً كثيرة.

وقال سلم الخاسر يرثي الخليفة المهدي:

وباكية على المهدي عبــــــرى	كأن بها وما جنت جنـــونـــا
وقد خمشت محاسنها وأبــــدت	غدائرها وأظهرت القرونـــــا
لئن بلى الخليفة بـعـد عــــز	لقد أبقى مساعي ما بلينـــا
سلام الله عـدة كـل يـــــوم	على المهدي حين ثوى رهينـــا
تركنا الدين والدنيا جميعـــــاً	بحيث ثوى أميــــــر المؤمنينا

ومن أخبار المهدي قال الصولي لما عقد المهدي العهد لولده موسى قال مروان بن أبي حفصة:

عقدت لموسى بالرصافة بيعـــــة	شد الإله بها عرى الإســـلام
موسى الذي عرفت قريش فضله	ولها فضيلتها على الأقـــوام
بمحمد بعد النبي محمــــــد	حيي الحلال ومات كل حــرام
مهدي أمته الذي أمســـت به	للذل آمنه وللإعـــــــدام
موسى ولي عهد الخلافة بعـــده	جفت بذاك مواقع الأقــــلام

وقال آخر:

يا بن الخليفة إن أمة أحمـــــد	تاقت إليك بطاعة أهـواؤهـــــا
ولتملأن الأرض عدلا كـالـذي	كانت تحدث أمة علـماؤهـــــا
حتى تمنى لو ترى أمـواتـهـــا	من عدل حكمك ما ترى أحياؤها
فعلى أبيك اليوم بهجة ملكـهـا	وغدا عليك إزارهـا ورداؤهـــــا

وأسند الصولي أن امرأة اعترضت المهدي فقال يا عصبة رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر في حاجتي فقال المهدي: ما سمعتها من أحد قط أقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

وأخرج البغوي في الجعديات عن حمدان الأصبهاني قال كنت عند شريك فأتاه ابن المهدي فاستند وسأل عن حديث فلم يلتفت شريك ثم أعاد فعاد فقال كأنك تستخف بأولاد الخلفاء قال لا ولكن العلم أزيد عند أهله من أن يضيعوه فجثا على ركبتيه ثم سأله فقال شريك هكذا يطلب العلم.

ومن شعر المهدي ما أنشده الصولي:

ما يكف الناس عنا	ما يمل الناس منا
إنما همتهم أن	ينبشوا ما قد دفنا
لو سكنا بطن أرض	فلكانوا حيث كنا
وهم إن كاشفونا	في الهوى يوماً مجنا

وأسند عن أبي عبيدة قال كان المهدي يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها فأقيمت الصلاة يوماً فقال أعرابي لست على طهر وقد رغبت في الصلاة خلفك فأمر هؤلاء بانتظاري فقال: انتظروه ودخل المحراب فوقف إلى أن قيل قد جاء الرجل فكبر فعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وأسند عن إبراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه في نهر من أنهار البصرة فقال: إن الأرض لله في أيدينا للمسلمين فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه على كافتهم وفي مصلحتهم فلا سبيل لأحد عليه فقال القوم: هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه قال: "من أحيا أرضاً ميتة فهي له" وهذه موات فوثب المهدي عند ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حتى ألصق خده بالتراب

وقال: سمعت لما قال وأطعت ثم عاد وقال بقي أن تكون هذه الأرض مواتاً حتى لا أعرض فيها وكيف تكون مواتاً والماء المحيط بها من جوانبها فإن أقاموا البينة على هذا سلمت.

وأسند عن الأصمعي قال: سمعت المهدي على منبر البصرة يقول إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته فقال ْإن الله وملائكته يصلون على النبيْ الآية ْالأحزاب 56ْ آثره بها من بين الرسل إذ خصكم بها من بين الأمم.

قلت: وهو أول من قال ذلك في الخطبة وقد استسنها الخطباء إلى اليوم.

ولما مات قال أبو العتاهية وقد علقت المسوح على قباب حرمه:

رحن في الموشي وأصبحن	عليهم المسوح
كل نطاح من الدهر	له يوم نطوح
لست بالباقي ولو عم	رت ما عمر نوح
نح على نفسك يا م	سكين إن كنت تنوح

مات في أيام المهدي من الأعلام شعبة وابن أبي ذئب وسفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم الزاهد وداود الطائي الزاهد وبشار بن برد أول شعراء المحدثين وحماد بن سلمة وإبراهيم بن طهمان والخليل بن أحمد صاحب العروض.

أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	المتوكل
اسمه الكامل:	جعفر بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو الفضل
ترتيبه في تولي الخلافة:	العاشر
تاريخ الميلاد:	206
فترة الخلافة بالهجري:	232 -247
فترة الخلافة بالميلادي:	847 -861 م
تاريخ الوفاة:	247

أمير المؤمنين محمد الأمين بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	الأمين
اسمه الكامل:	محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو عبد الله
ترتيبه في تولي الخلافة:	السادس
تاريخ الميلاد:	170
فترة الخلافة بالهجري:	193 -198
فترة الخلافة بالميلادي:	809 -813 م
تاريخ الوفاة:	198

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أبا وأما، ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولابنه الحسن.

كان الأمين ولي عهد أبيه فولي الخلافة بعده وكان من أحسن الشباب صورة أبيض طويلا جميلا ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة ومعرفة يقال إنه قتل مرة أسداً بيده وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة

قال الصولي: ولا نعرف للأمين رواية في الحديث إلا هذا الحديث الواحد حدثنا المغيرة بن محمد المهلبي قال رأيت عند الحسين بن الضحاك جماعة من بني هاشم فيهم بعض أولاد المتوكل فسألوه عن الأمين وأدبه فوصف الحسين أدباً كثيراً قيل: فالفقه قال: كان المأمون أفقه منه قيل فالحديث قال ما سمعت منه حديثاً إلا مرة فإنه نعي إليه غلام له مات بمكة فقال: حدثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبد الله عن ابن عباس عن أبيه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول "من مات محرماً حشر ملبياً.

قال الثعالبي في لطائف المعارف: كان أبو العيناء يقول لو نشرت زبيدة ضفائرها ما تعلقت إلا بخليفة أو ولي عهد فإن المنصور جدها والسفاح أخو جدها والمهدي عمها والرشيد زوجها والأمين ابنها والمأمون والمعتصم ابنا زوجها والواثق والمتوكل ابنا ابن زوجها وأما ولاة العهود فكثيرة.

ونظيرتها من بني أمية عاتكة بنت يزيد بن معاوية، يزيد أبوها ومعاوية جدها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان بن الحكم حموها وعبد الملك زوجها ويزيد ابنها والوليد بن يزيد ابن ابنها والوليد وهشام وسليمان بنو زوجها ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد عبد الملك ابنا ابن زوجها.

مات في أيامه من الأعلام إسماعيل بن علية وغندر وشقيق البلخي الزاهد وأبو معاوية الضرير ومؤرج السدوسي وعبد الله بن كثير المقرئ وأبو نواس الشاعر وعبد الله بن وهب صاحب الملك وورش المقرئ ووكيع، وغيرهم.

أمير المؤمنين محمد المنتصر بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	المنتصر بالله
اسمه الكامل:	محمد بن جعفر بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو جعفر
ترتيبه في تولي الخلافة:	الحادي عشر
تاريخ الميلاد:	222
فترة الخلافة بالهجري:	247 -248
فترة الخلافة بالميلادي:	861 -862م
تاريخ الوفاة:	248

أمير المؤمنين هارون الواثق بالله بن محمد المعتصم بـن هـارون الرشـيد بـن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس

الاسم المعروف للخليفة:	الواثق بالله
اسمه الكامل:	هارون بن محمد بن هارون بن محمد بن عبـد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس
الكنية:	أبو جعفر
ترتيبه في تولي الخلافة:	التاسع
تاريخ الميلاد:	186
فترة الخلافة بالهجري:	227 -232
فترة الخلافة بالميلادي:	842 -847 م
تاريخ الوفاة:	232

المراجع

1. الشيخ محمد الخضري: الدولة العباسية ص 34 – 42
2. د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 7
3. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 6 – 8
4. د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 9 – 11
5. د. مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص 519 – 521
6. المرجع السابق ص 522، 523
7. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 7.
8. د. مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص 502 - 405.
9. محمود شاكر: الدولة العباسية جـ 5 ص 5.
10. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 12 - 18.
11. المرجع السابق ص 20.
12. د. مؤيد فاضل ملّا رشيد: شبهات حول العصر العباسي الأول ص47 - 49.
13. المرجع السابق ص 49 - 53.
14. د. إبراهيم شعوط: أباطيل جب أن تُمحى من التاريخ ص 51، 52.
15. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الدولة العباسية ص 5، 6.
16. ادعى أنه علي بن محمد بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب.
17. د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 172 - 175.
18. السباخ: هو الطبقة الملحية المتسربة من مياه الخليج العربي.
19. د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 175 - 178 وانظر له أيضاً:

التاريخ الإسلامي الوجيز ص 177، 178.

20. د. طقوش: تاريخ الدولة العباسية ص 179
21. المرجع السابق ص 179 - 180.
22. هو ميمون القداح بن ديصان وهو رجل فارسي ثنوي المذهب أظهر الإسلام.
23. المرجع السابق ص 180 - 182.
24. استندت فكرة الإسماعلية على فكرة الباطنية، بمعنى أن لكل ظاهر.

باطنًا فآيات القرآن الكريم ظاهرها يعطي معنى وباطنها يعطي معنى آخر يختلف كليًا عن المعنى الظاهري، وأن الإمام العلوي وريث النبوة والمطلع على الأسرار الإلهية، وهو وحده الذي يستطيع أن يؤول آيات القرآن.

25. أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة في عام 339 هـ بعد أن بقي في حوزتهم 22 سنة.
26. المرجع السابق ص 182 – 185
27. المرجع السابق ص 185.
28. د. مؤيد فاضل ملا رشيد: شبهات حول العصر العباسي الأول ص 25 - 32.
29. ومن أمثلة تلك الكتب: الزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، والزهد للمعافي بن عمران الموصلي، والزهد للإمام أحمد بن حنبل... وغيرهم كثير.
30. د. مؤيد فاضل ملا رشيد: شبهات حول العصر العباسي الأول ص 32 - 35.
31. المرجع السابق ص 36 - 39.
32. د. عبد العظيم محمود الديب: نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي ص 65 - 69.
33. المرجع السابق ص 70، 71.
34. المرجع السابق ص 71 - 73.

35. المرجع السابق ص 74، 75.
36. د. حامد محمد الخليفة: الموقف من التاريخ الإسلامي وتأصيل الهوية ص 318.
37. المرجع السابق ص 328، 332، 333.

*** من مراجع الدراسة:**

- محمد جرير الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ القاهرة 1979.
- عبد المنعم ماجد ـ العصر العباسي الأول ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ 1979.
- محمد الخضري ـ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ـ 1959م.
- فاروق عمر ـ الخليفة هارون الرشيد ـ وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ـ 1989م.
- حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (العصر العباسي الأول) مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1948م.

Inv: 1555

Date: 16/2/2016

الدولة العباسية





دار البداية ناشرون وموزعون

عمان - وسط البلد - تلفاكس : 4640679 6 962+
ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن
Info.daralbedayah@yahoo.com

خبراء الكتاب الأكاديمي

...شر والتوزيع

... شارع الشابسوغ
+962 6 46...
... 11118 الأردن
info.daralmostaqbal@yahoo.com

مختصون بإنتاج الكتاب الجامعي